بـــاقــــات

من شعر المغرب العربي

دراسة تحليلية لأبنيتها الجمالية والدلالية

الأستاذ الدكتور

مسعد بن عيد العطوي

أستاذ الدراسات العليا بجامعة تبوك

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد- الأردن

2015


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

مُقدِّمَة

الحمد لله الواسع العليم، المحيط بهذه الكون وملكوته ما تقدم منه وما تـأخر. كلما تكونت الحضارات ألهم الله المبدعين الهامات جديـدة ودعـم الحـدس عنـدهم يحقـق الأمـاني لكل حضارة، وأرسل رسله صلى الله عليهم وسلم بالكتب والحكمـة لتوجيـه مركـز الإيمـان والاعتدال والوسطية والسلام والحلول السلمية بين الرغبات المتصارعة.

ونحن نكتشف جديداً في الماضي ونعـايش جديـداً ونـبني لجديـد المـستقبل فكـل واع وعالم بالحكمة يدرك التواصل المعرفي والإبداعي منـذ القـدم إلى مـا بعـد الحاضـر ومـا وراء المستقبل فلعلنا نكون متواصلين لا رافضين ولا مفـرطين وإنمـا نحـترم العقلانيـة والإنـسانية، والخيرية والاكتشافية، فنشدوا بها دائماً.

إن التأمل في الفكر الشعري يأخذ الإنسان إلى آفاق معرفية متنوعة، فأنـت تـرى فيـه القديم وتاريخه، وحكايته وتجاربه، وأساطيره ومعالم مكانه وتـأثير زمانـه، واللغـة الـتي تحمـل دلالاتها وتاريخها وشحنها وعلامات استعمالها اللغوي في كل مرحلة، فالشعر الجاهلي يحمـل كل هذه الـدلالات وكـذلك الـشعر الإسـلامي والأمـوي يحمـل هـذه ولكـن بفـروق كـثيرة وإضافات يتضح ذلك في الدراسة التاريخية للأدب عبر العصور.

دأب المفكـرون والنقـاد في عـصرنا الحـديث علـى طـرح بعـض الثنائيـات متـشدد ومتحرر، إسلامي وكافر، تراثي وحضاري، مقلد وحـداثي، كلاسـيكي ورومانـسي، وغيرهـا من معجم الألفاظ الدلالية التي ما زالت مهيمنة علينا في سائر التوجهات الفكرية ولمـا نحـصر أنفسنا في النقد الأدبي نجد كماً هائلاً من هذا المعجم مسيطراً على منهجيـة الـتفكير والطـرح وهي مصطلحات تجذر الانفـصام والانفـصال المفتعـل فكـم أوجـدنا مـن مـصطلح للقـديم كالتقليـد، والإتباعيـة والبعـث والأصـالة والإحيـاء وكلـها تـوحي في مفهومهـا المـصطلحي بالتخلف والالتزام بالقديم ورفض الحديث، ونحن لو درسنا الأدب بعيـداً عـن هـذه الثنائيـة لوجدنا التواصل بين التراث والمعاصـر مـن ناحيـة المـضامين والتحـولات النفـسية والعقليـة

والتطور الحضاري وتوظيف اللغة في ألفاظها وتراكيبها وموسيقاها ودلالتها واستلهامها للحديث، واستيعابها لكل جديد فالدارس لشعر الشعراء يدرك بذور التواصل المضموني والفني بين القديم والحديث بل بين الحديث والمعاصر.

ونحن لو قيض الله لنا من يدرس سلبيات الثنائية لأدركنا أنها من عناصر التخلف الثقافي، فقد أحدثت صراعاً ألهت الأجيال وشغلت العقول وجعلتها هامدة جامدة حتى في الطرح الإسلامي والاجتماعي والفكر النقدي الثقافي والأدبي ومن هذا فإني دأبت على تجاوز هذا الطرح الثنائي في كثير من أبحاثي النقدية محاولاً إظهار عوامل التواصل بين هذه الثنائيات.

وهنا أدعو دعوة واضحة لرفض المناهج النقدية التي تقوم على الثنائية بغية اكتشاف طرائق جديدة بعيدة عن طرائق الطرح النقدي القديم لعلنا نرصد و نكتشف سبلاً نقدية جديدة ليست ببعيدة عن الجمال الفني وألوانه وهي تنأى عن الصراع والتناحر الذي يجعل الانتصار هدفاً للناقد أو الباحث ولعلنا نأتي بطرح نقدي موازٍ لأولئك النقاد مثيري الثنائية فنقول:

إن الأمر الذي يهم الناقد ويهدف إليه هو أن يكتشف المعالم الجمالية والمضامين الإنسانية والتجديدات الفكرية وفي محاولة لإكتشاف تلك المعالم الفنية والفكرية في نتاج الأديب وربما تواصل الماضي مع الحاضر مع استشراف للمستقبل وكل هذه التأملات تمهد لطرح توجهات إبداعية، ونظريات تتوالد عن النقد الفكري بعيدا عن الأنشغال بالصراع الثنائي.

الأستاذ الدكتور

مسعد عيد العطوي

غرة محرم 1436هـ/2014م

تبوك

تهميش اللسانيات والأسلوبيات

كنت أقف طويلاً عند نقد السرد بدءاً بالمقالة والقصة القصيرة والرواية والقصيدة الحديثة بل حتى القصة الشعرية، فتبين لي ظهور اتجاهات كثيرة تهيمن على المتلقي والناقد فإذا قُيض له ولوج عالم الإنسان ومكوناته من الأفراح والأتراح من المعاناة والبؤس فإن هذا الناقد يستعين بالفلسفة حول الإنسان ونظريات علم النفس ويدور في فضاء فرويد ومعارضيه، وإذا كان الناقد له انزياح نحو المجتمع وتكويناته وشرائحه فإنه يغلب عليه توجيه دلائل النص إلى القضايا الاجتماعية، وإذا كان الناقد معنياً بالسياسة وحرياتها وديمقراطيتها واستبدادها فإنه قادر إلى جذب النص إلى السياسة وإسقاط ظهور النص على الواقع لتكون رمزاً أما إن كان ذهنية الناقد دينية أو معارضة فإنه يجد في النص السردي ما يحوره لصالحه وغير هذه الاتجاهات الكثير.

من هنا كان النص الشعري والقصصي مسرحاً لنقد ذهني فكري أو وجداني تارة أخرى و الذي أراه مهمشاً هو لغة النص السردي وكان لهذا الاتجاه الذهني أثره على البنية فالسرد تطور مضمونياً ولكنه لم يتأثر بالتنظير لغوياً وشكلياً وبناء نص لغوي من حيث الحروف بل حتى الألفاظ ثم عملية السياقات والتراكيب فأكثر النصوص السردية مهلهلة لولا إضاءة المضمون لما كان هناك نصاً أدبياً. وأنت تقرأ للسارد أجيالاً من الإبداع عبر سنين عمره فلا تجدّ تحولاً في الأسلوب ولا ثراء في اللغة رغم الممارسة وتلون الموضوعات. ولغياب التفاعل اللساني والأسلوبية وغيابها عن النقد السردي والنثري والشعري كل ذلك أوجد انفصاماً في تركيبة النص. فقد خبا الإبداع الشكلي وأخذنا نلهث وراء المثيرات التي تعارض الدين وتضاد والمجتمع وتمثل الأحوال الشاذة. إذ جعلنا لها الهيمنة مما أفقدنا الطريق إلى التشكيل اللغوي الذي ينير للناقد والمتلقي التفاعل بين المبنى والمعنى وتأثير بعضهما على بعض. وهو التفاعل الذي أشار له أرباب الألسنية واللسانيات ونقاد الأدب بالأسلوب والأسلوبيات وافتقدنا نظرية الدال والمدلول، والتداولية اللغوية بل الدلالة حتى السياقات

وبنية اللغة ونظرية المنطوق والمفهوم في التأويل الذي أثرى الفكر وفتق النص القرآني والحديث من خلال علم البرهان ودلائله النصية.

ونحن نجد كماً هائلاً من الشعر اتخذ هذا المنحنى الذي يهمش اللغة ويقوم على المضمون. ومن جانب آخر فقد هيمنت الذاتية للمتلقي وهيمن الناقد على النص وتحولاته ولم يكن للنص حضوره ولا هيمنته إنما هو مثل الغصن تميله الريح حيث اتجهت شرقاً أو غرباً أو شمالاً أو جنوباً كما تجلت فكرة يراها الباحث في جلّ الدراسات حول السرد مفادها أن الناتج النقدي للنص خارج النص ؛ خاضع للمؤثرات الخارجية للمتلقي أو الراصد للحراك السردي. وكانت النتيجة ضعف التكوين اللغوي وتطويره النصي عند المبدع فهو لا يهتم بالشكل اللغوي مثل أي إنسان لا يهتم بمظهره أو كمثل الحالة النسائية المهيمنة التي تجاوزت حدها فأهتمت بالخارج لم تظهر الداخل بل أرادت بالأصباغ تغيير الداخلي عن مساره فأنت أمام قطبين غير متكافئين أو متوازيين على الأقل، وهما أدوات المبنى ووسائله وبنيته العميقة من خلال الشكل والآخر هو النتاج النقدي الذاتي المنفصل عن الاستنباط التأويلي والبرهاني للغة و الشكل.

خلاصة لهذا العرض يمكن القول إننا لو نظرنا إلى أسباب تهميش اللغة لوجدناه يتمثل فيما يلي:

أولا: غياب التنظير النقدي المرتبط باللغة العربية الأم فقد أعرضنا عن الدراسات الأسلوبية التي تعتمد على اللغة فلم نجمع بين اللسانيات والأسلوبية بل إننا لم نحرص على استنباط الاتجاهات من خلال البنية اللغوية وإنما من خلال المضمون فكأن الأسلوب غشاوة ضبابية نخترقها بل عناء.

ثانياً: هيمن النقد الانطباعي الذي يفيض من خلال ثقافة الناقد وتكوينه الذهني والوجداني فالكثير من النقاد يتفاعل مع العصر وظواهره فمثلاً الآن اتجهنا إلى الأسرة والمرأة وأخذنا نقتطف ما يكون فيهما من انحراف أو ما يفتعله السارد لتمثل قضايا اجتماعية ذات مغزى فكري والواقع أن له تأثيره في تفكيك الأسر.

ثالثاً: نحن نلهث وراء الاتجاهات النقدية الغربية، ونأخذ زهـرات مـن هنـا وزهـرات من هنا وكلما أعدنا النظر فنأخذ منه ونحاول الاقتـداء بـه وهكـذا نقـدنا ونظرياتـه مـستوردة وليس أدل على ذلـك مـن تعـدد المـصطلحات بـل اخـتلاف مـضمونها فـنحن أمـام الرمـز والغموض، والإسقاط، والانزياح والتجريد والقناع وكلها تدور في فلك متقارب ونحن نـدور في الاتجاهات ونختلف على مصطلحاتها وطرائقهـا في فلـك دوار ممـل. ونحـن لم نقـف علـى المنهج وحده ونأخذه ونأخذ منطقه ونسبر نور لغتنا وأدبنا ونعود به إلى فكر جديد بديع.

رابعاً: إن الناقد العربي ناقد انحيازي للقيمة الذهنية أو هو ناقد جزئي ينقد جانباً مـن النص ويعرض عن جوانب أخرى فالنقاد السرديون يقفون عنـد القـيم الذهنيـة، ويعرضـون عن قيم اللغة التي تحمل في طياتها تكوينات تراثية وواقعية.وصوراً عجيبـة خياليـة أو واقعيـة شاهدة للعيان أو مستشرف للواقع إن اللغة هي الكنز الـذي يتفجـر ينـابيع مختلفـة إذا كانـت القراءة استنطاقية مؤهلة للاستنطاق بكم من المعرفة ومن الممارسة الفكرية والنقدية.

مفهوم الإبداع

الإبداع لغة:

بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه: أنشأه وبدأه، والبديع والبدع: الشيء الذي يكون أولا وفي التنزيل:﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعإلي: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾، وقال تع إلى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي خالقها و مبدعها.

والبدعة كل محدثة، ويرى ابن الأثير أن (البدعة بدعتان، بدعة هدى وبدعة ضلال فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ، فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه أو رسوله فهو في حيز المدح).

وفي الأثر: "كل محدثة بدعة".

لذلك فإن الإبداعة والحداثة متقاربان متقارنان ولذا ابن منظور قال في لسان العرب "والبديع المحدث العجيب"، "والبديع من اسماء الله تع إلى لإبداعه الأشياء واحداثه إياها".

الإبداع اصطلاحا:

"الخلق من عدم أي اختراع شيء لا على مثال سبق" ويكون في أنواع المعارف "إنشاء شيء جديد انطلاقاً من التعامل نوعاً خاصاً من التعامل مع شيء أو أشياء قديمة، قد يكون هذا التعامل إعادة تأسيس أو تركيب، وقد يكون نفياً أو تجاوزاً".

وقد يختلف الإبداع في الدين عنه في العلم التجريبي، كما يختلف عنهما أيضاً في الفن.

فالإبداع في الدين بمعنى الخلق من عدم وفي الفن "إنتاج نوع جديد من الوجود بواسطة إعادة تركيب أصيلة للعناصر الموجودة".

وفي الفلسفة: نوع أصيل من استئناف النظر في المشاكل المطروحة لا يقصد حلها حلا نهائياً لإنه ليست هناك حلول نهائية بل تطرح من أجل الاهتمام بالمستجدات[1].

أما في العلم التجريبي "فالإبداع اختراع واكتشاف يتم عن طريق خطوات فكرية ميزتها الأساسية أنها تقبل التحقق منها" 108:1 من مقال محمد عابد الجابري، ويعرفه علماء النفس بأنه "قدرة عامة على إنتاج الجديد واستحداثه ومتابعة الجهود العقلية في تنميته". الإبداع ص 36.

والإبداع وليد الفكر السائد في العصر فهو الموحي بتوالد الأفكار لأن الإنسان يولد على الفطرة فيتأثر بما حوله من الحركات واللغة والطبيعة والعلوم فيكون خاضعاً للمفاهيم والمبادئ وطرق التفكير وسبله وآلياته. وهنا يكون الفكر مستمراً وأداة لترسبات هذه المفاهيم فهو أداة لها من خلالها تتكون أفكاره وآراءه ونظرياته من ثم يصلح للأفكار والنظريات والآراء الحاضرة والمستقبلية و ترتبط بعلاقات بنيوية تستقي منها دلالتها ووظيفتها، مما جعل التفكير يكون محتوى أيضا[2].

و الإبداع يتبلور من قوة الرغبة الذاتية لكل عقل بأن يتميز بذاتيته وأنها خاصة به ولكن لا حقيقة واقعية له إذا لم يرتكز على الأصالة والبناء الفكري الثقافي السالف والمعاصر ويلتمس التحديث عن طريق الذات الفاعلة بالتهيؤ والاستعداد، والاختمار، والإلهام والتحقيق والتعديل وهذه الوسائل تدعو الذات إلى التحرر من التقليد، والسير مع المفاهيم الشائعة، والنماذج الواضحة، غير أن الذات والأنا يجب أن تعتمد على الصدق أولاً في مناحى تفكيرها، وعلى اليقين من الصحة ثانياً، لكيلا يكون على عيني المبدع حجاب يحول بينه وبين الارتكاز على التفكير السليم في عطاء الآخرين، وألا يجنح إلى العناد والمخالفة والشذوذ لمجرد الظهور، لأن الاختلاف من أجل الاختلاف يفقد المبدع سمة التفكير، ويبعد به عن مادة الإبداع التي تتفاعل من مصانع الفكر لدى الآخرين، وحينما يضع أفكاره في ميزان التقويم، ويجد فيها مبرراً لتبنيها، فإنها تبرز قدرة الاعتزاز بالنفس، والتصدي لمعارضها

---

(1) فصول 108

(2) فصول 107 من مقال محمد عابد الجابري

والعمل على نشرها، وهذا ما تعنيه الشجاعة عند ماكينون "إنما يعني الإشارة إلى نوع آخر من الشجاعة الشخصية، شجاعة العقل والروح والشجاعة الأدبية، وقد تتخذ تلك الشجاعة لدى المبدعين مظاهر متعددة منها شجاعة التساؤل، وشجاعة الرفض لما هو خاطئ ولو كان شائعا مقبولا... وشجاعة التفكير بطريقة مختلفة، وشجاعة التخيل لما هو مستحيل، ومحاولة تحقيقه"[1].

والإبداع إذا كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ عليه فهو مقبول وما أوسعه من باب؟ حيث تركه الله لقدرة العقل المكونة من المبادئ والمفاهيم والتشابك والتلاقح والتمازج مع الكون وفكره. وإنتاج فكر جديد من خلال انصهارها مع مواهب المبدع. والإسلام في أول عهد لم يمنع الفاروق من الإبداع الإداري بل إن إبداعه تجاوز ذلك إلى تطبيق أشياء منه ما يمس الشرائع كمثل حكمه في عام المجاعة بمنع قطع يد السارق لأن الحاجة ألجأت الناس إليها، إذن فالإسلام يمنع الإبداع فيما يقصر عنه العقل فحسب وأما ما يمكن أن يدركه فالباب مفتوح أمامه. والإبداع الذي منعه الإسلام هو الذي يخشى منه تغيير مسار الدين الإسلامي كالرهبانية التي ابتدعها أهل الأديان السابقة.

وذلك يعود لأن الدين الإسلامي منزل من الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان وخلق عقله إذن فالعقل البشري قاصر عن استحداث شيء في الدين صالح لكل زمان ومكان ومن هذا المنطلق لا يجوز أن يأتي الإنسان بحكم ناقص.

أزمة الإبداع:

كلمة أخذ يرددها المهتمون بالأدب في البلاد العربية وعممها الكثير على مناحي المعرفة الفنية والفكرية والفلسفية والتجريبية، وهذا أمر يحتاج إلى نظر إن لم يكن نظرات، وإننا لو رأينا العوامل المؤثرة في الإبداع التي اشترطها الجابري فإنها تنحصر في الأصالة والجدة ويرى أن التوقف والتدهور الذي أصاب المعرفة يكمن سببه في احتذاء النموذج السلفي وبعبارة أخرى يعود إلى المبادئ و المفاهيم الراسخة التي كونت الفكر فيقول

---

(1) الإبداع: ص 84 د. عبدالستار إبراهيم

الجابري: "وفي إطار التحليل أبرزنا أن النموذج السلف، هو الذي يتحمل القسط الأوفر من المسئولية فيما يعانيه الفكر العربي المعاصر من أزمة وفشل، ذلك أنه سواء تعلق الأمر باطروحات الداعية السلفي والداعية الليبر إلى أو الداعية الماركسي فإن هناك دور نموذج – سلف) يشكل المرجع لكل منهم، به يفكر، وعليه يقيس وفي ضوئه يرى، وبوحي منه يقرأ أو يؤول. إذن فالنموذج السلف هو الذي يغذي عوائق التقدم و الإبداع في الفكر العربي فهو الذي يصرفه عن مواجهة الواقع، ويدفع به إلى التعامل مع الممكنات الذهنية على إنها معطيات واقعية وأخيراً و ليس أخراً، هو الذي يجعل الذاكرة ومن ثم العاطفة واللاعقل، تثوب فيه عن العقل"[1].

الواقع إن هذا القول خاضع للمنطق الذي عابه نفسه فإن الكاتب متأثر بمفاهيم مستقاها من المنهج الديني المسيحي المحرف منهج السلف بالنسبة للحضارة الأوروبية فلم تتقدم في حضارتها حتى أعرضت عنه ومفهوم آخر استقاه من النظرية الماركسية التي ترى أن الأديان وتضم إليها الدين الإسلامي عامل من عوامل التخلف للشعوب والواقع أن ديننا الإسلامي لا ينطبق عليه ما ينطبق على الأديان المحرفة فإنه يمد المنتمين له بفكر واضح وصريح وبقوة إيراديه لا حدود لها وذلك لأنه دين وعمل صلاحه للدنيا وخير دليل على ذلك بأننا لو عملنا بأفكار وآراء أسلافنا رواد النهضة الحديثة من مثل رفاعة الطهطاوي، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا وغيرهم الكثير من الذين يرون أن المسلم عليه أن يأخذ ويقتبس من العلم التجريبي. وما وافق الدين والعقل ولو عمل بالنموذج الإسلامي وغاص العلماء في مضامينه واستوحوا أفكارهم من خلاله لوجدوا الدر الكامن في أصدافه كما ظهر في النماذج التي ذكرتها. ومن الأسباب التي أودت بآراء السلف عدم المبالاة بأفكارهم، فأعرض عنها المنفذون للسياسة والفكر فقد كانت الأفكار تصدر لمعالجة حدث حاضر واقعي ولكن لم يؤخذ بذلك الفكر في زمانه وظروفه.

من هذا المفهوم نجد أن النموذج الإسلامي يختلف عن غيره لأنه يمد العقل بما لا يقدر عليه وهو قابل لكل حدث يسير بالحياة إلى الأفضل وهو ثابت غير متذبذب بخلاف

---

(1) فصول 109

الأفكار التي احتلت الصدارة في العالم الثالث التي تنقل من مذهب إلى مذهب فإنها متذبذبة غير معتمدة على دستور الهي ولا تراث تجريبي ولا مفاهيم صحيحة ومع ذلك لقيت تأييداً من آباء تلك الاتجاهات فاحتضنوها لأنها نابعة من جد لهم ولكي تقف في وجه الاتجاه الإسلامي الذي يعارض تلك القوى ويحجر عليها الدخول للمجتمع فلذا استلم القيادة الاتجاه المتذبذب الذي لا يقف على أرض صلبة ولا أسس متينة وذلك نتاج الثنائية التعليمية والتربوية التي عصفت بالوحدة العربية.

لو نظرنا نظرة عقلية في أسباب أزمة الإبداع، فإن ذلك يقودنا أولاً إلى أن نتساءل حول مسببات الأزمة. هل تعود إلى الجمود الفكري في العالم العربي وعدم الوعي بأهميته؟ أو أن الفكر العربي لم يُتح له الفرص لكي ينمو ويزدهر ويبدع؟ أم أن الواقع يدل على أن الفكر العربي هائج متطلع يتناول ما هو أمامه بالتفاعل والبحث ويبذل الجهد ولكن لم يهتد إلى طريق الابتكار والإبداع؟ أم أن الأنهار العلمية والثقافية المتدفقة أخذت عليه الوقت فنهج نهج العلماء الأوائل الذين يأخذون من كل فن بطرف قبل تشعب العلوم الحديثة؟ أم ان الابداع العربي مواصل المسيرة في البحث والتنقيب غير أن المسيرة متعثرة بفعل العوامل المحدقة بالعالم العربي ذاته من فرقة وضياع وفقدان الجو العام الخصب للإبداع، أليس الفكر جزءاً من هذا الكيان العربي الذي يتناحر ويتقاتل، ويفتك بعضه بعضاً. لماذا لا تقول إن الفكر العربي نفسه يتقابل ويتحارب ومن ثم لا يتآزر ولا يتعاون مما جعل قواه تنخر ويضل طريق الإبداع، أليس من الممكن أن تحارب وتروج له الأسلحة الفكرية والشائعات كما تحارب وتروج الأسلحة للقتل والقتال ألم تكن مصادر الأسلحة للعالم العربي ليتقاتل مع بعضه هي مصادر الفكر ليتصارع في ثنائية فكرية مستديمة.

ونحن لو تناولنا مسألة الجمود الفكري، ندرك أن الواقع يبطلها ولا يقرها لأن العالم العربي في حركة دائبة، فمن بداية النهضة وهو ينشر التعليم في الداخل، ويلتمس الفكر في الخارج، غير أنه لم يبلغ مرحلة الإبداع، فهذه مئات الكتب بل آلاف تصدر في كل قطر عربي في شتى المناحي المعرفية.

أما إتاحة الفرص للفكر العربي لكي ينمو فهي عملية نسبية. وواقع العالم العربي الإداري تأتيه الهجمات التي تهز تفكيره عن التوازن والتركيز، فلم يكن أمام العقول العربية والوسائل الكفيلة والحافزة على الإبداع والمحتضنة له. بل أن السبل الفردية تتخللها العقبات، فلم يعط صاحب المواهب حقه من الرعاية، ولم يضمن له المقارنة الإبداعية مع نتاج العالم أو العالم العربي على الأقل، بل لم يحصل على المعارف في حقله التي تجعله يرسى دعائم معرفته ومن ثم ينطلق إلى الإبداع ولم تكن الوسائل الأكاديمية أو الفردية قادرة على جمع النتاج للمبدعين حتى يُقارن بينها و بين إبداعه.

ولم يدخل المبدع في احتكاك مع الآخر ليتمكن من تمحيص فكره وتثقيفه عن طريق اللقاء والحوار والندوات، وأما هذا الزخم الهائل من المعرفة فهل تمكن العالم أو الباحث من الإلمام بالمعرفة المنقحة أو المجمعة على الأقل فلا يحتاج إلى جهد مادي وم إلى تحول بينه وبين المعرفة والمعروف في العالم المتقدم بذلهم الأموال الطائلة للبحث العلمي، إذن فإن الأمر متشعب وأحوج ما يكون إلى تضافر الجهود وإخلاص في العمل تدفعها عزيمة صادقة صابرة من المجتمع وقادته وصفوة العلماء فيضعوا الباحث أمام الإحساس بالمسئولية، والتفاعل مع الخبر، وممارسة الإبداع ويتبنوا منهجية للتفكير لا تقف عند حد من الإبداع بل تتنامى في مواصلة مستمرة لكل بارقة فكرية لتتوالد وتتفاعل عن طريق التلاقح والتمازج مع الخبرة العالمية والعربية والذاتية الفردية.

وكل ما ذكرنا يحتم على الشعوب أن تبلورها في أُطر ومناهج تستجيب للإبداع وتيسر عملية التلاقح وتساعد على خصوصيته، وتمده بعناصر النماء والتطور، و تكون مأزراً وحصناً للمبدع وتتجسد وتتلون في إثارة العقول وتحريكها، وتفاعلها مع الأفكار، من هذه الضرورة الحتمية تكونت وتبلورت الدراسات حول المناخ الإبداعي من قبل علماء النفس وعلماء الاجتماع، والأدباء والمفكرين، واتضح لهم عن طريق الدراسة والاستبيان أن المواهب الذاتية تنمو وتشتعل مع إتاحة الفرص وتخبو وتنطفئ مع خمول المجتمع وتقوقعه، واندراجه في السلوكيات التي ترفض بلا عقل ولا موضوعية ولا واقعية. إذن فالمجتمع يحكم عليه من حيث الوعي قبوله وتشجيعه للقبسات الإبداعية التي تصدر عن المبدعين وما مدى

الاستجابة لها وإتاحة الفرصة لبروزها، وما دوافع المجتمع لتشجيعها وتنقيتها وتمحيصها، إلى جانب إزالة العوائق من الطبائع والعادات التي تتسم بها بعض الشعوب وتقف حجر عثرة في وجه البحث والتعبير الصريح للإبداع. وربما أن هناك بعض المجتمعات التي تسري فيها روح الطبقية، فتتيح النجاح السهل، والمركز الاجتماعي، والكسب المادي، ولم تحوج الفرد إلى المثابرة والتعب والتحصيل، بل أن الكدح وراء القدرة العلمية يعرقل تقدمه المعنوي والمادي ومن المؤكد أن جزءاً كبيراً من هذا الفشل لا يعود إلى ضعف الإمدادات المادية، أو التجهيزات الحديثة بقدر ما يعود إلى سيادة مناخ اجتماعي يشجع على قيم غير فكرية كالهيبة، والمركز والسلطان، والكسب المادي السريع، ويؤدي إلى أن يتولى الوظائف القيادية أشخاص ذوو خصائص لا تتناسب مع الأهداف والقيم العامة لهذه المنظمات ومثل هذا المناخ لا يؤدي إلى البلبلة وإثارة الشك في قيم البحث والإبداع فحسب، بل يؤدي إلى تكوين قيم جديدة تكون لها قوة أكبر في حصار النمو الإبداعي الفعال، أو تقبل القيم الإبداعية على الإطلاق[1] "الإبداع".

لذا كان من واجب المجتمع أن ينمي أشكالاً من القيم تتقبل وتؤازر حرية البحث، والتعبير والإبداع، وتفسح العديد من المجالات لتحتوي الفروق والاتجاهات الفردية في مناحي الحياة، وكثير من الكتّاب في عصرنا الحاضر يتصور أن المجتمعات الإسلامية تعرقل مسيرة البحث وينجم ذلك التكبيل عن التقيد بالقيم الإسلامية في نظرهم، وذلك مخالف للواقع وأن العرقلة نابعة من العادات المخالفة للإسلام أو من النظم الإدارية المهيمنة، أو أن الأمر لا يعود إلى ذلك وإنما مرجعه إلى أن الكاتب يقلد الغرب في الطعن على الدين، وليس معنى ذلك أننا ننفي العقبات التي تقف في وجه المبدع من المجتمعات العربية والإسلامية مع توفره بنسب مختلفة ولكن ما أريد أن انفيه هو أن الإسلام وتعاليمه بمعزل عن تلك العراقيل والحواجز، بل أن هناك فئات ذات مصالح ربما تحارب الإبداع تحت مظلة الإسلام، إما لهدف مادي أو طبقي، أو طعن في الإسلام وتشنيع أو لضعف إدراك للتعاليم الإسلامية.

---

(1) عبدالستار ابراهيم ص 200 الإبداع

ومن الدوافع التي تعرقل مسيرة الإبداع النظرة الطبقية التي تتمثل في كثير من الشعوب فينظرون إلى الفرد من خلال طبقات المجتمع، فهذا يميني والآخر يساري واشتراكي ورأسم إلى وهذا من أسرة كبيرة، وهذا من أسرة صغيرة، وهذا حضري والآخر بدوي وهذا فلاح وهذا صناع وغيرها وكأن الصفات تلك تدخل في عوامل التكوين العضوي والذكائي والعقلي والمواهب والاستعدادات.

والنظرة إلى المثالية تختلف من مجتمع إلى مجتمع، فكثير من الذين يكسبون رضا الناس فينمون العلاقات هم من أولئك الذين لا يعتمدون على قدراتهم ومواهبهم "وكمثال على هذا تدل البحوث في مجال الشخصية الإبداعية على أن نسبة كبيرة من المبدعين من النوع الانطوائي أي النوع الهادئ الانعز إلى المستبطن، المولع بالثقافة أكثر من الناس، والذي يميل إلى التحفظ والترفع إلا مع الأصدقاء المقربين، والذي يميل للتخطيط للمستقبل، وأن ينظر قبل أن يخطو ولا يتفق في الانطباع الوقتي، ولا يحب الإثارة، ويأخذ أمور الحياة اليومية بجد كاف، ويحب طريقة الحياة المنظمة، ويتحكم في مشاعره تحكما وثيقا"[1].

وربما أن بعض المجتمعات تعاني من فشل أولئك الذين يتعاملون في الأعمال الإدارية، والأعمال المهمة بكل موضوعية، وجدية وعلى قدر من الأمانة ومخافة الله، وحرص على الوطنية، ولهم ضمير يقظ محاسب غير أنهم لم يخضعوا لظروف ورغبات الفئة التي لها مصالح لذا سرعان ما يذاع فشلهم وفشل مؤسساتهم وقد لاحظ "كاتل" وابان عن الشخصية المقبولة في هذا المجتمع الذي يعثر مسيرة الإبداع فيقول د. عبدالستار "أن النمط المتكامل والصورة النموذجية لهذا النمط هي الشخصية الانبساطية الشخصية خفيفة الظل، سريعة الحركة، القادرة على الجذب والكسب، والمحبة للحفلات، وتبادل الأحاديث، والتصرف السريع واللباقة ويلاحظ "كاتل" "أن شيوع هذه التصورات تخلق مناخاً يساعد على شيوع أنماط من الشخصية يكون هدفها النجاح الاجتماعي الضيق القائم على سرعة

---

(1) عبدالستار ابراهيم 203

البديهة، والجاذبية اللفظية، والانفعال والاتجاه نحو الخارج والإغراق فيه، في مقابل اختفاء نمط الشخصية الإبداعية الدقيقة، والتأملية والمفكرة[1].

ومن هنا يجب أن تولي الشعوب والأمم الإبداع أهمية وذلك بتهيئة الجو المناسب، فتقوم النظم الإدارية بتبني خطط تفسح مجالاً للإبداع والمبدعين فتبرز الأساليب الفاعلة لتنمية الاتجاهات الابتكارية وتفتح أبواب البحث ووسائله ومناهجه وتكشف مراكزه وتبذل له الأموال الكفيلة بالحوافز المشجعة.

---

[1] عبدالستار ابراهيم 203

مكونات الرومانسية في الشعر الأندلسي

إعداد مسعد بن عيد العطوي

مقدمة

الحمد الله الذي أظلنا بظلال الإسلام و صيرنا أخوة في الأوطان وحمل أسلافنا راية الإسلام وعمروا البلاد ونشروا العدل والخير في جل الأماكن والأزمان ونصلى ونسلم على رسولنا السراج المنير والهادي إلى الصراط المستقيم، لقد درست الأدب الأندلسي في إحدى السنوات، واطلعت على دراسات فوجدتها تقوم على تاريخ لهذا الأدب، وقد وقفت كثيرا من الدراسات على قضايا اجتماعية وفنية وهناك أساتذة متخصصون في الأدب الأندلسي بذلوا حياتهم في البحث عن إظهار كنوزه فجزاهم الله خير الجزاء. ولما أعلنت جامعة جرش عن مؤتمرهم السنوي الأدبي النقدي ودعاني صديقي الدكتور/ خلف الجردات الذي كان معنا مشاركا في مؤتمر جامعة الزيتونة وعدت للأدب الأندلسي أستمطر أفكاره وأتأمل سماته وإذا بالذاكرة تستدعى الرومانسية ومكوناتها فإذا بى أعثر على كثير من تلك المكونات الرومانسية في الشعر الأندلسي، فالوجدان حاضر الوجود في جلّ أشعارهم، والانفعال الذاتي هو مصدر تجاربهم، ومحاكاة الطبيعة والطبيعة ذاتها تتلون أشكالا طبيعية في أشعارهم بعد أن انغمست في أحاسيسهم وهم يحادثون الطبيعة في الأرض الخضراء، والورود والأزهار والأشجار والغابات وهم يقفون على الماء في سمائه وسحبه وفي أنهاره وجداوله ونفوسهم مملوءة بهذه الجنات الناعمة ومن هنا فإني أحاول أن أكتشف السمات الرومانسية في الشعر الأندلسي ومن خلال الدراسة أدركت أن الشعر الأندلسي العربي له دوره في تكوين الجذور الأولى للرومانسية الغربية فأشكر لجامعة جرش دعوتها للبحث في شعر الأندلس، وأشكر للدكتور، خلف جردات والدكتورة جودي بطاينة أشكر لهما دفعهما لي لمراجعة البحث المرة تلو الأخرى حتى بلغ هذه الدرجة مع أني كدت أهمله لانشغالي، لعله يرضى الأخوين الكريمين أدام الله لهما حب البحث والتمحيص والتقصي.

وقد يسأل سائل لماذا اخترت مصطلح الرومانسية مع أن التعريب بها هو "الوجدان" والإجابة هي أنني أريد أن أعقد القِران بين الأندلس العربي وبين الرومانسية الأوربية فالجذور الأولى للرومانسية كثيفة في الشعر العربي في الأندلس مما يدل على أن الشعر العربي الأندلسي له أثر كبير في الأدب الأوروبي ولا سيما في الشعر واتجاهاته ولعل الدراسة هذه تسهم بإدخاله إلى الأدب المقارن.

فالأندلس من القارة الأوربية، فالطبيعة متشابهة وجمالها مؤثر في كل فرد يعيش عليها، والأندلس كانت مجمع الثقافات وكثير من أصول الأندلس العرقية متواجدة في الأندلس وممتزجة مع الشعب العربي والبربري.

فلو تأملنا في مسيرة الحياة الثقافية الأندلسية لرأينا أن الأندلس يستقبُل الفكر والثقافة بل العادات المجتمعية وسرعان ما يفرض الأندلس سمات جديدة على الثقافة ومكونات المجتمع لما يتسمُ به الأندلس من المكان المؤثر والحياة المتنوعة، والبيئة المتفاعلة الفاعلة، فمنهم من لهم دور في الفكر السياسي ومنهم من لهم دوره في الآراء الفقهية والفكرية، وتطارحوا نظريات الفلسفة وكانت لها موجات بين القبول والرفض، وأكثر تأثيرها على الأدب شعرا ونثرا، وهم من الأوائل الذين روّضوا الموشحات يقول ابن بسام ((وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها، ووضعوا حقيقتها...وأول من صنع أوزان هذه الموشاحات بأفقنا واخترع طريقتها، فيما بلغني محمود القُبري العزير)).

مع أن المشارقة يرون البداية منهم والشاعر ابن سناء الملك يدعيها وكتب الطراز عنها، والناقد يدرك العلاقة بين الموشوحات وسهولتها وحريتها ومعانيها وصورها وذاتيها ورمزيتها وبين الرومانسية.

فالاختلاف بين عادات وقيم الشعوب في الأندلس ولد فكرا متنورا، وهذا يثري الوجدان والأحاسيس المتدفقة عند الفرد وهذا ما كان إبان توالد[1] متقاربة وهذا ما أوجد قاسما ثقافيا بين تلك الشعوب، يضاف إلى ذلك كون الأوروبيين استفادوا من ثقافة الشعوب العربية الفارسية والهندية وهذه الظاهرة هي التي كونت الأدب الأندلسي فجعلت

---

(1) إبن بسام، الذخيرة 469:1

شعره يمثل الأحاسيس أكثر من غيرها بل لنقل: إن الأحاسيس والانفعالات تداخلت مع كل موضوع ومضامين الشعر تلك هي الجذور الأولى للرومانسية.وتأمل معي وصف الطبيعة لعمر بن الشهيد فقد تشكل في هذه المقطوعة بعضا من سمات الرومانسية:

وممـا شـجاني في الغـصون حمـائم   تجـاوب في جـنح الظـلام حمائمـا
يــرجعن ألحانــاً لهـــن شـــواجياً   فيرسـلن أسـراب الـدموع سـواجما
سـقى الله أيكـاً مـا يـزال حمامـه   يهـيج مـشتاقاً ويّـسعدٌ هائمـا
وكـم ليلـة للـدهر باهيـتُ نجمهـا   بنجمٍ من الـصهباء يجلـو الغوائمـا[1]

إن الأندلس كان مغريا للحياة المتنعمة والرفاه، ومن ثم ميل النفس إلى السلام والأمن الفردي والبعد عن الصراع وهذا معانق لما وجد من مكونات الرومانسية في أوربا فإن الرومانسيين دعوا إلى السلام والسلام وهربوا إلى الغاب وأعماق البحار وآفاق الفضاء في أدبهم هربوا من الصراع ولو نقبنا في أدب الأندلس لوجدنا يفيض بهذه الظاهرة: هروب من الصراع الفكري والعقائدي، والفتن والحروب ومن نتائج ذلك في الشعر الأندلسي كثافة الانفعال والتدفق الوجداني والفيض بما يفتعل بالذات، فتولد لنا الشعر العاطفي، والحب الذي يغمر الشعراء والشعر، وتمثل ذلك في سهولة الشعر وقصر جمله وابحره وغنائيته فنجسدت لنا الموشحات، وكثير من الشعر المغنى.ولم تلبث تلك الثقافة الأندلسية أن غزت مثقفي أوربا ومفكريهم والأمراء والأثرياء فتوافدوا إلى الأندلس من اجل التحصيل وتنويع الثقافة فأعجبهم الشعر الأندلسي واستمال أمراء ومثقفي أوربا؛ فأبدعوا على شاكلته؛ وهذه وغيرها تشكل النظرية التي تقول إن الأندلس مصدر الإشعاع لأوربا فهم تلقوا من المشرق ومن العمق الأندلسي أنماطا الترسبات الاجتماعية وكون الأندلس بفعل ذلك متلقيا اجتماعيا يصهر كل داخل ومداخل في معمل من القيم والفكر والسلوكيات بما يتلاءم مع التكوين الأندلسي وهذا شأنهم في سائر الفنون المعرفة وأنماط المعرفة.

---

(1) الذخيرة 525:1

ومن هذا التأثير والتأثر والقبول والنماذج نجُد مظاهر الرومانسية في الأدب الأندلسي.

إن التجديد في الشعر الأندلسي تكونّ من البيئة الأندلسية فإذ كان الشرق يتسم بالصحراء التي كونت ذهنية الشعر في المشرق من الارتحال والديار والأطلال وركوب الإبل والخيل، فإن الأندلس تتسمُ بجمال الطبيعة وروعتها ورياضها الجميلة وورودها وأزاهيرها وشلالاتها وأنهارها وخمائلها وتلالها الخضراء فتلك الطبيعة ولدت الشعر الوجداني أو قُل هي الجذوة التي ولدت الرومانسية المبكرة في الشعر العربي والشعر الأوربي فكل باحث أثر الطبيعة في الرومانسية فهي أهم مكونات الشعر والمؤثرات، والعصفور في كل صوره وخيالاته.

ويقول يحيى البكري في وصف الطبيعية في الأندلسية:

وروضتُها الغنَّاء مسرَحُ روضةٍ تبخترُ في المواشي من حبرتها
مشاعرُ تهيامٍ وكعبةُ فتنةٍ فؤادي من حُجّابها ودعاتها
فكم صافحتني في مناها يدُ المنى وكم هبَّ عرفُ اللُّهوي من عرفاتها

فأنت ترى أن الشاعر ممتزج مع الطبيعة، وأنها مصدر أحاسيسه، وأنها فتنته الدائمة حتى استدعى لها صور مقدسة هي الكعبة، وإن قلبه ملك للطبيعة يدافع عنها ويدعو لها.

ومنها:

وكم خطبتني مصرُ في نيل نيلها ورامَتْ بنا بغدادُ وردَ فراتها
ولم أرض أرضاً غير مبدإ نشأتي ولو لحتُ شمسا في سماء ولاتها
ولي أملٌ إن يسعدِ السَّعدُ نلته ويفهمُ سرَّ النفسِ في رمزاتها

وأسنى المنى ما نيل في ميعةِ الصِّبا   وهل تحسنُ الأشياء بعد فواتها؟[1]

وقال علي العنسي:

الأفقُ طلقٌ والنسيمُ رُخاءُ   والروضُ وَشتْ بُرْدَ ه الأنداءُ
والنهرُ قد مالتْ عليْه غصونهُ   فكأنما هُوَ مقلة وطفاء
وبدأ نثار الجلنار بصفحه   فكأنما هُوَ حية رَقطاء
والشمس قد رقمَتْ طِرازاً فوقه   فكأنما هُوَ حلة زَرْقاء[2]

فقد استحوذت الطبيعة على الشاعر والمتلقي يدرك تفاعل الشاعر معها من خلال مكونات الحياة الإنسانية التي جلبها لوصف الطبيعة.

فالشعر الأندلسي تشكل من معالم الطبيعة فمناظرها مهد الراحة ومناظرها هي المثالية، ومناظرها متعة البصر والبصيرة فهو روح وريحان الشعر بل هي نبع الانفعال والأحاسيس.

ويقول: أبي روح الجزيري حين أغترب:

أحنُ إلى الخضراء في كل موطن   حنين مشوقٍ للعناق وللضم
وما ذاك إلا أنّ جسمي رضيعها   ولابدٌ من شوق الرضيع إلى الأم[3]

فهل هناك تلاحم أكثر من الرضيع لأمه فالطبيعة هي الأم وهما الأرض معا وشعر الأندلس تشكل من مزيج بشري من حضارات وأجناس وألوان متعددة ومتنوعة بينما

---

(1) يحيي البكري، الذخيرة 454:1

(2) علي النعسي، نفح الطيب 263:2

(3) أبي روح الجزيري، نفح الطيب 99:2

تشكل الشعر الشرقي من جنس العرب الذي هيمن واستحوذ حتى الأجناس الداخلة في التكوين الحضاري الجديد بعد إن تداخلت الشعوب في الإسلام، ولكن بعد استقرار الأندلس أضحى هناك تشكيل جديد يتمرد على الهيمنة والاستحواذ فظهرت روح المساواة والتمرد على الإلتزام واللجوء إلى الطبيعة يقول يحي بن الحكم البكري حول فكرة المساواة وأن فقدانها يؤدي إلى الألم والألم مكون من مكونات الرومانسية:

أرى أهْــلَ اليَــسار إذا توُفــوا	بَنــوْا تلــك المقــابرَ بالــصخور
ابـــوْا إلا مباهـــاة وفخـــراً	علــى الفقــراء حتــى في القبــور.
فــإن يكــن التفاضــل في ذُراهــا	فــإن العــدل فيهــا في القعــور
رضَــيتُ بمــن تــأنقَ في بنــاء	فبــالغَ فيــه تــصريف الــدهور
ألمــاّ يبــصروا مــا خربتــه الــد	هــور مــن المَــدائنِ والقــصُور
لعَمــرُ أبــيهمُ لــو أبــصروهم	لَمــا عُــرِفَ الغنُــي مــن الفقــير
ولا عرفــوا العبيــد مــن المــو إلى	ولا عرَفُــوا الإنــاث مــن الــذكور
ولا مــن كــان يلـبس ثـوبَ صـوفٍ	مــنَ البَــدنِ المُباشِــر للحَريــر[1]

ويقول بن زيدون[2] عن الغربة التي تحمل الانفعال البشرى على مّر العصور:

ودع الــصبرَ محــبٌ ودعــك	ذائــعٌ مــن سّــرهِ مــا اســتودعك
يقــرَع الــسّنَ علــى أن لم يكــن	زاد في تلــك الخطَــى إذا شــيعك
يــا أخــا البــدر ســناءً وسَــناً	حفــظ الله زمانــاً أطلعــك
إن يطُــل بعــدك ليلــي فلكــم	بــتّ أشــكو قــصر الليــلِ معــك

(1) يحيي بن الحكم البكري، نفح الطيب 256:2

(2) ابن زيدون، الذخيرة، 286:1

والرومانسية تشكلت من ألوان مختلفة وأفرزت عددا من الخصائص التي ميزتها على الأجناس الشعرية والأدبية ومنها.

الذاتية:

هي أحدى عناصر حياة الإنسان وهي مكون الرغبة، والشهوة، والحب، والبغض، وهي الحوض التي ترد فيه الأفكار من كل حدب وصوب من تمازج الإنسان مع كونه الحسي والمعنوي والفكري وأنا لا أستبعد تأثر الذاتية بالمكونات أولا فالذاتية متأثرة ومؤثرة، وكثير من أدب الكلاسيكية في الغرب وشعر التراث العربي يحتمي خلف الوصف والموضوعية، ويخفي الذاتية وانفعالاتها حتى ظهر الشعر الأندلسي، فتكشف من خلال الشعر عظم التأثير الذاتي، وكأنها مصدر مائي للأفكار والإبداع، أو حوض يغمس فيه كل واقعة أو حادثة، وأنا قرأت الشعر الأندلسي فرأيت عجبا لتواجد الذاتية في كل موضوعات الشعر مما جعلني أجد التماثل بين الشعر الأندلسي وشعر الرومانسية الحديث، والذي اطلعت عليه من الدواوين الأندلسية تتشكل فيه الذاتية فالشاعر حاضر في جلّ شعره فهو أن وقف على الطبيعة فتجده متأثرا بها مستلهما جمالها، واقفا على أنهارها ومتأملا في أزهارها.

وتجد الشاعر قد بث الانفعالات والأحاسيس في ثنايا شعره فهو أن تباهي ظهر في شعره، فترى الشعر يفيض بابتهاجه وأفراحه وأنسه وهو يكسو شعره بالألم والحزن في حالة شكواه وألمه فالشاعر يقفُ مع ذكرياته بكل أبعادها الشعورية، فتضخم أحاسيس الذاتية وهيمنتها على الفرد تتمحور في جوانب متعددة فتبنى الانفعال للشهوة والرغبة والحب وفي جانب تبنى الألم والحزن والمعاناة المعذية، نتيجة للحرمان فيكون الانفعال بالحزن طاغيا. وهذا عامل مشترك بين الأندلسيين والأوروبيين في مظاهر حياة كثير من شبابهم مما آثر بوجود الألم نتيجة الصراع على مكونات الحياة. وقد أسس الأندلسيون لهذا المكون الحياتي في شعرهم بالحزن والألم **يقول ابن خفاجه:**

وكيف يغَيض الدمع أو يبرد الحشا　　　وقد باد أقرانٌ وفات شبابُ

أقلبُ طـرفي لا أرى غـير لَيلـة وقد حُطَ عـن وجـه الصبح نِقـابُ
كـأني، وقـد طـار الصباح، حمامـةٌ يمـدّ جناحيْـهِ علـيّ غـرابُ
ولـست بنـاس صـاحباً مـن ربيعـة إذا نَسِيَتْ رسـمَ الوفـاء صـحابُ
ومما شـجاني أن قـضَى حَتْـفَ أنفـه ومـا انـدقّ رمـحٌ دونـه وكعـابٌ
وأنـاّ تجاريَنـا ثلاثـين حِجَّـةً ففـات سـباقاً والحِمـام قِـصَابُ
كأنْ لم نبت في منـزل القـصف ليلـة نجيـب بهـا داعـي الـصّبا ونجـابُ
إذا قـام منـا قـائمٌ هـزّ عطفـه شـبابٌ أرَقْنـاه بهـا وشـرَابُ
وأنّـي إذا يمّمـتُ قـبركَ زائـراً وقفَـتُ ودونـي للـترابِ حجـابُ
ولـو أنّحيّـاً كـان حـاوَرَ ميّتـاً لطـالَ كـلامٌ بيننـا وخطـابُ
وأعْـرَبَ عمّـا عنـدهُ مـن جليـةٍ فأقشعَ عـن شمـسٍ هنـاك ضَبابُ[1]

وهو لا يتوارى في المدائح خلف الأوصاف والموضوعية بل تطغى ذاتيته ورغباته وآماله واعتذاراته كلها تتجلى صراحة في شعره.

ويقول ابن خفاجة: عن القاضي منذر بن سعيد البلوطي:

مقـالٌ كحـدّ السيف وَسْطَ المحافـل فَرَقـتُ بـه مـابين حَـقّ وباطـلِ
بقلـبٍ ذكـيّ ترتمـي جنباتُـهُ كبـارق رَعْـدٍ عنـد رَعْـش الأنامـل
فما دَحْضتْ رجلـي ولازلّ مِقْـولي ولا طاش عقلي يـوم تلـك الـزلازل
وقـد حـدّقَتْ حـولي عُيُـونٌ إخالهـا كمثـل سـهامٍ أُثبتـت في المقاتـل
لخـير إمـام كـان أو هـو كـائن لمقْتَبِـلٍ أو في العـصور الأوائـل
تـرى النـاس أفواجـاً يؤمّـون بابـه وكلُّهـم مـا بَـيْن راجٍ وآمـل

[1] ابن خفاجة، نفح الطيب 539:1

وفودُ ملوكِ الروم وَسْط فِنائه ... مخافة بأس أو رَجاءً لنائل

فعِشْ سالماً أقصى حياة مؤمّلاً ... فأنت غياثُ كلّ حافٍ وناعل

سَتَمْلكُها مابين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل[(1)]

فأنت ترى معالم الشاعر أولاً ثم ينداح للمدح وهذا ابن زيدون يشير إلى الصداقة بينه وبين ممدوحه فتتجلى ذاته، ومظاهر حياته، ونظراته الفكرية:

إيه أبا عبدَ الإله ... نداء مغلوبِ العَزْيمْ

إنْ عيل صبري من فراقِكَ ... فالعذابُ به أليمْ

ذكرى لعهدك كالعَرارِ ... سرى فبرَّح بالسليمْ

مهما ذممتُ فما زمانيَ ... في ذمامكَ بالذميم

زمنٌ كمألوفِ الرضاع ... يشوقُ ذكراه الفطيمْ

أيّامَ أعقدُ ناظري ... في ذلك المرأى الوسيمْ

وأرى الفتوَّةَ غضَّةً ... في ثوبِ أوّاهِ حليمْ

اللّهُ يعلمُ أنَّ حُبكَ ... من فؤادي في الصميمْ[(2)]

ومن تجلي الذاتية: علاقة المبدع بالمرأة فهي محور الارتكاز في الشعر الأندلسي في جمالها وأنسها ومجالسها وحضورها منتديات الأنس، بل إن المرأة والطبيعة تقترنان في ذاتية الشاعر بل المرأة ملاذ عندهم، فهي قرينة الروح وهي ضياء الحياة، وهي نافثت الانفعال في كيان المبدعين. فهي باثت الأنس. ومشعلة النفس، ومستحوذة على تكوين الشاعر.

---

(1) القاضي منذر بن سعيد، نفح الطيب 371:1

(2) ابن زيدون، نفح الطيب 272:3

الذكريات:

ومن محاور الذاتية الرومانسية الذكريات فهي تلج في كيان المبدع في زمان وفي كل مكان وفي أي عمر من الأعمار والأندلس بجماله ورفاه حياته وتدفق الأنس ظل ماثلاً في التجربة الإبداعية فمهما تقلبت بها الأحوال فإن الذاتية حاضرة في الإبداع.

يقول أحمد بن المقري:

وقَفْنا برَبعِ الحبّ والحِبُّ راحل	نحاولُ رُجْعاًه لَنَا ويحُاولُّ
والْقَتْ دموعُ العينِ فيه مَسَائلاً	لها عن عِباراتِ الغَرام دلائلُ
وبالسّفْح منها كم سَقَيْتُ لِبانهِا	فميلتُهُ والسفحُ للبان مائلُ
إذا نَسْمَهُ الأحبابِ منها تنسمَتْ	تطيبُ بها أسحارُنا والأصائلُ
تُثيرُ شجوني ساجعاتُ غصونها	فمِنْها على الحالَيْن هاجَتْ بلابلُ
مرابعُ ألاّفي مراتع لذّتي	مطالعُ أقماري بها والمنازلُ[1]

والشاعر أكثر صراحة وفيضا بالذكريات لوطنه الأندلس فكيف به وهو أحد الأمراء ذوي السلطان وذوي الجاه والرفاه.

تضاءل العقلانية:

ومما تلتقي فيه الرومانسية مع الشعر الأندلسي أن العقلانية تضاءلت في الشعر الأندلسي، وقد تشكلت الأحاسيس والانفعالات في رحيق الشعر وفي وجدانهم، فأضحى الشعر وليد العاطفة والأحاسيس فهي التي تثير عواطف الانفعال وتموج بالتجربة الشعرية في إبداع الشعراء، وليس هذا يعارض تعدد الموضوعات الشعرية، بل يحولها من توالد الفكر العقلاني إلى الاندفاع الانفع إلى مع إضاءت العقلانية من خلال الفيض الشعوري وقلت

---

(1) أحمد بن المقري صاحب نفح الطيب 16:1

مجاراة الشعراء واتباعيتهم لغيرهم فانطلق الشاعر من عبقريته الفردية فشعر الشاعر من تكويناته الذاتية. والذاتية عند الأندلسيين أضحت هي نبع التجربة الشعرية، فإذا مدح الشاعر فإن ذاته بارزة متألقة فهو يحكى تلك العلاقة مع الممدوح، وإن وصف الطبيعة فهو حاضر معها ولها، وإن وصف فهو يسبر أغوار ذاته في كل صورة شعرية، يحكم من خلال رضاه أو غضبة أو رغبته أو رهبته، فالعاطفة هيمنت على العقل.والقارئ لديوان الشعر الأندلسي يدرك هذه الظاهر عند أغلب الشعراء والشعر الرومانسي اتخذ هذا المنهج الوجداني منبع للتجربة، وحارب العقلانية وجعل الأحاسيس مصدر للمعرفة فالشعر الرومانسي والشعر الأندلسي يلتقيان في هذه الخاصية.

الطبيعة:

الكون هو الطبيعة في السماء والأرض والطبيعة في المعنويات عالم آخر ما زال مجهولا ولكن الطبيعة الأرضية وما فيها من أشجار وجداول مائيةٍ، وحيوانات أليفة وبرية وبحار وفضاء وماء وجداول وسحب وثلوج تلك التي هيمنت على مسمى الطبيعة وقد تعامل معها الإبداع الإنساني ولكن يتفاوت وأكثره وصفي من خارج الإطار لكن الشعر الأندلسي كان له علوق بالطبيعة، فهي المؤثر الأكبر تفاعل معها، بثها أحاسيسه وأضحت مكونه الجمالي، فهي المعالم التي يصور بها حياته، وقد أكتست أشعار الأندلسيين بالطبيعة، وقد احتلت الطبيعة جلّ دواونيهن، وصورهم، ونفسياتهم، وماجت مع أحاسيسهم والطبيعة ملاذهم، فالأندلسيون تعانقوا مع الطبيعة قبل الرومانسيين بل إن الشعراء في الأندلس لهم السبق، وله الكثافة، فهي مصدر من مصادر إبداعهم الأمر الذي جعلني أقول إنه أكبر مكون للرومانسية عند الغرب، فهم الذين فتقوا العلاقة بين الإنسان والطبيعة.

يقول الأمير الأموي المستعين:

يا حسن أندلس وما جُمِعَتْ لنا ... فيها من الأوطار والأوطانِ

تلـك الجزيـرة لـست أنـسى حُـسنها ... بتعاقُـــب الأحيـــان والأزمـــانِ
نَـسَجَ الربيـعُ نبائهـا مـن سُـنْدسُ ... مَوْشـــيّة ببـــدائع الألـــوان
وغــدا النـسيمُ بهـا علـيلاً هائمـاً ... برُبُوعهـــا وتلاطَـــمَ البحـــرانِ
يـا حُـسنَها والطـلُ ينثُـر فوقهـا ... دُرَراً خـــلالَ الـــوَرْد والرَّيحـــانِ
وســواعدُ الأنهــار قــد مــدَّت إلى ... نـــدَمائها بـــشقائق النّعمـــانِ
وتجاوَبــتْ فيهــا شُــوَادي طَيْرِهــا ... والتفّـــتِ الأغـــصانُ بالاغـــصانِ
مازُرْتُهـــا إلاَ وحَيّـــاني بهـــا ... حَــدَقُ البَهــار وأنمُــل الــسُّوسان
مــن بعــدها مــا أعجبــتني بلــدة ... مَـعَ مـا حللـتُ بـه مـن البلـدانِ[1]

كان المستعين المذكور أديباً بليغاً، ومن شعره يعارض هارون الرشيد في قوله:

عجَبـاً يهـابُ الليـثُ حـدَّ سـِناني ... وأهـابُ سـحر فـواتِرِ الأجْفـانِ
وأقـــارِعُ الأهـــوالَ لا مُتَهيبـــا ... منهـا سـوى الإعـراض والهِجْـرانِ
وتملّكــت نفــسي ثــلاثٌ كالــدمّى ... زُهْــرُ الوجــوهِ نــواعِمُ الإبــدانِ
ككواكــب الظّلمــاء لُحْــنَ لنــاظري ... مِــنْ فــوقِ أغــصانٍ علــى كُثْبــانِ
حاكْمــتُ فــيهنَّ الــسلوَّ إلى الرضــى ... فقــضى بــسلُطانٍ علــى ســلطاني
هذي الهـلالُ، وتلـك بنـتُ المُشْتَرِي ... حُـسْناً، وهـذي أخـتُ غُـصْن البـانِ
فـأبحنَ مـن قلـبي الحمـى وتـركنني ... في عِــزّ ملكــي كالأســير العــاني
لا تعـذ لـوا ملكـاً تـذلّل في الهـوى ... ذُلُّ الهــوى عِــزٌّ وملــك ثــاني
ماضَـــرَّ أنّـــي عَبْـــدُهنَّ صَـــبابة ... وبنــو الزمــان وهُــنَّ مــن عبْـداني
إن لم أُطِـع فـيهنَّ سـلطانَ الهـوى ... كَلَفـاً بهـنَّ فلـسْتُ مـن مـروْانِ[2]

---

(1) الأمير الأموي الأندلسي المستعين، نفح الطيب، 228:1

(2) الأمير الأموي المستعين، نفح الطيب، 431:1، 430

الألم والحزن:

ومكونات الألم والحزن تصحب الإنسان حيثما حل وارتحل وفي كل زمان ومكان وقد فاض الشعر العربي بالشكوى، ولكن الحزن والألم تكاثف في الأندلس ؛لأن مسارب فقدان اللهو والأنس كثيرةٍ فمها دامت الأفراح، فأنها تتبعها الأتراح، وكثرة الحروب وفقدان الأمن وانتزاع الأموال وتجول الشعراء بين إمارات متداعيةٍ كل ذلك أوجد بيئة تموج بالأسى والحزن، وقد فاضت تجربة الشاعر الأندلسي بألوان شتى من المعاناه، ويصور الألم والحزن الشاعر أبى حاتم الحجارى حيث يقول:

أمّا الأسى فعليَ منه مخايلُ … نفسٌ أصعّده ودمعٌ سائل
من ناظريَ عليَ أعظمُ شاهدٍ … ومن العيون على القلوب دلائل
في كل آونةٍ إلى أفق الثرى … شمسٌ مغوّرةٌ وبدرٌ آفل
خفّض عليك فللحياة تقلّصٌ … هي نومةٌ والعمرُ طيف راحل
مُزجَت لنا الدنيا بشهدٍ ظاهر … وبظهر ذاك دمُ الأفاعي القاتل[1]

وقد تكاثر الآسي والحزن والألم وشكوى الأكتئاب بين شعراء الأندلس وذلك لشفافية قلوبهم فهي تتألم لفقدان أي شئ من المال أو الولد أو الصديق كما قال أبو القاسم البلوي الإشبيلى:

لمن أشكو مُصابي في البرايا … ولا ألقى سوى رجلٍ مصابِ
أمورٌ لو تَديرها حكَيمٌ … لعاش مدى الزمان أخا اكتئابِ
أما في الَدهرِ مَن أفشي إليه … بأسراري فيؤنسُ بالجوابِ؟؟[2]
يئستٌ من الأنامِ فما جليسٌ … يعزُ على نهايَ سوى كتابي

---

(1) ابن بسام، الذخيرة 3/ 495

(2) التلمسانى، نفح الطيب 3/ 325

الرفاه ورغد العيش:

.ومن مكونات الذاتية الِجدة وتوافر الخير، ووفرة المال، تلك كونت الذوق من الكدح والمعاناة إلى الرفاه ورغد العيش مع وفرة الفراغ، فالشباب والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة، فتكونت عندهم مجالس اللهو والأنس، وغلب على الفرد الأندلسي تكوين الأحاسيس الذاتية فهو يسعى حثيثاً إلى ما يملأ فراغه و إلى ما يحقق ملذاته ورغباته، فانتشرت الموسيقى والأنغام وألوان الغناء فهتف الفرد الغناء بروح ملؤه الحب والرغبة والجمال، والمتعة بها.

فهذا الشاعر ابن عبدون يصور مجلسا من مجالس الأنس التي عمت أرجاء الأندلسي:

سَقاها الحيَا مِنْ مغَان فساحِ ... فَكَمْ لي بها من مَعان فِصاحِ
وحَلّى أكاليلَ تلْكَ الربُّى ... ووَشّى معاطفَ تلك البطاح
فما أنّس لا أنس عَهدْي بها ... وجَرّيَ فيها ذيولَ المراح
ونومي على حِبَرَات الريَاضِ ... يُجاذب بردْ يَّ مرُّ الرّياح
ولم أعْط أمرَ النُّهي طاعَة ... ولم أصْغ سمعْاً إلى لحي لاح
ولَيْل كرجَعْةَ طرفِ المُريب ... لَمَ أدرِ له شفقاً مِنْ صَباحِ[1]

فالقصيدة تحمل حللا من الرفاه والأناقة في معجم لغوي في سياقات دلالية تبلور روح العصر وما فيه من مجالس أنس ولقاء الأحبة مع جمال الطبيعة.

---

(1) الشاعر بن عبدون، نفح الطيب 674:1

ويقول الشاعر ابن طاهر:

قــم ســقّني والريــاضُ لابــسةٌ — وشَــيْاٍ مــن النَّــوْر حاكــه القّطْــرُ

فِي مجلــس كالــسماء لاَحَ بِــهِ — مِــنْ وجــهِ مَــن قــد هَوِيتُــهُ بــدرُه

والــشمس قــد عُــصْفرت غلائلُهــا — والأرض تنــدى ثيابهــا الخــضرُ

والنهــرُ مثــلُ المجّــر حــف بــه — مــن النــدامى كواكــبٌ زُهــرُ [1]

فالشاعر ابن طاهر يمازج بين الطبيعة والإنسان بـل يكسو روح البـشر تآلفـا كمـا الطبيعة متآلفة أنها الحياة السعيدة في الطبيعة المسعدة وفي الجلسات الممتعة.

ويصور ابن خفاجة المنتديات الأخوانية، ويستحوذ عليه جمالها وينعم بنعيمها فهي جنته أو هي نموذج للجنة الآخرة:

يأهْــلَ أنــدلُس للَــهِ دَرُّكــمُ — مــاءٌ وظــلٌ وأنهْــارٌ وأشــجارٌ

مــا جَنّــة الخلــدِ إلا في ديــاركُمُ — ولــو تَخَيّــرْتُ هــذا كُنْــتُ أخْتــارُ

لا تحــسَبوا في غــدٍ إن تَــدْخُلوا سَــقَراً — فلــيَس تُــدْخَلُ بعــدَ الجنّــةِ النــار[2]

فالنعيم الذي عم أهل الأندلس يوحي بأنها جنة الله في أرضه.

ويقول ابن خفاجة:

سَــقيْا لَيــوْم قــدْ أنخْــتُ بــسَرْحة — رَيّــا تلاُعبهــا الريــاحُ فتلْعــبُ

---

(1) الشاعر بن الطاهر، نفح الطيب 658:1

(2) ابن خفاجة، نفح الطيب68:1

سَــكْرى يُغَنيهــا الحَمــام فتنــثْني	طَرَبــاً ويــسَقيها الغمــامُ فتَــشْربُ
يلَهُــو فــترْ فــعُ للــشبيبة رايــةٌ	فيــه، ويطَلْــع للبهــارة كَوْكــبُ
والـروضُ وَجـةٌ أزْهَـرٌ، والظـلُّ فـر	عٌ أسْــوَدٌ ، والمــاء ثغْــرٌ أشْــنَبُ
في حَيْــتُ أطْرَبَنــا الحمــامُ عــشيّةً	فــشَدا يغنُّينــا الحمــامُ المُطْــرِبُ
واهتزّ عِطْفُ الغصن مِن طـرَب بنـا	وافْتَــرّ عــن ثغــر الهــلال المَغْــرِبُ
فكأنــــه والحُـــسْنُ مُقْـــترِنٌ بـــهِ	طَــوْقٌ علــى بُــرْد الغَمامــة مُــذْهَبُ
في فتْيــة تــسري فينْــصَدعُ الــدُّجى	عَنْهــا، وتنــزل بالجـديب فيُخْـصبُ
كرُمُـوا فـلا غيـثُ الـسّماحِة مخلِـفٌ	يَوْمــاً، ولا بَــرْقُ اللطافــة خُلَّــبُ[1]

ففي هذه القصيدة تتكشف الأسس الرومانسية ؛فأنت هنا أمام تشخيص الطبيعـة فـا لغصن يحيا حياة المرح والطرب، والهلال ضاحكا، ويـداعب أولئـك الجلـساء حتـى الـسحب تتزيا بالجمال والأناقة إنها التلبس بالطبيعة والحياة بجمالها، وهم يلتقون مع شعراء الرومانسية في عدم المبالاة والأغراض عما حولهم خشية من النكد والتعب والمعاناة.

المرأة:

اتخذت المرأة وحبها طرقا كثيرة وواسـعة في تجـاربهم الإبداعيـة، فالطبيعـة والإنـسان والجمال والرجل والمرأة عالم كوني يولد تمازجـه تجـارب مـن الأنـس، وتجـارب مـن الحـزن، وتجارب من تكوين الحياة، والمرأة في شعر الأندلسيين حاضرة في مجالـسهم ومنتـدياتهم حتـى في ثقافتهم، فهي جمال الحياة والمنتديات والمنتجعات والمنتزهات وهي أخـت الطبيعـة الجميلـة فيتجلى تعانق المرأة والطبيعة في شعر الأندلسيين فهما وجهـان لابّـد منهمـا، والمتلقـي المبـدع يدرك أن المرآة وحبها هو ملجأ ومهرب للفرد الأندلسي ليتناسى المنغصات المحدقـة بـه فكأنـه

[1] بن خفاجة، نفح الطيب682:1

بذرة كبرى للحياة الرومانسية الغربية التي انطلقت جذورها الأولى من الشعر الأندلسي ونهج الرومانسية نهج شعراء الأندلس بداية من شعراء فرنسا وإيطاليا وفي بريطانيا.

بن زيدون:

من أشهر شعراء الأندلس الشاعر أحمد بن عبد الله المعروف بابن زيدون عام 397 هجريا 1003م وتوفاه الله عام 463 هجريا 1070م في قرطبة وعاش في بيئة علمية مثقفة وتكونت شخصيته في رياض السياسة وتقلباتها ونعيمها، ونهل من العلم، وجالس كبار العلماء، وطارح الشعراء وعشق الجمال بمكوناته المتعددة، وجال في فكر الفلسفة، فهو مجمع للثقافة الأندلسية وأمطرت عليه سحائب الحرمان والمعاناة، والنكبات وجال مشردا، ومحروما، وهجره العاشقون والأصحاب وولج إلى قاع السجون، ورسف تحت القيود إنها مصادر الحياة الشعرية لديوانه ينهل من الصور الشعورية والشعرية التي تزخر بألوان المكونات الجمالية، والقارئ لديوانه بعد إطلاع واسع على الأجناس الأدبية القديمة والحديثة يجد معالما جمة لها في شعر ابن زيدون ولما تأملت ديوانه من جانب الرومانسية عكفت على استخراج تلك المظاهر فوجدت كما هائلا كشفت عن بعضها وعاجلني الوقت عن الكثير المختبئ في ديوانه فابن زيدون أنموذجا لشعر الأندلس.

فنرى تلك المعالم الوجدانية والرومانسية في شعر ابن زيدون يقول:

في مرارة الوداع:

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ	**ذَائِعٌ مِن سِرِّهِ مَا اُستَوْدَعَكْ**
يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ	**زَادَ فِي تِلْكَ الخُطَا إِذْ شَيَّعَكْ**[1]

---

(1) ديوان بن زيدون 167:1

وقال في التواصل الشعوري الذي يكشف عن أحاسيس متدفقة ووجدان مهيمن على الجانب العقلاني:

أَغَائِبَـةٌ عَنــيّ، وَحَاضِـرَةٌ مَعــي، أُنادِيكِ- لَمَّاعِيـلَ صَبْرِيَ-فَاسْـمعِي

أَفِي الحَـقّ أن أ شْـقَى بحُبّـك، أوْأُرَى حَرِيقـا بِأَنْفَاسِـى، غَرِيقـا بِـأَدْمُعِي؟

ألاَ عَطفـةٌ تَحيْـاَ بِهـا نَفْـسُ عَاشِـقٍ؟ جَعَلْـتِ الـرَّدَى مِنْـهُ بِمَـرْأً وَمَـسْمَعِ

صِلِينَى-بَعْضَ الْوَصَـلِ-حَتَّـى تَبَيَّنِـى حَقِيقَةَ حَالي، ثُمَّ مَاشِئْتِ فَاصْنَعِي[1]

وابن زيدون يدرك فلسفة الألم وولوجه وتعاوره والابتهاج والأسى **فيقول:**

ولقـــد ينجيـــك إغفـــا ل ويؤذيـــك احـــتراس

وَالْمَحَـــاذِيرُ سِـــهاَمٌ وَالْمَقَـــادِيرُ قِيَـــاسُ

وَلَكَـــمْ أجْـــدَى قُعُـــودُ ولَكَـــمْ أَكْـــدَى الْتِمِـــاسُ

وَكَـــذَا أُلـــدَّهْرُ، إذَا مـــاَ عَـــزَّ نـــاَسٌ ذَلّ نـــاَسُ

وَبَنُـــو الْأَيَّـــام أَخْيـــاَ فٌ: سَـــرَاةٌ وَخِـــساسُ[2]

فالناس مختلفون في طباعهم، وتختلف عليهم الأحوال فتارة في سرور وتارة في حزن وهذا ابن زيدون يتلوى من ألم الفراق، ويزداد قلقة وسهره وحبه ولا يشفي بغفلة حبيبه عنه، لا يب إلى بالإعراض والجفاء فحبه متعلق بالنفس لافكاك منه ويقول:

وَأُرْحَمـــنَ صَـــبًّا شَـــجِيًّا قَـــدْ أَذابَتـــهُ الـــشُّجُونُ

لَيلـــهُ هَـــمٌّ وَغَـــمٌّ، وَسَـــقَامٌ ، وَأَنـــينُ

شَـــفَّهُ أَلْحُـــبُّ فَأَمْـــسى - سَـــقَماً - لاَ يَـــسْتَبِينُ

---

(1) ديوان بن زيدون

(2) ابن زيدون 264

صَــــارَ- لِلأَشـــــوَاقِ- نَهْبَـــــاً   فَنَبَـــــــتْ عَنْـــــــهُ الْعُيُــــــونْ[1]

والشاعر يصور معاناته من القلـق والأرق الـتي تعـترى الإنـسان وكـذلك يـستدعي الإنسان فقدان الوعي فلا وعى إلا بذكر الحبيب وذكراه فلا هم له في الدنيا غـير معاناتـه مـن الفرقة، وهذه من مظاهر الرومانسية الحديثة.

ماضَـــــرّ لَـــــوْ أَنَّــــكَ لِي رَاحِـــــمُ   وَعِلَّتِــــــى أَنْــــــتَ بِهـــــاَ عـــــاَلِمُ
يَهنِيـــــك – ياســــؤلِى وَيَـــــابغْيَتِي –   أَنَّــــكَ مِمَّـــــا أَشْـــــتَكِى سَــــالِمُ
تُـــضْحَكُ فِي الحْــــبِّ؛ وَأَبكِـــى أَنَـــا   اللهُ – فِيمَـــــا بَيْنَنَـــــا – حــــاكِمُ
أَقُـــولُ لمـــا طَـــارَ عَنِّـــى الكَـــرَى   قَـــــوْلَ مُعَنَّــــــى قَلبـــــهُ هـــــائمُ
يَانائمـــــــاً أَيْقَظَنِـــــــــى حبّـــــــهُ   هَـــــبْ لى رُقَـــادًا أَيُّهـــاَ النَّـــائمُ[2]

ويجسد ابن زيدون معاناته من اليـأس والغربـة بـل الـذكرى لموطنـه قرطبـة ويـصور الاغتراب والآسى المصاحب له بل يتواصل مع معاناة الشاعر العربي القـديم امـرئ القـيس، وبينهما تلاقي أسباب المعاناة فكلا منهما ربيب إماره وكل منهما تعرض للتـشريد والملاحقـةٍ مما جعل ابن زيدون يستدعي. بعض شـعر امـرئ القـيس فـاقتبس مـن ألفاظـه ومـن صـوره فكانت صوره هذا من أنواع التناص:

وَعَـــاوَدَهُ ذِكـــرُ الـــصّباَ فَتَـــشَوَّقاّ
وَمَـــازَالَ لْمـــعُ الْبَـــرْقِ – لَمـــاّ تَأَلَّقـــاَ
يُهيـــبُ بِـــدَمْعِ الْعَـــيْنِ حَتَّـــى تـــدفَّقَا،   وَهَـــلْ يمِلْـــكُ اُلـــدَّمْعَ الَـــشُوقُ الَمـــصَبَّاُ

******

---

(1) ديوان بن زيدون 172

(2) المرجع السابق 173

خَلِيلَيَّ – إِنْ أَجْزَعْ فَقَدْ وَضَحَ الْعُـذْرُ
وَلاَعَجَـــبٍ، إنَّ الْكَـــرِيمَ مُـــرَزأُ ففـي يَوْمِنـاَ خَمْـرٌ، وَفِي غَـدِهِ أَمْـرُ

******

رَمَتنى اللَّـيَ إلى عَـنْ قِـسِيّ النَّوَائِـبِ
فَمـا أَخْطَـأتْنى مُرْسَـلاَتُ الَمـصَائِبِ
أَقَـضّى نَهَـارِى بِالْأَمَـانِى الْكَـوَاذِبِ
وَأَبْطَـأُ سَـارٍ كَوْكَـبُ بـاَتَ يُكْـلأُ [1] وَآوِى إلى لَيْـــلٍ بَطِـــئِ الْكَوَاكِـــبِ

هذا التناص بين الشاعرين له دلالته الكثيفة التي تجمع مآسي الـشاعرين ولـه قدرتـه الفنية على توظيف التناص توظيفا جميلا.

أ- مكونات مبدع النص:

المتأمل في الشعر يدرك أننا أمام تكوينات ذهنية ثقافيـة فالـشاعر الأندلـسي بـل كـل مبدع أندلسي يخضع لمكونات ذهنية ووجدانيـة ومـؤثرات زمانيـة ومـؤثرات مكانيـة وثقافيـة متنوعة؛ مما جعلها تؤثر وتتأثر بكل طارئ ونحن، لما نتلاقى مع ابن زيـدون وإبداعـه ونتخـذه نموذجا لثقافة الشعراء نجـد أبعـاد الثقافـة الفاعلـة المتنوعـة تلـك الثقافـة الـتي أعدتـه وأهلتـه للوزارة، فهي تقوم على حـراك متـوارث داخـل الحلبـة الـسياسية وأعظـم مكوناتهـا الثقافـة الراقية، ومجالس العلماء وكثافة المعرفة والتقلبات الـسياسية والإدارة والمـدارة، وكـذلك لابّـد للوزير أن يعلم الشرع والفقه، والفكر الفلسفي ومنطق الحياة، وهو أيـضا عـالم باللغـة يحمـل ثروة كبرى حتى أنه لا يكرر ألفاظ التهاني والتعازي وهو حافظ ومتأمل للشعر العربي الـذي حفل شعره بالايماءات والاستدعاء من هذا التراث بـل قـارئ مـتمكن لكتـب الجـاحظ، مـن كتُاب العربية وهو أيضا ربيب مدرسة التربية الملوكيـة الـتي تعنـى بجلـب الأسـاتذة والمـشايخ وهو المطلع الأكثر على ما يدور في مجالس السلاطين والعلماء الحـافين بهـم وهـو العـائش في

---

(1) ديوان بن زيدون132

وهج التغيرات السلطانية وتقلباتها وهو من يملك المال والسلطة تلك التي أثرت في حياته فالاستجابة دائمة والحرمان مفقود في شبابه.

وتلك الحالة صيرته ابن للحياة المخملية التي في أع إلى الجمال ومكوناته، والذوق ورهافته، والأناقة وبهائها، واللغة ورقتها وعذوبتها كل ذلك يزرع أحاسيس: ذات حساسية وانفعال يهتز لكل حدث، وشاعرنا في ظلال الطبيعة الأندلسية الجميلة الجبال الشاهقة الخضراء والأودية السحيقة ذات الخمائل الملتفة والأنهار المتدفقة، والزهور المتناثرة والألوان المتناسقة إلى جانب التجارب المتوارثة والتجارب المحيطة بذاته كل ذلك متجذر في:

قصيدة ابن زيدون النونية المشهورة:

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم	**حزناً مع الدهر لا يبلى، ويبلينا**
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا	**أنساً بقربهم قد عاد يبكينا؟**
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا	**وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا**
وقد نكونُ وما يخشى تفرقنا	**فاليوم نحن، وما يرجى تلاقينا**[1]

فالقصيدة نابعة من حدثين كالإعصار عصفت بقلب الشاعر واستحوذتا على فكره فهما يمثلان مقصيدية القصيدة الحديثة:

أولا: الإبعاد والمطاردة من السلطة وما ينجم عنها من سلب للجاه والمال والأمن والاستقرار والغربة عن الأهل.

وثانيهما: هجران الحبيب، وانتصار الخصم المنافس

.إن المدرك لمكونات إبداع القصيدة ومناسبتها يعلم أنها النبع للقصيدة وإنهما متجاوران في نفسية ابن زيدون وإن أختفي العامل الأهم في ظلال ما يعتلج في النفس.

---

(1) الديوان ص142

فالنص بوح عن عوامل الاغتراب في مرحلة متأخرة من حياته وأبحر في الغربة من جوانب متعددة جوانب الابتعاد عن الوطن، والعزل عن السلطة، والحيلولة بينه وبين من أحبه بل هناك عامل من الغرب لم يتناوله الباحثون وهو البعد عن الإنسان الذي صنع المودة والرحمة معه من الأقارب والأصدقاء إنها غربة زمانية ومكانية تتجلى مكوناتها في القصيدة والقصيدة كنوز من الدلالات النفسية، وكنوز من الصور الفنية التي تشخص المعنويات وتحاور الشاعر، وتارة تهيمن عليه وتسيطر على حياته.

وابن زيدون عاش في أحضان الطبيعة في الأندلس بلد الطبيعة الجميلة فالأودية تكسوها الغابات والخمائل وتدفق الأنهار وانسيابها والجبال تكسوها الخضرة بأشجارها الباسقة وقد انتقلت الخضرة والجمال ومكونات الطبيعة إلى ذهنية الإنسان الأندلسي بل إلى أحاسيسه وتجسدت في إبداع المبدعين الأندلسيين:**يقول:**

وَغُصْنٍ تَرَشَّفَ مَاءَ الشَّبَابِ	**ثَرَاهُ الْهَوَى، وَجَنَاهُ الأمَلْ**
تَهَادَى لَطِيفَةَ طَيِّ الْوِشَاحِ	**وَتَرْنُو ضَعِيفَةَ كَرِّ الْمُقَلْ**
مَشَيْنَ يُبَاهِينَ رَوْضَ الرُّبَا	**بِيَانِعِ رَوْضِ الصِّبَا الْمقْتَبَلْ**
فَمِنْ قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِرِيحٍ	**وَمِنْ قُضُبٍ تَتَثَنَّى بِدَلّْ**
وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِمِسْكٍ	**وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِطَلّْ** [1]

فأنت تذهل من التمازج بين الطبيعة وبين الإنسان فهذه الزهرات والورود وهذه الفتيات ذات الألوان وهذه الأغصان وتلك الفتيات المائلات كلها روضة سحر الطبيعة والإنسان معاً تلك من مظاهر الرومانسية المعاصرة.

---

(1) ديوان بن زيدون:12

الذكريات عند ابن زيدون:

إن ديوان الأندلس ينفث حرارة الذكريات، وإن هذه الديوان ملهم للحياة الرومانسية وملهم للإبداع في زمنه ومنغرس وزارع للإبداع المتجدد في شعر ابن زيدون.

إذا كان النقاد صيروا الذكريات من سمات الرومانسية (الوجدان) في مدرسة أبولو فإن الذكريات له قرع الحزن العميق وسحائب الأسى عند الأندلسيين.

يقول ابن زيدون:

ظَعَنْتُ، وكانَ الحرُّ يُجفي فَيَظْعَنُ

وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالإِسى حِينَ أَحزَنُ

وَقَرَّ- عَلَى الْيَأْس – الْفُؤَادُ الْموَطَّنُ

وَإِنَّ بِلاَدًا هُنْتُ فيهاَ لأَهون وَمَنْ رَامَ مِثلى بأُلدَّنِيةَّ أَدْنَأُ

****

وَلاَ يُغْبِطِ ألأَعْدَاءَ كَونِىَ في السّجْنِ

فَإِنّى رَأَيْتُ الشمْسَ تُحْضَنُ بأُلدَّجْنِ

وَمَاكُنْتُ إِلاَّ الصَّارِمَ الْعَضْبَ في جَفْن

أَوِ اللَّيث في غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ في وَكْنٍ أَوَ الْعِلْقَ يُخفي في الصوّان وَيُخبأُ[1]

والذكريات تستدعيها الطبيعة أكثر من غيرها فالطبيعة هي مظاهر الأنس وهي التي تجعل المكان جميلاً يسحر النفوس:

مَعَاهِدُ أبكِيهاَ لِعَهْدِ تَصَرَّمَا

أَغَضَّ- مِنَ الْوَرِدْ اَلْجِنىّ – وَأَنْعَماَ

---

[1] ديوان بن زيدون136، 137

لَيـــسْناَ الـــصَّبا فِيهـــاَ خَـــيِيرا مُنَمْنَمـــاَ

******

كَـــسَاهَا الرَّبِيـــعُ الطَّلَـــقُ وَشْـــىَ الَخْمائِـــلِ

وَرَاحَـــتْ لَهـــاَ مَرْضـــى الرِّيَـــاحِ الْبَلاَئِـــلِ

وَغَـــادَى بَنُوهَـــا الْعَـــيْش حُلْـــوَ الـــشَّمائِلِ[1]

ومن محاور الرومانسية الحديثة الذكريات.وابن زيدون يقف عندها طويلا حتى بلغ به الأمر إلى تشخيصها بل إلى جعل الذكريات تصارع الشاعر وتجفو عنه الراحة والنوم.

مـن مبلـغ عـني ألأحِبَّـةَ – إذْ أَبَـتْ ذِكْـــرَاهُمُ أَنْ يَطْمـــئِنَّ مِهَـــادُ-[2]

المظاهر الفنية:

والمظاهر الجمالية الفنية تتكالف في الشعر الأندلسي، فالسمات الرومانسية الفنية الجديدة، والتي استأثرت بها دون سائر الاتجاهات نجد ملامحها في كثير من الشعر الأندلسي فنعثر على التراسل، والتشخيص الذي يستنطق الطبيعة وكثافة الدلالة، والصور الوجدانية، والرقة اللفظية، وقصر التراكيب والألحان الراقصة، والتجديد الفني بأشكال متنوعة مما ينوع الموسيقى.

التشخيص للكرى:

وأمـا الكـرى مـذ لم أزركـم فهـاجر زيارتـــه اغـــبٌ، وإلمامـــه فـــرط[3]

---

[1] ديوان بن زيدون 136

[2] المرجع السابق 45

[3] السابق286

فمنح الشاعر الكرى وهو غير حسي منحه العقل الإنساني والإرادة معاً.

الحقول الدلالية:

إن الباحث الذي يقرأ النص يجد معالم الدلالة بكل مكونات، ويستطيع أن يبني حقولا دلالية كثيرة من خلال الألفاظ كالبين، والفراق والبعد، وكالنفس والحزن والألم وغيرها من مكونات التقابل والمفارقة والتضاد، إن النص يحفل بل هو مشحون بالمكونات الدلالية ذات اللغة الموحية والسياقات التي تنبض بمدلولات كثيفة.

يَاجَنَّةَ الخَلْدِ أُبدِلنا بِسِدرَتِها	وَالكوثرِ العُذبِ زقوماً وغِسلِينا
إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِي الدُّنْيَاَ اللَّقَاء فَفِي	مَوَاقِفِ الَحْشْرِ نَلْقَاكُمْ، ويَكْفِينَاَ
كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ، وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا	وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِيناَ
سِرَّانِ فِي خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا	حَتَّى يَكادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِيناَ
لاَغَرْو فِي أَنْ ذَكَرْنَا الُحزْنَ حِينَ نَهَتْ	عَنْهُ النَهي، وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاَسِينا
إِناً قَرَأْنَا لأَسى يَوْمَ النَّوَى سُوَرًا	مَكتُوبَةً، وَأَخَذْنَا الصَّبْر تَلْقيناَ[1]

ومن التشخيص في شعر الأندلسيين قول ابن زيدون:

عدت إلى الوصل – كما اشتهي –	فالهجر بالٍ والرضى باسم

فالهجر يتألم يحزن بل تتدفق حدقاته بالدموع الحرى فهو إنسان مكتمل الأحاسيس وهو يحول حبيبته الإنسانية إلى سمات معنوية عالقة بالنفس فهي معنى الهوى، وجوهره وهي ترسم كيانا للمعنى والأماني العذاب:

---

(1) ابن زيدون 146:1

معنى الهوى أنتِ، وتخص المعنى   دعنى مما يزعم الزاعم[1]

الصور الوجدانية:

والصور الوجدانية تتشكل ظلالها الكثيفة في الشعر الأندلسي ومن عناصر الجمال الذي يتبلور من خلال الطبيعة والمرأة.

يقول ابن زيدون:

لـه خُلُـقٌ عـذب وخَلْـق مُحسّن   وظرف كعرف الطيب أو نشوة الخمر[2]

والخُلقُ وهو السلوك استمد مكانته من العذوبة وكلاهما معنوي جسدهما بالتشبيه ليتواصلا فكأنهما ماثلان للعيان، والظرف بما يحمله من أشياء محسوسة يتحول إلى رائحة عبقة أو سريان غير محسوس بالخمرة. إن الصورة تمثل تمازج المحسوس والأحاسيس في تكثيف استدعائى، وقد انحرف عن أسلوب التشبيه المباشر أو المجاز بأنواعه إلى أسلوب الإضافة في قول جال ماء النعيم **يقول ابن زيدون:**.

جال ماء النعيم منه بخد   فيه للمستشِفِ نور ونارا [3]

من معالم التجديد التناص واستدعاء الشخصيات والصور والجمل والتضمن والاقتباس.

وابن زيدون يستدعي ملوك العرب أجداده وقد تجاوز الخلفاء إلى أولئك المغامرين من ملوك العرب. بل يوجد تحاور وتلاقي بين ملوك العرب وابن عباد وهو يمدح ابن عباد

(1) ابن زيدون:126

(2) المرجع السابق1:123

(3) المرجع السابق1:125

بأن كل الملوك عبيد له ولكنه مدح مبطن فهو من الـذكريات والـذكريات فيهـا عـبر واعتبـار فكأنه يقول أين أولئك والمصير يؤول إليك.

إِنْ أَغْتَـرِبْ فَمَوَاقِـعَ الكَـرَمِ -الَّـذِى
فِي الْغَـرْبِ شـمِتُ بُرُوقَـهُ- أَرْتَـادُ
أَوْ أَنْـأَ عَـنْ صِـيدِ الْمُلُـوكِ بجِـانِبِي
فَهُـمُ العَبِيـدُ مَلِـيكُهُمْ ((عَبَّـادُ))
يَاهَـلْ أَتَـى مَـنْ ظَـنَّ بـيِ- فَظُنُونُـهُ
شَـتَّى رَجّـحُ بِيَنَهَـاَ اْلأَضْـدَادُ-[1]

والواقع أن النص يصور ارتباك الشاعر من الداخل فهو بين فكي المـدح وبـين الرمـز للعبرة وهو يد ابن عباد على تذكر موقف النعمان حينما.قتل صديقيه وندم وجعلـها نـصبين على قبرهما فهو يخرج إليهما.

وَأَتَـى بِـيَ النُّعْمَـاَن- يَـوْمَ نَعيمِـهِ-
نَجْـمٌ تَلَقَّـى سَـعْدَهُ الْمـِيلاَدُ[2]

فهذه لمحة رائعة للاستدعاء وهو يؤمي إلى نسب ابـن عبـاد إلى ملـوك المنـاذرة وهـو يركز على القيمة المعنوية التي يريد تشكلها في ابن عباد وهـي الـصفح والعفـو وتلـك مبتغـى الشاعر ابن زيدون لكى ينال صفح ابن عباد عنه.

الإغتراب:

حل الاغتراب في ديوان الأندلس بأشكاله المختلفة فتـارة غربـة الـنفس وتـارة غربـة الفكر والثقافة وتارة غربة تحت البعد والـبين، وهـذه الغربـة الأخـيرة تـستلهم غربـة الـوطن وغربة المجتمع وغربة الطبيعة. ثم تلوى إلى غربة النفس وتجذر الألم والحسرة.

(1) ديوان بن زيدون 453

(2) السابق: 455

يقول ابن زيدون:

هَـلْ تَـذْكُرُونَ غَرِيبـاً عَـادَهُ شَـجَنُ - مَنْ ذِكْرِكُمْ -وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسَـنُ؟
يُخْفِـي لَوَاعِجَـهُ وَالـشَّوْقُ يَفْـضَحُهُ فَقَدْ تَسَاوى- لَدَيْـهِ – الـسِّرّ وَالْعَلَـنُ
يَـا وَيْلَتَـاهُ ، أَيَبْقَـى فِي جَوَانِحِـهِ فُـؤَادُهُ ، وَهْـوَ بِـالأَطْلاَلَ مُـرْتَهَنُ؟
وَأَرَّقَ الْعَـيـنَ- وَالظُّلْمَـاءُ عَاكِفَـةٌ وَرْقَـاءُ، قَـدْ شَـفَها –إذْشَـفّنِي–حَـزَنُ
فَبِـتُّ أَشْـكُو وَ تَـشْكُوفَوْقَ أَيكَتِهـاَ وَبَـاتَ يَهفُـوُ أُرْتياحـاً بَيْنَنـاَ الْغُـصنُ

******

يَاهــلْ أُجـاَلِسُ أَقوَامـاً أُحِـبُّهُمُ؟ كُنَّا وَكَانُوا- عَلَى عْهدٍ –فَقَدْ ضَـغِنُوا
أَوْ تَحْفَظُـونَ عُهُـوداً لاَ أُضَـيّعُهاَ إِنَّ الْكِرَامَ- بِحِفْظِ الْعَهدِ – تُمْتَحَنُ[1]

ومنها:

إِنْ كَـانَ عـاَدَكُمُ عِيـدٌ، فَـرُبَّ فَتًـى بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ –مِنْ ذِكْرِكُمْ–حَـزَنَ
وَأَفْرَدَتـهُ اللَّـي إِلى مِـنْ أَحِبَّتِـهِ فَبَاتَ يُنْشِدُهاَ- مِمَّـاَ جَنَى الْـزَمَنُ-:
"بِـمَ التَّعُّلـلُ؟ لاَ أَهْـلٌ! وَلاَوَطَـنٌ! وَلاَ نَديم! وَلاَكَـأْسُ! وَلاَسَـكَنُ!"[2]

المفارقة:

وهانحن أمام توليد جديد نابع من البنية العميقة لكنه يحمل إشكالية أخرى وهي المفارقة بين الإضاحك والبكاء فكل منها له مكوناته التي يستدعيها النص مما يصيرونا في استحضار لمعاناة الشاعر:

إن الزمـان الـذي مـازال يـضحكنا أنـساً بقـربهم قـد عـاد يبكينـا

(1) ديوان ابن زيدون: 162

(2) المرجع السابق:163

والشاعر يوصل تكوين المفارقة بين أنحل ومعقود، وانبت أي، انقطع والوصل:

فانحـــل مـــا كـــان معقـــودا بأنفـــسنا   وانبـت مـا كـان موصـولا بأيـدينا[1]

حتى المفارقة اللطيفة تظهر بين أنفسنا وأيدينا فكـل منهمـا يحمـل دلالـة تلتقيـان ولا تتعارضان بدعم بعضهما بعضا.

ويدور الشاعر في حلقة التجربة الشعورية التي هيمنت عليه ويئس مـن مفارقـة تلـك المعاناة فكأنه يرسخ ديمومة تلبسها به:

وقـد، نكـون ومـا يُخـشى تفرقنـا   فـاليوم نحـن ومـا يرجـى تلاقينـا

وهو ينقل الحدث إلى مكونات الكون فكأن سـواده صـبغ النهـار، بـالظلام والـسود بعد أن كان نورا وضياء وكان الظلام مع رفقة الحبيب نوراً.

حالـــت لفقـــدكم أيامنـــا فغـــدت   سـودا، وكانـت بكـم بيـضا ليالينـا

والواقع أن القصيدة الأندلسية شبكة متداخلة مـن المفارقـة وتـستحوذ علـى مفـاهيم المفارقة بكل أبعادها وهي تثري النص، وتستوقف المتلقي الذي يستمطر النص ويبحـث عـن دلالاته ومكونتها.

دخلت المفارقة النقد العربي قديما بمصطلحات متعـددة وغـير منظمـة تحـت منظومـة متجانسة. ولكن مظاهرها واضحِةِ فالمفارقة تحتل مساحة واسعة في القرآن الكريم مثل الـنص عن الجنة والنار والإيمان والكفر وقد تنبه لها أهـل التأويـل بالتعليـل والتحليـل بـلا تمحـيص للمصطلح، فهناك إشارات كثيرة مثل المنطوق والمفهـوم، وهنـاك الطبـاق، والمقابلـة والتـضاد ونحن نجد لها توظيفا جميل في شعر الأندلسيين يدعو إلى التأمل والتدبر والوقوف طـويلا عنـد

---

(1) ديوان ابن زيدون:141

النص وما تحمل تلك الدلالة من إشارات متعددة تملأ فراغا يتركه الشاعر للمتلقي ونجد مظاهر المفارقة جلية في نونية ابن زيدون:

أضحى التائى بديلا من تدانينا ونـاب عـن طيـب لقيانـا تجافينـا[1]

فهناك المفارقة التي تتجسد في لفظتي التنائى والتداني – وهما يحملان التضاد في واقع الحياة بين عاشقين إن كل دلالة التنائي: أثقال النفس البشرية التي جِعل بينها وبين ما يلج في الأعماق في الإنس والطمأنينة والميل المفرط لمن يعشق.بينما التداني – يحقق كل ذلك وقد صور الشاعر التنائي وصحبة كلمة أضحى التي توحي بالكشف والظهور فالتنائي هو الهم والمعاناة ومصارعة النفس مع الحزن واليأس بل الأضرار.وهو يؤكد المعنى الأول في سطر البيت بما يحمله الشطر الثاني فالأمر عالق بالنفس وغارس بالأعماق فهو يستلذ على اللسان لِمثلى حالة المعاناة، والشكوى: ويتوالد عن هذه التجربة الشعورية المأسوية معان جديدة تقوم بتكاثره: اللغة التوليدية الألسنية فهذه الحالة هي البنية العميقة وتتوالد منها بنيات دلالية جديدة فيقول الشاعر:

مـن مبلـغ الملبسينا بانتزاحِهِمُ حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا[2]

فهو أتى بمعنى جديد فقد أضحى المصاحب له الحزن وهو الأثر لمفارقة صاحبته والقارئ ابن زيدون يمتحَ من المفارقة كثيراً من دلالته[3].

---

(1) ديوان ابن زيدون 141

(2) المرجع السابق 142

(3) المرجع السابق:274

الخاتمة

.من خلال هذه الدراسة كشفت أن الأندلس بمكونات الطبيعة وكونه ملتقى مجتمعات متعددة، وثقافات متنوعة كان مصدرا لهيمنت الأحاسيس الوجدانية، وكان مصدر تجديد، وكان الحرمان من الطبيعة وغيرها مصدر إلهام شعري، وكان شعرهم وليد الوجدان أولا ووليد الرغبة والشهوة ثم هو وليد الحرمان وكلها مكونات الرومانسية فلعل هذا البحث دعوة إلى للولوج إلى دراسات الشعر الأندلسي دراسة جديدة بمنظار القيم الفنية التقدمية المتمازجة بين الغرب والشرق ولعلنا نكشف أثر لفتنا وأمتنا في العالم الحضاري الغربي ونقول: نحن أهل علم وفن وحضارة.

مفهوم الحداثة

الحداثة ثورة فكرية تتمثل في الاستحداث البنائي لأنماط المعارف وتحليل عناصرها والتنقيب في القيم القديمة لتطرح آراء جديدة فـ"ترتبط الحداثة بصورة عامة" بالانزياح المتسارع في المعارف، وإنماء الإنتاج، والعلاقات على نحو يستتبع صراعاً مع المعتقدات... ومع القيم التي تفرزها أنماط الإنتاج والعلاقات السائدة، وإذ ينشط الفكر التقويمي النقدي نتيجة لهذا الصراع، وتطرح المسائل الأساسية على بساط البحث، وإعادة النظر، وهذا مما يؤدي إلى اهتزاز القيم، ومنظومة المفهومات، فالحداثة ثورة فكرية".

وهذا النص النقدي " للكاتبة خالدة سعيد والناظر إليه والمتبصر فيه يلمح معلمين متناقضين أحدهما يصحبه الصواب والتعليل السليم حينما ترى أن تقليب الفكر القديم بالنقد الحديث يتوالد عنه نتاج جديد وثانيهما أنها لم تدرك الصهر والتثقيف واستخراج الصالح من الطالح بل ولم تعترف بأهمية التكوين الفكري الحاضر الذي تتشابك مكوناته من صالح القديم الجديد.

وواضح أن الكاتبة لم تستطع أن تقف على شاطئ الموضوعية اعتماداً منها على تكوين مفاهيمها الذهنية أو إيماناً منها بمبادئ المنهجية التي سلكت في ركابها، فإنها أدركت أن الحادث والحداثة نتيجة للتلاقح والتمازج الفكري واستنتاج المثمر والمفيد وتكوين قاعدة للانطلاقة المستقبلية، غير أنها لم تشأ أن تقول هذه الحقيقة وارتأت أن الجدل الجديد ينشأ من تقويض القديم والانفصام بينهما فالجديد يؤدي إلى اهتزاز القيم بينما أن الواقع الذي يؤازره العقل والمنطق يرى أن الفكر الصادر عن تعمق وتمحيص يؤدي إلى تنامى القيم لا إلى اهتزازها يؤدي إلى نتاج صالح لا إلى مخاض مريض عليل لينتج النتاج المشبوه كمثل نتاج هذه الفئة التي ترى أن الدين يعارض ويصارع المعرفة والوعي والإدراك بينما الدين الإسلامي يحث عليهما ويدعو إليهما. لذا فإن هذا المفهوم الذهني للكاتبة وأنصاره متواصل ومتعانق مع الصراع النصراني الذي قوضه العلم عند الأوربيين.

والحداثة في نظر كمال أبو أديب هي ال "انقطاع معرفي" ويفسر ذلك بقوله:

"ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث في كتب ابن خلدون الأربعة أو في اللغة الموسساتية والفكر الديني وكون الله مركز للوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي".

إذن فإن أبا أديب لا يؤمن بأهمية المعتقد الروحي، ولا بالتراث الإنساني وينفي علاقة الإنسانية بربها وهذا انقطاع تام بين الإنسان وماضيه، وبين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان وغرائزه إنها تهدف إلى حياة فوضوية بهيمنة بعيدة عن الأبنية العقلية و الترسبات الفكرية فلا تؤمن بالبناء ولا بالتعاون العقلي، وإنما تؤمن بمعرفة سطحية جديدة أشبه ما تكون بمعرفة الأطفال لأنها لا أساس لها بل تعتمد على فكر علماني تجريبي فتهتم بجانب ضئيل من الإنسان وتعرض عن جوانب مهمة، وتؤمن بالمصادفة في خلق الإنسان والكون وتعرض عن الخالق وتدبيره وتصويره وتوجيهه وإرشاده فهو يقول في أسس ومصادر المعرفية: هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني، وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية – إذا كان ثمة معرفة يقينية " وكون الفن خلقا لواقع جديد " فصول ص1: 37.

الواقع أن هذا المفهوم للحداثة يراد منه تأييد للمذهب الماركسي أو بالأحرى أنه تقليد له وإنما يكون عندنا استحداثاً لجهل الشعوب بهدفه ومقصده لأن الماركسية حداثة محطمة، وانقطاع معرفي، عن الرأسمالية فهم يدعون أنهم يستحدثون منهجاً وهم مقلدون لماركس ولينين، وما زدك من قبلهما وهم يدعون إبداعاً معرفياً ، وهم لمذاهب الإلحاد هادفون وكمال أديب يدعو إلى التحلل من السلطة السياسية والعقائدية والتراثية فيدعو إلى حرية غير عقلانية – فيقول: "من هذا المنظور، تصبح الحداثة لا احتجاجاً على السلطة، أو رفضاً لها، أو صراعاً معها فحسب بل انسلاخاً عنها وانتماء إلى ما يقع خارجها" 38:1 فصول.

والحداثة عنده تهدف إلى الوصول ولكنهم يرون عدم الوصول لأن الوصول يؤدي إلى قواعد وأصول وضوابط وهذا ما يؤدي الجمود والكساد في نظرهم وهل نظرهم أحق وأولى من القول والإنصاف وصلاح الإنسانية؟ وهذا الفكر وبراهين ومنطقيته واضح

التواصل والتلاقح من المذهب الشيوعي، وهؤلاء الذين يلجأون للتفريغ الثقافي هل يعقل أنهم لا يهدفون إلى إيجاد ما يملأ هذا الفراغ؟ الذي أراه أنهم لم يعجبوا بالمخزون الثقافي العربي ولا بالأصالة وأرادوا أن يأتوا بالبديل غير أنهم لم يعلنوا عن ماهية هذا ولم يكتبوا لنا ما يريدون نشره وإنما ملأوا الدنيا تشنيعاً وتقبيحاً وطعناً فيما لا يريدون حتى يزرعون في الجيل عدم الثقة فيلجأ إلى البديل الذين يمكن طرحه بعد هذه المرحلة وقد مهدوا لقبوله وتلقيه والاستجابة إليه.

مما سبق يتضح أن المفهوم هذا الحداثة:

يؤكد أنها مبنية على أسس من الحضارة المادية الحديثة، فقد ظهرت الحداثة في أوربا لتحطيم الطقوس الدينية المحرفة لعقيدة النصرانية وذلك لصعوبة التعايش معه وتعارضه مع الحديث ولضعف ذلك القديم فإنه لم يبن على أسس دينية ولم يعالج الأمور معالجة واقعية وذلك بفعل التحريف الذي طرأ عليه ثم ظهرت الماركسية الحديثة ضد المادية الطاغية وكلاهما متضادان وكلاهما يحطم الآخر، إذن هي ليست مستحدثة وإنما هي تقليدية أريد انتشارها في بيئتنا الإسلامية والعربية مع وجود جو يعارض نموها وازدهارها وتولدها.

وهذا لا يمنع مناصرتنا للحداثة ومعارضتنا هذه ليس لذات الحداثة وإنما للمناهج الدخيلة فيها فكما رأوا أنهم استحدثوا الحداثة من الحضارة المادية فلماذا لا نستمد حداثتنا من واقعنا لذا فنحن مع الحداثة إذا ما انصهرت في بوتقة النصوص الالهية التوقيفية غير المنسوخة وإذا كانت خاضعة للعلم التجريبي وإذا لم تهدف إلى التحطيم والانفصال وإذا أرادت أن تبنى قواعدها على أسس وإذا رغبت أن تبنى قواعد وتريد الوصول إلى تلك الأمور المساعدة للحداثة الفاعلة البانية الهادفة التي تواكب العقل والإسلام والعقل الإنساني بأكمله وهذه المبادئ ترحب بالحداثة وتستقبلها وتسير في ركابها أما الحداثة التي ابتدعوها فإنها تحطم ولا تبنى ولا قيمة لها ولا فاعلية فالهدف من وجود الإنسان هو عبادة الله وعمارة الأرض، والحداثة التي تقوم على الهدم والدمار تعارض الأصل في وجود الكون بل ما الفارق بين تحطيمهم الذي يزعمونه وبين تحطيم العالم بالقنابل الذرية والهدروجينية؟ فهل

يعقل أن تقول دمروا العالم ليظهر بناء جديداً و هل يرضون أن يدمروا أنفسهم وذواتهم وإنتاجهم.

أما إذا ما صدقنا جدلاً بأنهم لا يريدون الوصول إلى قاعدة فإنها تقع في المحاذير الآتية:

1. تؤدي إلى السطحية لأنها بناء وليست مبنية على بناء وسرعان ما يزال هذا البناء حسب تنظيراتهم ونظريتهم.
2. أنها محاكاة العصر الحاضر وخاصة في العالم الثالث حيث انتشار الجهل في كثير من الأمور المرئية والمستخدمة لكل إنسان فالإنسان العادي يجهل كثير من أسرار التلفاز والإذاعة والثلاجة والسيارة والكمبيوتر ويتعامل معها تعاملاً سطحياً وكذلك يريدونا أن نتعامل من النص بلا شعور ومعرفة.
3. تؤدي إلى الجدلية والسفسطانية القديمة حيث أن النص تكثر احتمالاته ولا قاعدة يُعتمد عليها لمعرفة الصحيح وهنا تظل الأمة في القشور ولا تصل إلى العمق ووضع الأسس.

الاعتدال في مفهوم الحداثة:

ومن الذين نظروا نظرة متعلقة للحداثة ووضعوا لها معايير من خلال الصدق النفسي للتجربة والبناء للأصالة والوقفة الفعلية الفاحصة قبل الاقدام محمد مصطفي بدوي حيث يقول:

"حسب مفهومنا للحداثة إذن لكي يكون الأديب العربي حديثاً يكفيه أن يكون صادقاً مخلصاً لنفسه، متعمقاً في تأمله لذاته بوصفه فرداً يعيش في مجتمع بعينه، في نقطة معينة من الزمن أما أن يفقد الأديب العربي ثقته بنفسه وبثقافته وأصالته ويدع لاهثاً في مختلف الاتجاهات ليقتفي أثر آخر البدع أو الموضات في الغرب فيقلدها سواء عن معرفة أو جهل فلا يجعله ذلك أديباً حديثاً في شيء..." 104:1 فصول.

موقف قدامى الأدباء المحدثين من الحداثة:

إن الذين عاصروا اتصال الشرق بالغرب كانوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى بل إن بعضهم أعلن معارضته للجديد مدعيا أنه بدعة تخالف الدين غير أن بعض الأدباء الذين عاصروا الاتصال ذلك وقد أتيح لهم الانتقال إلى المكان أو تعلم اللغة أو الاطلاع عليها من خلال الترجمة يلاحظ أن أغلبهم أُلهم النظرة الفاحصة المتعلقة التي يبرز من خلالها ثقته بالتراث الحضاري وحفاظه على لغة دينه ونجد منهم رفاعة الطهطاوي وأستاذه العطار حتى جاءت فئة أخرى أكثر تعلقاً وإدراكاً وثقافة وإحساساً بالواقع الاجتماعي المعاصر واستطاعوا أن يزنوا الوافد بميزان الدين والعقل والعلم التجريبي ورائدهم الشيخ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده فكانوا يتقبلون المفيد ويفسحون المجال له ويدعون إلى الأخذ به وتعلمه ويقفون في وجه التيارات المدمرة والعادات السيئة الوافدة التي تقصف بالأخلاق والمعتقدات وقد اشترك في ذلك العلماء والمفكرون والأدباء والشعراء ولنأخذ مثلا قول المويلحي " دخول المدنية الغربية بغتة في البلاد الشرقية، وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال معايشهم، كالعميان لا يستنيرون ببحث ولا يأخذون بقياس، ولا يتبصرون بحسن نظر، ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباع، وتباين الأذواق، واختلاف الأقاليم والعادات ولم ينتقوا الصحيح من الزائف، والحسن من القبيح بل أخذوها قضية مسلمة، وظنوا فيها السعادة والهناء، وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القديمة، والعادات السليمة، والآداب الطاهرة "ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهرياً فانهدم الأساس، ووهت الأركان، وانقض البنيان، وتقطعت بهم الأسباب، فأصبحوا في الضلال يعمهون، وفي البهتان يتسكعون واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدينة الغربية، واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمراً مقضياً، وقضاء مرضياً وخربنا بيوتنا بأيدينا، وصرنا في الشرق كأننا من أهل الغرب، وإن بيننا وبينهم في المعايش لبعد المشرق من المغرب" 102:1 فصول.

هذا القول في مطلع الاتصال بالغرب فيدل على فكر تراثي أصيل يعطي عقلية ثاقبة ألمعية فهذا نحن بعد بمائة عام أو يزيد رأينا أن الذين جاروا الغرب في زائفهم مدوا أيديهم له

وساعدوه في مهمته العاجلة حتى إذا ما قضوا وطرهم منه تركوه في ضعفه يتخبط ولم يفتحوا له باب العلم التجريبي ويمدوه وهذا شأن العالم الثالث الذي نراه يلاحق الغرب في موضاته الزائفة وينتقل معه في أخطائه بينما اعرضوا عن العلم التجريبي أو منعوا من الحصول عليه مما أثقل كاهل الأمة و جعلها بعد مائة عام أضعف بكثير من تلك المرحلة فهل نلبي نداء العقل والفكر والعلم فنستجيب لهم؟

ولم يكن العلماء والأدباء يرون ذلك بل كبار الشعراء فهذا حافظ إبراهيم يقول:

إن في الغرب أعينا راصدات ... كحَلتها الأطماع فيكم بسُهد

فوقها مِجهر يريها خفايا ... كم ويطوي شعاعُه كلّ بُعد

فاتقوها بجنة من وئام ... غير رثٍّ العُرا وسعي وكدّ

ويظن الغوِيّ أن لا نظامٌ ... ويقول القوي قد جد جِدي

فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا ... جانبيه بعزمة المستعد

إننا عند فجر ليل طويل ... قد قطعناه بين سهد ووجد

غمرتنا سود الأهاويل فيه ... والأمانيّ بين جزر ومد

وتجلّى ضياؤه بعد لأيٍ ... وهو رمز لعهديَ المستَرَدّ

فاستبينوا قصد السبيل وجِدوا ... فالمع إلى مخطوبة للمُجد

الحداثة الشعرية

الحداثة أمر لابّد منه مجاراة للتطور، والبناء الفكري، والتفاعل الإنساني الكوني، والإنسان خلقه الله وخلق معه خاصية التغيير، فهو سريع التأثير بالتوعية الفكرية المتنامية على مستوى الفرد والمجتمع بل والعالم كله، وهو يتمايل حسب اتجاه التيارات التي تهب عليه من هذه الأمواج المتلاطمة، يتكيف معها، ويستفيد منها، ويسخرها لمصالحه، من هذا ندرك أن الحداثة والتغيير والتجديد مطلب من حتميات البناء الإنساني.

لكن هل التجديد والتغيير يُقبلان على هيكلهما الوافد؟! أو بالأحرى نثق بكل طارق من الفكر. ليس ذلك مما أوصى به ديننا، ولا من منطق العقل والبرهان أيضا، وإنما الأمر يدعونا إلى أن نجعل هناك حواجز وموانع وضوابط مساعدة على الاتجاه السليم لكي يعبر منها كل وافد حتى تحمينا من الانزلاقات الخطيرة التي تُردي بالمجتمعات والقيم ولا زالت، وتتمثل هذه الحواجز في الدين الإسلامي، ونجعل كل فكرة تمر عبر مجهره، فإذا لم تخالف الأمور التوقيفية منه فليس هناك من مانع من احتوائها واستقبالها، الأمر الثاني العقل المتدبر لأسبابها ومسبباتها ونتائجها، الأمر الثالث ألاّ تكون معول هدم للسليم والصافي والنقي من التراث، وإنما تحاول أن تشذبه وتنقيه وتأخذ الصالح منه.

تلك موازين الحداثة في جميع مناحيها غير أن الذي يعنينا منها في هذه العجالة هي الحداثة الأدبية بعامة والشعرية بخاصة.

فما الحداثة الشعرية؟

يرى بعض المنظرين أن الحداثة الأدبية والشعرية بصفة خاصة بدأت مواكبة لنمو الشعر، وتجسدت في العصر الجاهلي، فهم يرون أن الضرورات الشعرية، والتجاوزات اللغوية والنحوية والعروضية من الحداثة بل إن الأخطاء التي يقع فيها الشعراء من بشائر الحداثة بل يرى بعضهم أنها من الانحراف الأسلوبي المبدع والأسلوبية تميل إلى هذا الخروج.

وأكثر المنظرين والمبدعين يعتقد أن الأمر خاضع للتطور، فقد بدأت بمدرسة الديوان التي أباحت الشعر المرسل ثم تجسدت في مدرسة أبولو التي نهلت من روافد المدارس الأدبية الأوربية واتسعت أكثر عند المدرسة المهجرية من حيث اللغة والنحو. بل إن بعض المنظرين في أيامنا هذه يدعى أن النثر الأدبي المهجري الذي ألفه جبران خليل جبران هو الركيزة الأولى لشعر الحداثة.

وفي أوائل القرن العشرين برزت مدرسة الشعر الحر التي انطلقت من العراق بريادة نازك الملائكة وكذا الشاعر السعودي محمد حسن عواد الذي نشرت له قصائد في صحيفة القبلة عام 1342هـ وجاء بدر شاكر السياب والبياتي وغيرهم الكثير، وهؤلاء اعتمدوا في شعرهم على التفعيلة وأعلنوا الاعتماد على السطر الشعري، وليس البيت ويتكون السطر من تفعيلة واحدة، وربما تتعدد حتى تبلغ الثمانية تفعيلات.

ثم جاءت مدرسة الحداثة التي تجلت في مجلة (شعر) في بيروت التي يرودها يوسف الخال ومن أشهر كتابها: أنسي الحاج وأدونيس هذه الفئة لها اتجاهاتها التي تخالف الدين والمنطق والعقل، وتجعل من الشعر وسيلة لتكوين مفاهيم وافدة على المجتمع، وتتبنى التدمير والهدم بصراحة مطلقة، وقد قوضت جميع ألوان الموسيقى الشعرية وعرجت على اللغة أحيانا كثيرة، وحاولت التنصل من معياريتها، كما أعلنت عدم رضاها عن الأسس الدينية وعدم رضاها أيضا عن الأسس الاجتماعية والصروح الشامخة من التراث، وأعلنت أن الإبداع يرفض أن يكون بناءاً أو إكمالاً له، وإنما هو معارضة ومخالفة وليس له من أساس يقوم عليه ويدعون أن الهدف هو العودة إلى الفطرة البشرية.

والنتيجة الآن أن انتشر الشعر الحر وتطور الأمر إلى قصيدة النثر ولاقت رواجاً في العالم العربي نظراً لسهولتها وعدم الضوابط و للحرية التعبيرية التي تحملها ؛ فقد أتاحت لكثير من الأدعياء الانتساب للشعر ونشروا نتاجهم وملؤوا به الأسواق والمكتبة، واختلط الإبداع الجيد بالغث وانقلبت الموازين.

هذا الزخم الهائل من الشعر كما يدعى أصحابه أغضب الرواد الأوائل لشعر الحداثة وأعلنوا عدم الرضا والشعور بالإحباط ومعاتبة النفس والضمير لأنهم يعتقدون أنهم

فتحوا الباب لهذا اللون الذي أوجد سحباً من الضباب على الشعر وأخذ ينحرف به عن مساره السليم فهذا جبران خليل جبران يقول: "فقد الشعر العربي قدسية كانت له، وإن الشعر يتزعزع، اليوم ألف واحد يكتب ألف قصيدة، لا أحد يهتز، إنني متخوف من أنني وجيلي مهدنا لهذا النوع من الشعر" إبداع ص 140 ابريل 1985م.

وتقول نازك الملائكة: "الأجيال الأخيرة يمكن أن نسميها بأجيال الإحباطات وفي عصور الإحباط تعتري الأدباء المبدعين أنفسهم الحيرة والتمزق والضياع بحيث يفقدون نقطة ارتكازهم، فتصبح كتاباتهم أشبه بالكتابات التي لا هدف لها أو غاية تسعى إلى تحقيقها، وينعدم التواصل بينهم وبين جمهورهم".

"وأعلن محمود درويش في العدد السادس من مجلة الكرمل أن هذا الذي يسمونه شعراً حديثاً ليس شعراً، إلى حد يجعل واحداً مثلي متورطاً في الشعر منذ ربع قرن مضطراً لإعلان ضيقه بالشعر، وأكثر من ذلك يمقته ويزدريه ولا يفهمه". إبداع ص140 ابريل 1985م.

والتهم التي وجهت للحداثة وعلقت في الأذهان تتمثل في المعارضات لكل ما هو متعارف عليه، والجنوح كثيراً عن المسارات المستقيمة وإني أرى أن ذلك يعود إلى أولئك الذين استلموا زمام المبادرة، وقبضوا حبل القياد، مما أتاح لهم أن يسموها بمسميهم وطابعهم الفكري الخاص الذي يجانب الواقع والحق والجمال والعدل في أحيان كثيرة، وظل أرباب الأدب من مبدعين ومنظرين يرقبون، ولا يدلون بدلوهم، يخشون، يحجمون، يتواكلون ولا يتوكلون، يحاربون بدون إستراتيجية ولا يدركون محاسنها من مساوئها، مما جعل تنظيراتهم تصاب بالسلبية وعدم المبادرة، وحينما لم يستطيعوا توجيه السفينة، فإنهم أخذوا يبحثون عنها في قاع البحر لعلهم يجدونها أولاً ويصلحونها ثانياً، ويستفيدون منها ثالثاً.

وإذا نظرنا نظرة موضوعية فإننا نرى كثيراً من القيم الجمالية التي تتمثل في العمق الفكري، واللغة الشاعرة، والإيحاء الشعوري، الزاخر بالإشارات التي تشرق من تلاحم النصوص التي تألقت من بين النتاج الشعري، ونبتغى لهذا اللون الجيد النماء والرقي والازدهار لذا لابّد له من منظرين يعملون على الكشف والإضاءة عن المعالم الجمالية

الناضجة أو التوجيه والإرشاد إذا تطلب الأمر ذلك، وربما "يضطر الناقد إلى التعرية والنضج إذا كان العمل ضعيفاً" لكي يقوموا اعوجاجه ويخرجوه لشاطئ السلامة، بحيث لا يجمدون في قوالب ثابتة، ولا يتحللون من كل بناء سليم إشاده الأسلاف، فلا ننزل معاولنا هدماً وتحطيماً وإنما نجعل له كياناً ولو أدى الأمر إلى قيام كيان بجانبه يسيراً جنباً إلى جنب.

ونجد في حاضرنا الأدبي كثيراً من الانطلاقات الحداثية التي لا يشوب جمالها الفني أية شائبة، غير أن إخراجها مما انطبع في الفكر، وتكوين سياقاً ذهنياً لها، وتسميتها بأسماء قديمة كل هذه الأمور شكلت عبأ كبيراً على رواد الإبداع، ويقع في نفس المشكلة المنظرون الذين صارت مهمتهم أصعب وأشق، وأكثر مخاطراً، وأقرب إلى الانزلاق.

ولست أرى أن التسمية أو النوع مهماً في الإبداع الفني أو يقف حجر عثرة وإنما الأهم أن يفرض النص وجوده من حيث العمق الفكري، والاتجاه الإنساني، والقدرة الاستيعابية والايحائية فيهيمن على القارئ ويجذبه ويؤثر فيه وينغرس في كيانه ولا يكون ذلك إلا بتضافر الجهود بين المنظرين والمبدعين، حاملين راية الأسلحة الثقافية، والاستعدادات الأدبية، والقدرات المتنامية، مصهورة بالإدراك الواعي. لعلنا بهذا نستلم الزمام ونهيمن عن السفينة، ونستلم قيادتها، قبل أن تغرق وتُغرق أهلها معها.

وليس معنى ذلك رفضنا للحداثة فالحداثة أكسير الحداثة الأدبية لكننا نبتغيها حداثة بناءة لا هدامة، حداثة إبداع لا تضليل، حداثة تجديد لا تقليد، حداثة منطلقة من الأصالة لا حداثة بتر وانفصام حداثة تؤمن بالإنسانية والروحانية، والفطرة والبناء الفكري لا حداثة ضباب وأمواج وتخبط في البحث عن طريق صدفة المبدع ونحن نرفض تكبيل الفن وتقييده غير أننا نصر على وجود الاضاءات والإشارات والأنوار التي تشير وتساعد على المسير وتكشف الحسن من السيء.

إذن فنحن من هذا المنبر لا نعارض التجديد ولا نرفضه لكن نعارض الإفراط والتهور والانتقال من تقليد تراثنا إلى تقليد آخرين ولا نقول أن الأوزان الشعرية ضربة لازب بل إن أبواب التجديد مفتوحة والتراث لم يمنع الحداثة من قبل فهو لم يرفض شعر

الموشحات ولا الشعر الحر المعتمد على تفعيلة واحدة وهذا شأننا اليوم وشأن من يـأتي بعـدنا فالأهم في الفن أن يرتدي حلل الجمال والحق والخير.

الحداثة

امتدت جسور وقنوات الاتصال وجداول ينابيع الفكر بين الـبلاد العربيـة والأوربيـة من أوائل القرن التاسع عشر واكتمل نموها في آخره وفي النصف الأول مـن القـرن العـشرين كثرت الأقاويل حول الحداثة في أوربا وكان انشغال البلاد العربية بالنهضة العلميـة وملاحقـة العلوم الحديثة هـدفهم الأول لـذا عرفـت الحداثـة بمفـاهيم جديـدة مغـايرة للغـرب فعرفـت الحداثة العلمية التي تهدف إلى تحطيم الجهل، وعرفـت الحداثـة الاجتماعيـة الـتي تـسعى إلى إماتة التقاليد البالية والعادات السيئة، وتطلـع الـسياسة إلى الحداثـة العـسكرية، وكـأن الأمـر على موعد مع الانطلاقة المصرية التي تمثلت في بعـث البعـوث العلميـة عـام 1810 م لمعرفـة العلوم العسكرية والحربية ثم الطبية والقـانون والجغرافيـة، أضـف إلى ذلـك مـا احتـاج إليـه الغرب أنفـسهم لتكـوّين عوامـل مـساعدة لهـم في حكـم الـدول العربيـة، وتـسخير ثرواتهـا وامتصاصها، وهذه العلوم التي حملوها تحت سيطرة الدول المستعمرة لا تُعطي المجتمعات منهـا إلا بمقدار، ولم يُبلَّغ منه للشعوب إلا النزر القليل، وأغلبها نظـري ولا يـصل مرحلـة الإبـداع والابتكار وإنما تسليح عمالة فحسب، ولذلك كان الحديث فيها بمعزل عن المنهجية والواقعيـة والتطبيقية، والدراسة التحليلية وقد لاحـظ ذلـك بودريـار يقـول: " إن الحداثـة تنتـشر وسـط التباس تام داخل مجتمعات العالم الثالث، لتعوض عن التأخير الحقيقي و عـن غيـاب التنميـة " فصول 16:1 الحداثة.

و لكنها مع ذلك احدثت تغييراً وثورة لدى الشعوب وتطلعاً لحضارة جديـدة ولكـن ليس رضا عن كل ما هو ماثل أم البشر وإنما المقارنة العلميـة والماديـة والمنهجيـة وقـد داعـب الشك العالم العربي و الإسلامي في مصداقية الحضارة الأوربية من أول لقاء بها ولذا حـاولوا الانتقاء والاختيار وقد وصفت المرحلة تلك بأنها " بناء نظري مأخوذ من مجتمع آخـر، ولـيس مندرجاً برمته في الواقع إلا أنه في الطريق إلى أن يـصبح كـذلك أو أنـه بتعـبير أدق مـستعمل بصفته نموذجاً بالذات لأجل أن يحققه الفصل ".

وهذا الوصف أقرب إلى واقع الحداثة في العالم العربي حيث حاولت أن تسير بالشعوب إلى طريق مستحدث ومغاير للغفلة والتقليد الذي عكر صفو العقول العربية.

والحداثة التي خرجت في العالم الثالث وقفت في وجهها الحداثة الإبداعية التي برزت في أوربا، والحداثة الأوربية لا تعتمد على المصلحة الإنسانية أو الحق والعدل و إنما الحداثة عندهم هي الوسيلة الناجحة لتكوين مجتمعهم فحسب وحاجة اقتصادهم وحضارته حتماً في إضعاف العالم الثالث لكي يمتصوا ثرواته ويكونوا أسواقاً لمنتجاتهم الأمر الذي جعلهم يخططون لفشل التنمية فغزوا الأسواق العربية، وتساهلوا في القروض المبسطة، والهدايا المخدرة التي تشبه هدايا المصانع الأولى لتكون نمذجة تجارية، ثم تطور تلك إلى أحمال ثقيلة، وهكذا هيمنت الحداثة العلمية والفكرية والسياسية في الغرب، في غمرة الانخراط في الحداثة لدى العالم الثالث تقليداً قابلاً لتخطيط الغرب، وتكون حداثة الغرب محطمة له، لأن فترة انتقال الفكر والقناعة به بين الشعوب والأمم تحتاج إلى حقب من الزمن وطبعاً يكون أخذها بعد أن يكتمل نموها، ومن هنا يبدأون في أفكار جديدة بينما العالم العربي يتمركز على الأفكار التي اكتملت نموها، وهكذا تكون الحلقة التبعية القاتلة للشعوب، ونضرب مثلا في عملية الإقراض التي أشرنا إليها فنرى الحداثة الفكرية فيها حيث أن الواجب و المنطق القريب أن تمتنع الدول المقرضة عن مواصلة إقراض الشعوب لكن مصلحتها تبلورت في جدولة الديون واستمرت في تخدير الشعوب، وتسويق منتجاتها، ولا ندري بماذا تأتي الحداثة بعد الجدولة تلك؟.

" إن هذا الواقع الموصوف في خطوطه العامة، والمتصل بسيرة تاريخية معينة، يحكم على العالم الثالث ومنه العالم العربي، بأن يكون في موقع المتلقى " المتحمل " لعواقب العصرية والحداثة، لا المشارك في صنعها بل إن كثيراً من الدراسات وبخاصة الاقتصادية منها، تذهب إلى أن التطور اللا متكافئ بين العالم " الأول " والعالم الثالث يؤكد أكثر فأكثر، انسداد الأفق، واستمرار الدّوران في الحلقة المفرغة " فصول يونيه 1984 ص 14.

ومع ذلك فإن تعدد جسور المواصلات وسرعتها وسهولتها ويسرها وإحياء جذور الحضارة، وتفتق الأصالة وإثارة الجدل، تكون عوناً على أن تسير الحداثة العربية جنباً إلى

جنب مع الحداثة الغربية إذا ما استلمت زمامها عقول مثقفة إبداعية فتصل إلى درجة المشاركة في تلون الحداثة وتبلورها ومدى فاعليتها في المجتمع، ومدى تجانسها مع البنيات السالف لها والوقفة المتأنية من بعض فئات المجتمع والمتابعة المتهورة من البعض الآخر جعلت كثيراً من النقاد يعتقد أن تلك الازدواجية بين الأصالة والمعاصرة هي السبب في تأخير الشعوب معللاً بذلك أسباب فشل الماركسية في البلاد العربية " منذ النهضة ونحن نعيش بأجسامنا في قرن، وبأفكارنا وشعورنا في قرن سابق، بدعوى المحافظة على الروح الأصلي، وتلك كانت خدعة من القسم المتأخر في نفسياتنا وفي مجتمعنا لاستمرار التأخر واستغلاله، وستبقى مسألة الخصوصية والمميزات مطروحة ولكن في نطاق الاعتراف بوحدة التاريخ، ونفي إمكانية الوفاء الدائم لنمط أصيل، الغرض من التحليل التاريخي هو أن نفصل آخر الأمر الخصوصية عن الأصالة فالأولى حركية متطورة، والثانية سكونية متحجرة، ملتفته إلى الماضي " فصول ابريل 1984م ص 19.

والواقع أن ذلك مخالف لما تجسد عليه الأمر الآن فإن الدول التي لبست الحلة الماركسية ما تزال في بحور التخلف حتى الآن وإن الدول التي فشلت فيها الماركسية أكثر تقدماً وتحرراً، والحداثة التي ابتغاها العروي في نصه السالف من ضمن الثقافات الملفقة التي يدعى مروجوها الحداثة التي تحطم البناء السالف، ولم تشأ أن تكون بناء بجانب البناء أو بناءً معتمداً على البناء وتمثل التتابع والتهافت وراء الآخرين وعدم الثقة بالنفس والانسلاخ من الأصالة والوعي بها إذن فهذا الرأي وأمثاله يسلمنا للتبعية الخالصة، بل إنهم لم يشعروا بالتبعية، ولم يتدبروا في هذا الوافد. هل له مكانة في المجتمعات؟ وما مدى فاعليته؟ وما مدى تلائمه وتلاحمه مع الأسس الثابتة؟ وما قدرته على تكوين النظرة المستقبلية؟ ولن نفاجأ بنتيجة حسنة ما دام العرب أنفسهم لم يشتركوا في صناعة المستحدث ويدركوه إدراكاً تاماً، ولم تتح لهم إجراء التجارب عليه إنما هي نزعات فردية كان لها دوياً في زعزعة الأسس الحضارية الراسخة غير أن من محاسنها التي لا ريب فيها أنها أوجدت جدلاً، فانفجرت من صخورها أراء كان لها قليل من الايجابيات وكثير من السلبيات ولولا أن قيض الله من يمحص ويفكر ويحي التراث ويجري المستورد والقديم في ميزان الدين والعقل الواعي

والواقعية لكان في ذلك تدمير وتحطيم لثوابت الأمة وهذه الفئة المعتدلة هي التي تعالج السلبيات وتضئ الطريق للإيجابيات وتنظر نظرة واقعية للحداثة متدبرة لمساراتها وفاعليتها الحادثة والمستقبلية فهي ذات قابلية جدلية يفلح بها من تصدر لتكوينها وقيادتها " لأن الحداثة المرتبطة بالعصرية لا تحيلنا على مفهوم نظري مميز في عناصره المكونة، ويتيح استعمالاً تعميمياً، إن مفهوم الحداثة هو تاريخ أكثر منه أداة ومن ثم لا مناص من استحضار تحولاته، وتناقضاته أي من الضروري اعتبار الجانبين السلبي والايجابي بالنسبة للمنظور الذي يتم منه التعامل مع العصرية والحداثة " فصول ع3 ابريل 1984م ص17.

والنص هذا ضوابط منهجية للحداثة أقرب منه وصفاً للحداثة العربية وكثير من النقاد والمنظرين للحداثة يدركون الفرق بين الأسس التي تقوم عليها حداثات الأمم والحداثة الغربية بالذات فالحداثة الغربية تقدم على التحطيم والتدمير للسالف لأن مذاهبهم الفكرية تقوم على المادية والفكر البشري الذي يخضع للزمان والمكان والظروف القاصرة وهم يستحدثون ليجدون مخرجا مما هم فيه فيقعون في محاذير أخرى بينما في الدول الإسلامية نجد هناك أسس ثابتة لا تقبل التحطيم لأنها قائمة على أسس إنسانية صالحة لكل زمان ومكان وواقع.

والحداثة في العالم العربي اختلفت من أوجه عديدة، لتلاقحها من جينات متعددة ومختلفة ومن عروق متباعدة، فهي صادرة من مفاهيم متشعبة، فهناك البيئة اليسارية، والغربية البحتة، وقد فعلت فعلها في تكوين المفاهيم لدى المنظرين العرب، وتبلورت سماتها في تنظيراتهم، فمنهم من أخذ الشكل وآخرون غاصوا وراء المضمون، ومنهم من أخلص لنقل الأسس الفلسفية ولا نعدم من تبنى المدارس الأدبية والنقدية، وفئة أخرى انعتقت من التراث وأسس مجتمعاتها بل أخذت تضرب بمعولها في التراث الماضي وتشكك في جذوره وامتدادها، والأخيرة هذه تعلقت بين حضارتين فلم تفلح في مواكبة الغربيين لما لهم من القواعد الثابتة التي يقوم عليها مجتمعهم و فكره الشمولي، وفلسفة الارتباط بالحياة، إن كان الهدف أن يتماثل معهم فحسب ولا يب إلى عن مصداقية مسيرتهم ومدى صحة الاتجاه.

نحن إزاء الواقع العربي نستبين الاتجاهات التي تتبلور في:-

1. الاتجاه المعتدل الذي يمثل الانطلاقة الأولى، حيث التـزم الأوائـل بإيفـاد ذوي العقـول الناضجة الواعية المدركة، فإنهم بعثوا البعوث من النابغين النـابهين في الدراسـات مـن الأزهر الشريف بل لم يكتفوا بذلك فرعوهم في الغرب وواصلوا لهم الامتداد التربـوي الديني والوطني، وفي نظري أن أولئك يمثلون قمة العطاء، وحسن الاخـلاص، وقـدرة الوعي، فهذا رفاعة الطهطاوي ينهل من معين المعرفة التجريبية والقانونية والطبية، ولما عاد لموطنه أسس مدرسة الألسن التي تبنت الترجمة بلغة عربية فصيحة، فكانت مرحلـة حافظت على التوازن بـين المـستحدث الـضروري، وبـين البنـاء الحـضاري الأصـيل، وكانت التجربـة هـذه تمثـل النافـذة الأولى علـى العـالم الغربـي الـذي أبـدع في العلـم التجريبي وأفاد البشرية بمنهجية الاستفادة من الطبيعة وعمرانها، ويجدر بنـا أن الأزهـر ومشيخته هو المسئول الأول عن اختيار وتوجيه البعثات وكـان العطـار شـيخ الأزهـر رائداً في هذا المضمار.

غير أن استعجال النهضة ومحاولة البلوغ إليها بأقصر السبل، جعل الميـزان يختـل وتفـد كثير من الإرساليات الأجنبية التي ظللت البلاد وامتصت ثرواته.

2. اليقظـة الفكريـة الإسـلامية الـتي تمخـضت عـن التكـوين الثقـافي والاتـصال بالمعرفـة والتجرية وإجالة النظر بالمقارنة بين وضع المسلمين والتقدم و الرقي الأوربي، وتتمثـل اليقظة في فكر جمال الـدين الأفغـاني، ومحمـد عبـده، وأنـصارهم وهـؤلاء حـاولوا أن تكون النهضة شعبية شاملة، فوقفوا في وجه المستبد والفكر السياسي والمـادي الطـاغي على البلاد العربية ولم يهدفوا إلى معارضة فلسفة العلم التجريبي ومناهجـه بـل كانـت مطلباً رئيساً لهم، فكانوا يتحلون بالإدراك التام والوعي الكامل بوظيفة المسلم وإحيـاء أصالته، وإشعال جذوة الإيمان، مع الإصـلاح الـشامل وتعـديل مـسار الحـضارة نحـو الأفضل والأسلم.

3. مرحلة استغراب المشرقيين أو العرب، نتيجة للـتلاقح الفكـري الـتي تـشعبت جداولـه وقنواته، فتولد في الوسط العربي أبناء غربيون بفعل تكوين المفاهيم الفكرية والآليـات الذهنية، فأعلنوا أنه لا حضارة للعرب إلا باتباع الغرب والانعتـاق مـن هيمنـة الـدين

وكل ما هو شرقي، وحجتهم أن الحضارة لا تتجزّأ، ورائدهم طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) وأشهرهم وأجسرهم سلامة موسى الذي دعا إلى العامية واعتبر مصر جزء من الغرب وهنا لا أسلب أولئك معتقدهم فهم فصلوا بين الدين والحياة.

4. وقد واكب هذه النزعة اتجاهات، إحداها يمثل التراث ويعارض كل غربي فهو شديد الحساسية تماماً، كما أن أولئك شديدو المعارضة لكل جديد، وثانيهما اتجاه معتدل يميل إلى الاعتدال والتوازن وقد أخذ به في أحضان الجامعات فكان يعمل على بعد عن الصحافة والأعلام الأمر الذي أضعف أثره في أحيان كثيرة.

وكان الجدل بين الفئات أطفأ من حدة الإفراط في جميع المسارات غير أن الأمر يختلف بين البلدان العربية، ففي الجزيرة قامت النهضة على أسس من البناء الفكري الإسلامي، وكونت حولها أسوار ضد التيارات الاجتماعية والفكرية التي تعارض الدين، بينما أوجدت قنوات الاتصال عن طريق المعرفة التجريبية فحسب، وكانت النزعات الحداثية تمر عبر الحواجز العربية أولا وتسترفد منه الجزيرة.

أما في لبنان فإن الأمر يختلف تماماً، فقد تمثلت فيها الثقافات العالمية الكبرى ودأبت تبذر بذورها، وتتجذر عبر تربتها فأفسحت المجال للحداثة المفرطة، أما العراق فانطلقت منه ريادة الشعر الحر حيث نازك الملائكة والسياب، والبياتي مما يدل على اتصال بالنمذجة الغربية، والتواصل العميق مع الفكر الأوربي، أما المغرب العربي فإن للاستيطان الفرنسي والمجاورة الأوربية دورهما حيث نشأ عدد من الأدباء الفرنسيين في الجزائر وكذلك الهجرة المغربية لها دورها وما يزال كثير من المغاربة يمارسون الإبداع في فرنسا، ويسجلون في نتاجهم كثيراً من الانطباعات العربية أما الآن فقد امتدت جسور الاتصال أكثر من ذي قبل مما جعل الشعر المنثور يطغى على سائر الإبداع الشعري.

ونحن لو قصرنا تدبرنا في الشعر لرأينا أن مفهوم الحديث والتجديد مّر بمراحل مختلفة، فقد كان الأوائل يعتبرون الحداثة كل ما يطرأ على الشعر من تغيير يمثل القيم الفنية

الشائعة والبارزة والأكثر شمولية في العصر فمـثلاً طـرأت الحداثـة في الـشعر الإسـلامي مـن جانب سـهولة الألفـاظ وشـعبيتها، متـأثرة بالأسـاليب القرآنيـة، وتتمثـل الحداثـة في العـصر الأموي في تولـد المعارضـات والغـزل العـذري، وإضـافة علـى الخـصائص البلاغيـة المتـأثرة بالقرآن، أما العصر العباسـي فإنـه يمثـل العمـق الفكـري وتـدفق ينابيعـه، والـسهولة والرقـة اللفظية التي تنبئ عن الحـضارة القائمـة والتغريـب وراء المحسنات اللفظيـة، والخـروج علـى العمود الشعري المتعارف عليه وتلوين الشعر لإشكالية المعاصرة تماماً.

وهكذا يكون مفهوم التجديد يبرز عند كل خـصائص عـصرية ومعـروف أن الـشعر تظهر فيه الموجات الفنية التي تمثل كل موجة مرحلة بذاتها.

وهنالك مـن يخـالف ذلـك ويـرى أن الحداثـة عنـصر لازم الـشعر مـن ولادتـه وإن الاشـعاعات المخالفـة والـتي لم يـسبق لهـا مثيـل تمثـل الامتـداد لمـسار الحداثـة، فالمخالفـات العروضية التي طرأت على الأوزان الشعرية لدى الأقدمين من الشعراء مثـال امـرئ القـيس، وعبيـد بـن الأبـرص، يـرى الأقـدمون و جـل المعاصـرين إنهـا طفيليـات مـن بقايـا النـشأة والتكوين، ويـرى آخـرون أنهـا عنـصر الحداثـة الـضروري الـذي يجـنح إلى المخالفـة وإنهـا اشعاعات اطفئ بريقها بفعل النقاد وهجموهم ويلحق بالمنحى هذا ما طـرأ علـى الأدب مـن اشراقات فنيـة وقـف ضـدها جمهـرة النقـاد الأوائـل كالنواسـيات والتماميـات، وقـد لمعـت دراسات حديثة تناولت الأدب القديم من جاهلي وغيره ونظرت إليه بمنظـار النقـد الحـديث والمنطلق الحـداثي بـصفة خاصـة ومـنهم ادونـيس، والـدكتور عبـدالله الغـذامي الـذي أخـذ يستعرض معالم الحداثة في الشعر الجاهلي وغيرهما الكثير.

وواقع الشعر العربي الذي اضـاءت مـشاعل النهـضة عليـه، وكـشفت عـن سـوأته، وتبين للمبدعين والمنظرين أنه يتردى في قاع الجمود الفكري والفني، فانطلقـت الـشعلة الأولى ممثلة في شعر البارودي الذي يمثل الأصالة الفنية، ولم تـتح لـه التواصـل الثقـافي مـع الغـرب، حتى يتمكن من الممازجة بين القديم والحديث ولـيس لنـا أن نـدخل هـذه الـشعلة الفنيـة في الحداثـة أو التحـديث إلا مـن قبيـل الانتقـال مـن حالـة واقعيـة إلى حالـة أخـرى لم يعهـد المعاصرون فيروها أمراً حديثاً، وقد تواصل المغـرب العربـي مـع الأدب الأوربـي بـل الفكـر

النقدي له دوره في تطور الحراك الأدبي بل الثقافي والفكـري ممـا أوجـد نهـضة أدبيـة ونقديـة حديثة.

ثم إن الانتقاء والتواصل والتلاقح بين رجال الفكر المصريين والفكـر الغربـي أوجـد تفاعلاً فكرياً، وجدلاً داخلياً تجسدت مظاهره في الاتجاه الأدبي الذي أعقب البارودي، وتمثـل في خطين متوازيين أحدهما تنظيري وثانيهما إبداعي.

أما التنظيري فقاد مساره الدكتور طه حسين، وسـلامة موسـى، ولطفـي الـسيد مـع تفاوتهم بين الافراط والتفريط.

أما التحديث الإبداعي فإنّا رأينا ملامحه تستهل في شعر أحمد شوقي لأنه أحيط علمـاً بالثقافة الأوربية بعامة والفرنسية بخاصة، حيث درس الحقوق في فرنسا واطلع عن كثب علـى التيارات الثقافية المعاصرة وأحس بها وحمّل نفسه مسئولية الأخذ مـن هـذه الحيـاض المـشرعة أمامه " ثم طلبت العلم في أوربا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم، وعلمت أنـي مـسئول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله، ولا يؤتيها سواه، وإني لا أؤدي شـكرها حتـى أشـاطر النـاس خيراتها التي لا تحد ولا تنفد " الكرمل ع12 ص49 / 1984م.

ولا أعتقد أن شـرقيا أدرك التيـارات الـسوريالية وغيرهـا في ذلـك الحـين إنمـا أدرك الاتجاه المعتدل لـذا فـإن المعـالم المـستحدثة الـتي ظهـرت في فـن شـوقي تتبلـور في الاسـتلهام الحضاري الواقعي، والصور المستمدة مـن المـشاهد إلى جانـب الاشـراقات الجماليـة في فئـة، وخير ما تبرز في المسرحيات الشعرية التي تمثل الإبداع الحقيقي لأحمد شوقي وقد جـذب هـذا المسار بعض الشباب المغربـي فهـذا الـشابي يتـدفق شـعره بـالفكر المعاصـر بـل يقطـف مـن الموجات الفنية.

وقد عاصرت هذه النقلة الأدبية اشراقات جديـدة تنظيريـة وإبداعيـة، فأخـذ العقـاد والمازني وعبدالرحمن شكري قسطاً وافراً من الثقافة الأدبية والشعرية بصفة خاصـة، واطلعـوا على المقاييس النقدية، مع الإدراك الواعي بالأصالة العربيـة الفنيـة، وأخـذوا ينظـرون لأدب الأدباء، وشعر الشعراء، من خلال الأضواء الكاشفة المستمدة أنوارها من التـنظيرات الأدبيـة الغربية، من حيث الوزن و بناء القـصيدة، فنـادوا بتكـوين هيكـل هندسـي منطقـي وتركيـب

عضوي للقصيدة، مع التخفف من الـضوابط الـشعرية العروضـية، فأبـاحوا الـشعر المرسـل، ونسجوا إبداعهم من خلاله، وطالبوا الشعراء بالعمق الفكري، والنظر إلى النفس وخلجاتهـا وتفاعلها، واضطرابها، ونادوا بالابتعاد عن المدح وشعر المناسبات، وتبلورت الاتجاهات هـذه في مدرسة الديوان التي أصدرت مجلة بهذا الاسم.

إن الاحتكاك الحضاري في بـلاد المغـرب لـه مكونـات منـذ القـدم وقـد تكـاثف في مـستهل النهـضة بالتواصـل التجـاري والاسـتعماري والثقـافي. فانتـشر التعلـيم، وظهـرت الصحافة وتواصل العرب المغاربة مع فرنـسا وأوربـا، وتبلـور الـوعي الـوطني، وبفعـل هـذه العوامل تكونت المقالة والقصة والتطور الشعري فكانـت المعـالم القديمـة والحديثـة تتعـانق في سائر الفنون. واطلعّوا على بعض الشعراء شعراء التجديد، وصار متوازيـاً لهـم أهـل التقليـد والواقع أن الفكر الذي يولد الفن متقارب.

أما الإبداع الفني الأكثر تحرراً فإن اشراقاته وإضاءته أخذت تلمـع مـن خـلال شـعر جبران خليل جبران وخليل مطران، أما الأول فإنه خاض عباب المعركة الثقافية دون حـواجز أو سدود، فقد ولد في أحضانها في البيئة اليسوعية اللبنانية وغـاص في أعماقهـا أثنـاء هجرتـه إلى أمريكا. الأمر الذي جعل شعره ونثره قدوة يقتدى بها أهـل الحداثـة المعاصـرون في لبنـان وقد قال معلناً المسببات التي جنحت به إلى التفلت من الضوابط والـسياقات الفنيـة "لم تكـن الطرق القديمة تعبر عن أشيائي الجديدة، وهكذا كنت أعمـل دائمـاً علـى مـا ينبغـي أن يعـبر عنها، ولم أقتصر على صـياغة ألفـاظ جديـدة، بـل إن ايقاعـاتي وموسـيقاي كانـت جديـدة، وأشكال التأليف كلها كانت جديدة، كان علي أن أجد أشكالاً جديدة لآراء جديدة" الكرمـل 12 عام 1984م ص49.

والذي لا مندوحة عنه فإنا لا بّـد وأن نقـرّ أن جـبران تـصدر للعمـل الفـني النثـري بمضمون تأملي جديد بحيث لم يعهد في النثر الفني وذلـك نـابع مـن تكـوين المفـاهيم الذهنيـة والسياقات التي تأثر بها جبران أثناء صقل مواهبه العربية والروافد الغربية، وتكوين المعاصـرة والمشاهدة في رحلة الهجرة التي نبغ فيها.

أما خليل مطران فإنه نشأ في المدارس التبشيرية في لبنان غير أنه انتقل إلى مصر وهناك امتزج بالمكونات الثقافية ورجال الفكر والصحافة، وشاركهم الإبداع والإنتاج مع الإعجاب الشديد بالفكر الغربي الأمر الذي أعطى الفن عند خليل مذاقاً خاصاً وقد أحس بالتغيير الفني في شعره " قال بعض المتفننين الجامدين، إن هذا شعر عصري، وهموا بالابتسام، فيا هؤلاء نعم هذا شعر عصري، وفخره أنه عصري وله على سابق الشعر مزية زمانه وعلى سالف الدهر " الكرمل 12 عام 1984 ص49.

ولا يساورني الشك بأن التجديد الذي لمح على شعر خليل لا يتجاوز التطور الطبيعي للفن الذي يبرز عند كل تغيير اجتماعي أو فكري تماماً كما أحدثه أبو نواس في العصر العباسي.

وامتداد للتغيير الفني الذي تكوّن من خلال استلاهم الآداب العالمية، والإفراط أحياناً بمتابعة المغ إلى منها والانعتاق من الأصالة مع مواكبة الثورة التراثية ضد ما هو وافد فإنه يقف بين هذا و ذاك مبدأ الاعتدال الذي جنح إليه الأكاديميون في الجامعة، ويتمثل بإستلهام الأصالة، وتمحيص الآداب العالمية ودراستها والاستفادة من كل جيد مفيد.

يطل علينا نتيجة لهذا الجدل المتواصل في العالم العربي اتجاهات وتيارات أدبية تفيض أحياناً و تنحسر أحياناً أخرى.

فقد نما الاتجاه إلى الشعر الحر في الربع الثاني من القرن العشرين ؛ فنشرت جريدة القبلة في الحجاز قصيدة من الشعر الحر للشاعر السعودي محمد حسن عواد عام 1342ه أشارت إلى تقليده لشاعر عراقي في نفس الفترة الزمنية وأخذ ينمو حتى ابدعت فيه رائدته الشاعرة نازك الملائكة، ونشر جلّ نتاجها تحت هذا اللون الفني.

وجاء من بعدها بدر شاكر السياب والبياتي وغيرهما، وصحب الإبداع الفني الحماسُ التنظيري من المبدعين أنفسهم حيث صدرت لنازك مقالات صحفية وكتب تنظيرية تؤيد هذا الاتجاه، وتبين ضوابطه، وتعمق فكره، وتبين أنها ذات وشائج متينة بالأصالة العربية. غير أن هذه الضوابط لم تنال رضا المتأخرين من أصحاب الحداثة إذ يرون فيها ردة

إلى التراث، وأنها لم تحدث جديداً إلا في الشكل وحسب وأنها بـضوابطها ومقاييـسها كـشفت أن الشعر المنثور أو قصيدة النثر وثيقة الارتباط بالأصالة العربية.

وتشعبت اتجاهات هذه المدرسة في الأقطار العربية، ففي مصر تصدر لها كل من أمـل دنقل وصلاح عبدالصبور، فابدعوا فيها و لكنهم يخرجوا عن طور الإبداع و تصدر كثير مـن الصحف التي مالت للاعتدال والتوازن تمثل مجلة (ابداع) الـتي رصـدت الحركـة الإبداعيـة في العالم العربي ولا زالت حتى الآن.

وفي المملكة العربيـة الـسعودية روادهـا الـدكتور غـازي القـصيبي وسـعد البـواردي وغيرهما. وقد اعتمدت في منهجهـا علـى التفعيلـة وتكرارهـا، إلى جانـب العمـق الفكـري والاستمداد من الواقع، والاقتباس مـن اللقطـة الدارجـة، والابتعـاد عـن التقريريـة وهـؤلاء يمثلون الاعتدال والتوازن بين المعطيات الثقافية العالمية.

وشهدت الستينات انطلاق أكبر ثورة شعرية، وأكثر جرأة، وتشعباً حاملة راية الحريـة اللامتناهية. عاملة معول التحطيم ضد كل تراثه وأصاله، زعمه أنه لا بناء بـلا تحطـيم، وهـم الذين أعلنوا بـصراحة ووضـوح مـسمى الحداثـة وقـد صـحب الإبـداع فيهـا موجـات مـن الارتجاج التنظيري، معيد قراءة الشعر العربي، متواصلاً مع الشعر الغربي ومفاهيمه وتطـوره، وتناميه، مواكباً لتنظيرات نقاده و حاملي رايته ومساراته ومنحنياته ومنعطفاته.

وتعتمد الحداثـة هـذه علـى أصـول فنيـة تـدور حـول اللغـة الـشاعرة، والتكثيـف، والضبابية المتنامية حتى الغموض، وترتكز على الرؤيا والحلم، معرضة عن المعياريـة اللغويـة في كثير من اتجاهاتها، متفقة في جميع مناحيها علـى تقـويض الموسـيقى العربيـة القديمـة ؛ فـلا اعتماد على الأوزان، ولا القافية، ولا التفعيلة، إنما كل شـاعر لـه الحـق في تكـوين موسـيقى ذاتية لقصيدته، مع التعرض للقديم بالتجريح والسخرية لأن نظـريتهم تقـدم علـى الهـدم ثـم البناء، وقد نأت عن العقل والواقع معـاً، فلـم يعـد الـشعر حـديثاً عـن الأوضـاع الذاتيـة أو النفسية ولا ذات الطابع الاجتماعي، إنما هـي إضـاءات يلتمـسها القـارئ مـن خـلال إجالـة النظرة تلو النظرة في الشعر عن طريق توارد الخواطر، وكانت مجلة (شعر) اللبنانية لهـا دورهـا التنظيري ونشر الإبداع، فاحتضنت ذلـك التيـار وتبنـت أراءه واتجاهاتـه حتـى اكتمـل نموهـا

وظل الحال حتى وقفت عاجزة أمام الضعف الشعري، والتردي الفاحش وكثرة المدعين للإبداع وقد اعلن ادونيس خروجه منها مبيناً أسباب ذلك بقوله " أدى عملنا سوية في مجلة (شعر) يوسف الخال وأنا، بالتعاون مع الأصدقاء الآخرين الذين كونوا هيئة تحريرها، القريبة العاملة، والبعيدة المتعاطفة، أدى عملنا إلى ترسيخ مناخ التجديد، نظرياً وفنياً، بحيث أصبحت خراج الشعر كل محاولة لتحديد الشعر كما كان يحدده النظريون القدامى، وفي أواخر عملنا المشترك أخذ يتضح لي أن هذا الذي حققناه، وهو مهم جداً، لا يكفي، خصوصاً أن معظم هؤلاء العاملين وقفوا عند حدود تغيير الطريقة الموروثة و أكتفوا بهذا التغيير. وقد أكدت التجربة أن البقاء في حدود تغيير الطريقة يندرج في النهاية ضمن إطار الثقافة الموروثة، ويصبح نوعاً من التلاؤم والتكيف، وهذا ما حدث لمجلة (شعر) لذلك لم استغرب من الذين استمروا قائمين عليها، بعد أن تخليت عنها، أن يجهلوا أعمق التجارب الشعرية وأقصاها، وأن يسيئوا فهمها، حتى أن المجلة أخذت تنكر ما بدأته وأخذ التغيير الذي احدثته حركتها في البداية يظهر كأنه تغير في الدرجة لا في النوع، ومن هنا كان موتها، كما قلت مرة، ضرورة ذاتية في المقام الأول، وذلك من أجل الاحتفاظ بما بدأته، والابقاء عليه ناصعاً، نقياً حياً " الكرمل ص57 ع12عام 1984م.

هذا ينبئ عن خلاف جوهري من أخوة رضعوا من ثدي واحد فمنهم من أدرك الفشل، وحاول اصلاح ما أفسده، ومنهم من رأى غير ذلك وأن اللوم يقع على المنظرين أنفسهم وأن التنظير الفاعل أصبح غائباً، ويكمن سر النجاح في مواصلة التوجيه، وكان رائدهم ادونيس الذي انشأ مجلة (مواقف) ليجعل منها مدرسة جديدة و حدد أهدافها يقوله " ما نحاوله اليوم في (مواقف) يتجاوز ما بدأته (شعر) ويكمله في آن، فلم تعد المسألة أن نغير في الدرجة، أي في الطريقة، بل أصبحت المسألة هي أن نغير في النوع، أي في المعنى، لم تعد المسألة اليوم، مسألة القصيدة، بل مسألة الكتابة، كنت في (شعر) أطمح إلى تأسيس قصيدة جديدة، ولكنني في (مواقف) أطمح إلى تأسيس كتابة جديدة " الكرمل 124 ص57 1984م.

وهذا الاعلان عن التخلي عن القصيدة والشعر كله هو اعلان الفشل وإن هذا الامتداد الذي يعلنه أنه مكابرة ومن الخير أن يعلن طريقة نثرية حديثة ولا يتعرض للشعر. لذا كان دور مجلة مواقف ضئيلاً ولم تجد رواجاً كما لاقت غيرها من الصحف. وقد شايعت مجلة شعر مجلة مصرية هي (فصول) بل إن أغلب فكرة الحداثي وكتابها من أولئك الذين تتلمذوا على مجلة شعر، وهي تبنت طرح فكرها حداثي وزراعته في حرية وأن افسحت المجال للأقلام العربية الأخرى غير أنها سارت على نهج المدرسة الحداثية في مجلة (شعر).

وكانت النتيجة أن ظهرت قصيدة النثر، وانتشرت في ربوع الوطن العربي، وأخذت تنمو وتزداد وتكثر، وتتوج الصحف العربية قاصيها ودانيها، ولما أنها تحمل بين طياتها حرية غير متناهية لكي يتمكن المبدع من وصف أحاسيسه ومشاعره وانطباعته ويعبر عن أفكاره العميقة بقدر كاف إلا أن الأمر تجاوز الحدود، وظهرت محاذير لم تكن في الحسبان حيث دخل إلى الميدان من لم يكن أهلاً لاستخراج الدر فكثر الغثاء، وأخذت تعتزل قصيدة النثر وطرأ التذمر منها ثم استفحل وفي مقدمتهم المبدعين والمنظرين الأوائل. ولذا فإن واقع الحداثة اليوم يتبلور في:-

- المحاربة الفعلية من بعض الأدباء، وكأنهم مالوا إلى أن تلك التجربة أثبتت جدارة الأوزان والقافية العربية على البقاء والخلود.
- ومنهم أرباب الشعر الحر وهؤلاء يرون أن التجاوز فيما وراء الشعر الحر يؤدي إلى النثر والسقوط الفني، الأمر الذي دعا كثيراً منهم إلى التنصل من الحداثة.
- ومنهم من أيد قصيدة النثر ولكنه يجنبها كثيراً من المحاذير التي احدقت بها في هذه الأيام، ومعنى ذلك أنه ما زال يسعى إلى تنظير ويصر على نجاحها وسيستقيم عودها عبر مقاييس تتجسد فيما بعد.
- وآخرون يرون أن قصيدة النثر بخير وإنها ما زالت تحمل راية الحداثة والتطوير وإنها سوف تتضمن الإبداع الشعري، وستحمل سر الخلود وأن المبدعين سوف يسقطون لقاع البحر.

الإيحاء بالمكان والزمان

المكان أحد العوامل الملهمة في الحداثة فكم من مكان جميل أوحى بتجربة حديثة ظلت شامخة أبد الدهر والمكانية تظهر روعتها وأثرها في التجارب الإنسانية في كتابات الرحلات التي تصدر عن فكر راق فاحص وإدراك بالمكان السابق والمكان الحاضر وعناصر القوة بينهما.

وأثر المكانية ظهر بارزاً في تجليات الحداثة المعاصرة انطلاقاً من الاتصال الأول بالغرب ومدينته فهذا رفاعة الطهطاوي يوحي له أول مكان ارتاده في مرسيليا يصف روعة القهوة وما زينه به من المرايا والزجاج الذي يستدعى معالم صرح بلقيس الممرد وأن دعا رفاعة إلى تذكر النصوص العربية في المرأة وبذلك يذكر له مكانه الأول في مصر فيقارنه بمكانه الجديد ويلتقي بعالم اللغات الفرنسي سلفستر دساس ويعجب بلغته وتأليفه كتاب في اللغة العربية بعنوان " التحفة الفنية في علوم العربية " ويعلق الطهطاوي على منواله " التحفة المكتبية في تقريب العربية " الواقع أن رفاعة له فضائل كثير نقلها إلى مصر قبل استحداث المدارس، والترجمة لكتب كثيرة، والمحافظة على الآثار المصرية وهو أول من اعتبر إخراجها من بلاده سرقة عظيمة. ثم تتابعت التأثر بالمكان الغربي فأخذ العرب ونقلوا إلى بلادهم أفكاراً وترجموا وشاركوا في صنع محدثات كثيرة من العرب المهاجرين وكان للسياسيين دور أيضاً كمثل قول الملك فيصل المشهورة في أحدى جامعات ألمانيا " أتمنى أن يوجد في بلادي مثل هذه الجامعة "، ولكن المؤسف له أن بحوثاً جامعية كثيرة، وإبداعات فكرية وكتب علماء ما زالت روافد فكرية للغرب ولم تنقل إلى العرب وظلت في المكان الذي ابدعت فيه. والمكان شأنه شأن الزمان ليس هو الفاعل للحداثة ولكن عناصره المكثفة هي الموحية بالتجارب ومع تأثير المكان الجديد فإنها تستدعى القديمة وتظهره وربما أظهر دوراً غير مكشوف من قبل والأمكنة الحديثة تدعو للحديث المستجد عن الأمكنة الأصلية لصاحب التجربة فربما تحدث عنها في بعده بحديث لم يذكره في قربه والنص في الحداثة لا يعطي تكثفاً للحدث الداعي للتجربة ولا يستدعى الصور القريبة التي تدفع للإثارة حوله من طريق

مباشر ولا تأخذ السبل الأقرب إلى مفهوم الحدث واتجاهات الكاتب في لمحات يدركها القارئ بنوع من الذكاء والتدبر في ضوء من التأثر والتأثير ولكن صاحب النص يفسح حول الحدث شبكة الدلالة والعلاقات والإيحاءات والألفاظ المتشابكة والحواس المتداخلة لتفيض على النص ألواناً من الغموض والتأويلات التي يصعب الالتجاء لأحدها لذا فإنهم يعمدون إلى غياب الحدث " فإن اللغة لا تستحضر الحدث، لا ترصده في وجوده الفعلي، بل تمارس عملية معقدة تتراوح بين أن تزيح الحدث (أو الشيء) عن الناظر، ثم تنسج حوله ومن خلاله شبكة معقدة من العلاقات التي يدخل فيها، وبين أن تحول الحدث (أو الشيء) إلى وجود رمزي صرف يختفي فيه الحدث اختفاءً مطلقاً. هكذا يصبح الحديث نصاً حول الشيء يصبح نصاً للغياب أو تغيباً للحدث، وتخفيفاً للضوء المتجه.

الزمن عامل مهم في تجليات الحداثة وتكوينها وبروزها فالزمن ماض وحاضر ومستقبل، وكل ماض حاضر عاش فيه وكل حاضر سيكون ماض وكل مستقبل سيكون حاضر وماض وهكذا. والحداثة باختلاف سماتها وماهيتها مرتبطة مع الحاضر وموجودة في كل زمن وإن اختلفت نوعها ولونها واتجاهاتها، وعناصرها تبعاً للمؤثرات الفكرية والفنية والمكانية ومقدارها من حيث الكم والكيف، وليس كل حداثة الأشياء الطارئة على الأدب في العصور المتأخرة حداثة مفيدة بل تكون لها مكانتها في حينها ثم لم تلبث تكون ثقيلة مثل الحداثة في التأني بالشعر، والحداثة في تعدد المحسنات البديعية والحداثة تجليات بعض المذاهب الفكرية الهدامة. والزمن لا يعمل بمعزل عن العوامل الأخرى المؤثرة فلا بدّ من تفاعله معها ومع الزمن يتجلى الأفضل ويثبت وينكشف الزائف ويسقط.

والحداثة تعطي الشكل أهمية قصوى فيرى كمال أبو أديب بأنه أهم من المضمون " إن نفي المضمون أقل خطورة كثيراً من نفي الشكل " 47:1 فصول.

لأن الشكل مرتبط بالعمل والتطبيق وتجسيد الأمر وهم يخلطون في هذا الشكل بين التنفيذي العقائدي التوقيفي وبين الأعمال التي لم تثبت وبين المذاهب الصوفية وبين الأشكال الأدبية سواء منها ما هو ذات قواعد وأصول أم أنه مستنبط ومستنتج أو لون من ألوان الأدب العارضة من قبل الشعر والمقامة، والموشحات، والأزجال.

" ومن الأسهل كثيراً ألا يذهب الناس إلى الصلاة من أن يحرقوا مسجداً " لكن إحراق المسجد أكثر إثارة اجتماعية. لأن الأرض جعلت كلها مسجد وطهور والهدف من المسجد هو العمل لا المكان والشكل عنده يتمثل فيما يسمونه (طقوس) ويدخلون ضمنه أنواع الأعمال من العبادات، وتقول إن الأعمال الشرعية الثابتة التوقيفية هي فوق العقل أولاً لأنها من خالق العقل وكذلك الأسس اللغوية والنحوية التي تكون مجالاً لتغير معاني اللغة وشكلها الثابت في القرآن الكريم والقواعد المتواترة في أصل اللغة أمر لا يخضع لحداثتهم أما أن يأتي بأنواع من الأدب الجديد أو الكلمات المدحية، أو أن يتحللوا من الوزن والقافية فلا تعارض أن تكون أبنية جديدة خاضعة للتقدم والتحليل ولكن ما قبلها ليست خاضع للهدم والتحطيم كما يقولون وقد رأى أيضاً أن السلطة تعتبر قيداً تقبلاً على الشكل فإن القواعد والضوابط تظلا أمامهم سلطة يسعون للتحرر منها وكذلك فإن السلطة هذه منها ما هو أسس ثابت لا انفكاك عنها ومنها ما يفسح المجال لتغيرات كثيرة بل إن الشكل الذي يريدونه يرفض أن يتشكل نظام محسوس حتى وإن نتج عن منهجهم لأن ذلك يكون السلطة النموذجية ويرون أن يكون نظاماً فردياً لكل نص من النصوص وأن تكون روابطه وأنظمته غير محسوسة ولا مرئية وليس قابلاً للتحديد إلا بمصطلحات خاصة.

والواقع عندهم أن النموذج يمثل البذرة الأولى ثم متابعته تلزم بالشكل حتى تصبح قاعدة ملزمة ومن ثم تكون سلطة وبأنواع ومنها الشكل طقوس أي ذات معتقد ديني أو تقليد اجتماعي أو فني يوضح ذلك نظرة كمال إلى القصيدة العربية وتطورها حيث يقول: " خلال تطورها التاريخي تتحول القصيدة العربية إلى أداء طقس على مستوى آخر هو مستوى الوظيفة التي تحققها في سياق معين (المديح، الرثاء، الهجاء) والوظيفة التي تحققها حركاتها أو شرائحها ضمن بنيتها الكلية هكذا تصبح كل قصيدة مديح تعاملاً مع طقس قائم، وصدروا عنه وممارسته له " 48:1 فصول.

ولذا فإنهم يبدأون بتفتيت الطقوس ثم تبدأ عملية التحطيم والانفصال والاستحداث الذي يقوم على إنقاض المندثر " وخلال هذا الاستمرار الطقوسي للقصيدة يظل الإيقاع مكوناً أساسياً فيها ويظل كذلك بخصائصه التقليدية الطقسية طبعاً وحين تأتي

لحظة الانفجار فإن الانفجار يتجسد أول ما يتجسد في البدء بتدمير المكون الإيقاعي للقصيدة – الطقس – أي بتدمير الطقس في آخر مكوناته جذرية الإيقاع والتكرار.

الشاعر محمد العيد يوظف الرمز مع التزامه بالشكل العروضي، فكثير من الشعراء الفرنسيين والعرب نظروا إلى الليل نظرة فلسفية أجالوا التأمل وأطالوا الفكر في الليل ووضعوه رمزاً للبلاء تارة وللظلم والطغيان تارة أخرى، والشاعر محمد العيد وظف الليل لمضامين متعددة ومنها الاستعمار:

يا ليل أسرفت بردا ... وظلمة و رياحا
أطفئ حروبك عنا ... ولا تزدها لقاحا
وقف لنعقد حلفا ... ما بيننا واصطلاحا
إنا عليك اقترحنا ... فما أجبتا اقتراحا
يا ليل ما فيك نجم ... جلا الدجى وأزاحا
إلا كواكب حيرى ... لم تتضح لي اتضاحا
بطيئة لست أدري ... بها ونى أم كساحا
تحكي أدلاء قومي ... مرضى تسوس صحاحا
من غلمة تتمارى ... وشيخة تتلاحى
ودوا النزاع فكانوا ... مثل الكباش نطاحا
أخشى على الشعب هلكا ... يبيده واجتياحا
من ألسن قاذفات ... تروى القبيح فصاحا
وأنفس خائنات ... تهوى الخنى والسفاحا
ومن قوانين جور ... سلت عليها صفاحا
ومن شقاء ملح ... غدا عليه وراحا
من أين يفلح شعب ... أبى الهدى والصلاحا

خـــاض الميـــادين دعـــوى	**فأعقبتـــــــه افتـــــــضاحا**
لأنـــــــه لم يهـــــــيء	**غـــير الكـــلام ســـلاحا**
إن كنـــت اعـــزل فارقـــب	**مـــن المغـــير اكتـــساحا**
لا تنتظـــر منـــه خـــيرا	**ولا تـــرج منـــه فلاحـــا**[1]

ويتلبس المكان بالزمن الشعري فتارة تعلو مكانة المكان وتكون الفاعلة في الزمن وتارة يؤطر الزمان المكان ويتحكم في تكوينه مثل زمن الرفاه وزمن التقشف والانكماش وفي مكان الفقر ومكان الغنى في الزمن الذي يعتر الإنسان في تقلبات الأحوال عليه يتجلى ذلك في مكانة فالمكان صورة الإنسان في فقره وصورته في غناه وتترى صور المكان وحلقات الزمان في الصور الشعرية أو الإيحاء الشعري أو الإسقاط أو الاستذكار والمكان يتفاعل مع الحدث فالسجن غير حدائق الرفاه، والمدن غير القرى، والريف غير نزل البادية وخيام الشعر قديماً والخيام البيضاء حديثاً بل الأعمدة الحديدة الجاهزة. والحدث يلزم بالمكان مثل الحوادث المرورية، وحوادث الغرام والعشق. الأسفار في أصقاع المعمورة كلها أماكن تمحورت في الحدث السردي كما يظهر في قصص الحوادث التاريخية، وبعض القصص الذاتي الشعري.

يقول الشاعر المغربي عز الدين الإدريسي المولود عام 1942 ممن قصيدة (غروب):

غربت شمس الأصيل فوق لجين البحر
وكست بألوانها الزاهية أمواجه الدافقات
وتجلت السماء قشيبة بديعة القسمات
كأنها لوحة رُسمت بمداد الإعجاز والملكوت
تسلب لب المحدق في تناسق محاسنها الرائعات
وتبدو آية من آيات الجمال الخارق الصفات
تعالت عن كل تشبيه وفاقت منتهي التصورات

---

(1) الديوان 47

تعانقت الرؤى في أفقها عناق التوسلات
و أحطن بقرص الشمس الآخذ في الأفولِ و المواراة
تحجبه عن المغيب وتذوب في إثره متلاشياتٍ[1]

ميزات النص:

1- يتعامل مع اللفظة المفردة أو العبارة المفردة، فالمعنى له احتمالات و بلوغ كامل التأمل إليه غير مباشر.

2- التشكيل الإيقاعي فإنهم يداخلون بين التفاعيل والبحور والقوافي.

3- التداخل واللبس الذي يشبه حد ما اللوحات الفنية المتداخلة، فالشاعر يداخل المعاني ويداخل الصورة ويداخل الشكل وبذلك يصبح النص جسد من الاحتمالات وبؤرة من التعدد ويفسر كمال أديب ذلك بقوله: "كل لبس هو تشابك بين أكثر من واحد لأن الواحد لا يمكن أن يكون ملتبساً (إلا إذا خرج عن كونه واحداً) ولأنه تشابك بين أكثر من واحد، فإن اللبس هو تجسد للتعددية، وآلية خلق لها في آن واحد، ومن التعددية تنشأ الطبيعة الاحتمالية وهكذا تبدو الحداثة مرتبطة جذرياً بالتعددية والاحتمالات وهكذا يتحول النص من كتلة لغوية ذات بُعد واحد إلى جسد من الاحتمالات وبؤرة للتعدد."

غير أن هناك فئة من المنظرين المحدثين يتأولون النصوص التي صدرت عن كبار الأدباء في القرن التاسع عشر ويستمدون منها دعائم يرتكزون عليها، فالكاتبة خالدة سعيد ترى أن طه حسين وعلي عبدالرزاق هما أول من خاض غمار معركة زعزعة القديم حيث يريان "أن الإنسان يملك موروثه ولا يملكه هذا الموروث" ولا أتصور أن الكاتبين يتجاوزا حدود الدين في قولهما هذا وإنما يقصدان الفكر والأدب لا الأمور التوقيفية الدينية ولكن المتأخرين حملوا أقوالها على ما يبتغونه. ومعروف أن الأمور غير التوقيفية والقواعد اللغوية

---

[1] عز الدين الإدريسي اشراقات 106

الثابتة لا يمانع من تطويرها والاستحداث فيها إذا لم تعارض الدين وتكون معول هدم للغة القرآن. الواقع أن الكاتبة تحاول أن تتلمس بعض الأقوال المبتورة حتى تضم وتدعم مدرستها بأقوال الرواد من الأدباء كمثل طه حسين، والعقاد ومحمد هيكل ومعروف أن النصوص تحمل أوجها كثيرة.

وهذا أمر واضح المغالطة لأن مثقفي العرب يستقون من النص ويدركون ما وراءه ولا يكتفون بما ينقل إليهم لأن ذلك أشبه بصبغ الأخبار الدولية اليوم فكل دولة تصبغ الأخبار كما تريد وكذلك النقاد وحملة الفكر الجديد و مثلهم أنصار القديم.

وترى الكاتبة خالدة أن جيل الأدباء قد ألقوا بالدين ظهرياً وأعرضوا عن التراث واستبدلوها بالعقل والواقع التاريخي [هذا أمر ظاهر الافتراء عليهم يدركه كل من أطلع على كتبهم]، " فقد مثل فكر الرواد الأوائل قطيعة مع المرجعية الدينية والتراثية كمعيار ومصدر وحيد للحقيقة وأقام مرجعين بديلين ؛ الفعل والواقع التاريخي، وكلاهما إنساني ومن ثم تطوري ". وهذا أمر مخالف للواقع ألم تقم الحضارة الأوربية على جسور من عقول الأسلاف الأوائل والحضارات المتعاقبة، وباعترافهم أن الجديد مشع من الماضي الواقع الحاضر، مهما قيل عن جدته وحداثته، أما الأدباء العرب وخاصة في القرن التاسع عشر فإنهم قاموا بدور الأمناء على الفكر فأحيوا التراث واستمدوا من المفيد الجديد من الغرب ولم يشأوا أو يفرضوا القطيعة بين الدين والواقع والمجتمع حتى الذي يضمر ذلك لم يجرأ على إظهاره غير أن الكلمات قابلة للتأويل والتحريف لذا فإن تأويل الكاتب لكلمة طه حسين يندرج في هذا التصنيف لأن هذا الكلمة يؤيدها الجميع والواقع أن الإنسان متغير في كل لحظة يمر عليها ولم يضع له قوالب يتقمصها بل إن الفعل وسيلة للحوار والنقاش والجدل والتدبر.

وهناك أدباء عرب لم يسبروا الفكر العربي واستعمالهم البحث في الفكر الغربي مبكراً فظنوا أن لا وجود لمثل هذا الفكر في الأدب العربي وأخذ بعضهم سلاح المقالة الانطباعية وجرد التراث من تراكم المعرفة وبعض هؤلاء عادوا إلى كتب التراث وأدركوا ما أدركوا وقارنوا وحالوا جمع الفكر والمقارنة والمفارقة ثم الالتقاء.

وهناك أدباء من المسيحيين لم يبالوا بأقوالهم بل ربما تظهر ضديتهم للـدين الإسـلامي وإن مالوا إلى الحنين للفكر الديني الآخر وهؤلاء نـدرك أنهـم غـير ملـزمين بالتوجـه الـديني الإسلامي ولكن نناقشهم ونكشف عن توجهاتهم حتى يدرك الآخرون القرب من الحقيقة.

ومن هذا القبيل قولها عـن جـبران " يجعـل الإنـسان مـصدر المعـايير بـدل أن يكـون خاضعاً للمعايير من خارج "

وهذا القول مرفوض لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنـسان وأعطـاه الفعـل وأفـسح المجال ليتدبر ويعمل به ولكنه سرعان مـا أحتـاج إلى توجيـه وإرشـاد فأرسـل الرسـل فكـان المحصلة العامة بعد ختم الأنبياء أن الله سبحانه وتعالى وضع المعايير التي يعلم الله أن الإنـسان لا يقدر على وضع قوانين لها وضمن لمن سـار عليـه الـصلاح في دنيـاه والـسعادة في آخرتـه لذلك تقول أن هناك معايير ربانية توقيفية ربما لا يدرك كنهها العقل يجب العمل بها.

المثالية والواقعية

المثالية: بلوغ الكمال في الأعمال الربانية والدنيوية، والأماني الإنسانية، والسعادة الفردية والأسرية، والطموحات الاجتماعية. والمثالية هي السلاسل التي تدفع الإنسان إلى الأمام حتى تشحذ فكرة، وتكون مقياساً لتطوره وميزاناً لقدرته، والمثالية هي الآمال الإنسانية المتنامية الداعية المستمرة إلى المواصلة العملية والتواصل الاجتماعي، هي التي تشبع الغرائز الإنسانية، التي تؤدي إلى الكمال الذي يبلغه الإنسان والمثالية لا تقف عند أمور ذات حدود وقيود وإنما تتشعب وتتفاوت فهناك مثالية ينشدها المجتمع وهناك تفاوت بين مثالية الأفراد والمثالية متوالدة، وهي متغيرة لا نهاية لها و لا اعتدال للنفس الإنسانية بدون الجري وراءها والتطلع لها.

والمثالية الأولى عندنا وفي مجتمعنا تتمثل في الإيمان وزيادته والثبات عليه وعدم تغيره بها ومن ثم يصلح المطلب الدنيوي وأهدافه، والإسلام الدين الرباني جعل من الإنسان عابداً عاملاً فهو يلتقي مع المجتمعات الأخرى في كثير من المثالية التي تدعو إلى الإنسانية ولا يعارضها الفرد وهناك مثاليات ظاهرة المطالب الدنيوية وتجد أن عملها مما يحض عليه الإسلام، من هذا تكون التوازن والاعتدال أمام المسلم وواقعية رغباته وتطلعاته وآماله فأصبح عاملاً فاعلاً حتى في آخر لحظة من حياته فهو إن عمل لدنياه وإنجازه له يكون بقدر إخلاصه وتفانيه وتعليمه المساعد حيث يتسلح بالتجارب الإنسانية وأن فرغ من دنياه ولا إضاله فارغ، فإن العبادة تدعوه ليكون له مخزوناً أخروياً ولن يبلغ المبتغى ولا ربعه ولا نصيفه لذا وضع الله منهجاً يومياً للإنسان مع الدعوة المستمرة لتنامي العطاء الإنساني وتنافسه ولكن الدعوة الفعلية، والدعوة النابعة من التكون الإنساني، والغرائز الذاتية، لهذه المثالية، هل تحول دون النظرة الواقعية التي عرفت بأنها "التمثيل الموضوعي للواقع المعاصر" منهج الواقعية الإبداع الأولى ص36.

والذي لا ريب فيه، فلا محالة من أن العمل والتدبر والاستمداد من الواقع أمر حتمي ومطلب ديني "القناعة كنز لا يفنى" و مطلب فردي ذاتي حيث يؤدي إلى استخدام

العقل وطلب المعرفة المساعدة للعمل والتكوين الأسري والمادي والنظرة الواقعية هي التي من خلالها ينمو الإنسان فكرياً والتوازن بين الواقع مع المجتمع والفردية والإنسانية مطالب متشابكة متآزرة أحياناً ومتعارضة أحياناً أخرى يؤدي إلى الاعتدال وحسن التدبر والعيش بسلام، وهل المثالية والواقعية متعلقة بالفرد أم بالمجتمع أم بهما جميعاً؟ ونحن لو نظرنا إلى النتائج التاريخية وقرأنا الواقع المحيط بنا لرأينا الجنوح الفردي إلى المثالية في كثير من المجتمعات ويتمثل ذلك في الديانات والمذاهب الصوفية وكانت المراحل القديمة يغلب عليها الطابع المث إلى المغالي، فنرى الديانة المسيحية تهيمن عليها الكنيسة التي تغ إلى في الروحانية وتصرف المجتمعات عن النظرة الواقعية ورأينا الديانة البوذية كيف هيمن على المجتمع الآسيوي. وبرزت إفرازات هذه الظواهر على المجتمع الإسلامي مما كون المذهب الصوفي. إلى جانب مجتمعات لم تدخل التاريخية اعتمدت على الواقعية البدائية، أما في العصور المتأخرة فإن الثورة ضد المثالية كانت طاغية على المجتمع الأوربي فدالت دولة المثالية ولمع نجم الواقعية المغالية على انقاض المثالية الطاغية، ولذا فإن المجتمع الغربي وحضارته فقد التوازن والاعتدال في المجتمع والأفراد معاً.

والمثالية والواقعية بين الأفراد إنما هي جدول نابع من الظواهر الاجتماعية ونحن لو نظرنا إلى الواقعية الغربية وما هيأت الدولة لأفرادها من كماليات فضلاً عن الضروريات مع التكوين الذهني الذي يغلب عليه الطابع الواقعي للفرد فهل نعم هذا الفرد وأحس بإنسانية ووظائفه الحياتية واستغنى عن المثالية؟ الواقع الذي ظهر لكل البشر أن الفرد طغى عليه الفراغ النفسي وأمراضه. ولم يعد يأنس إلى الملذات التي تأتي بدون جهد أو تعب أو تمني أو تطلع ولم يكن أمامه آمالاً وأهدافاً ومثالية تدعوه إلى مواصلة العمل " وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا الإنسان في كَبَدٍ".

ويبين المثالية والواقعية فيافي شاسعة وأفاق واسعة، وصحاري قاحلة، وسراب متواصل ينقشع أدناه ويمتد أقصاه. الأمر الذي أدى إلى ضياع أمم ومجتمعات عبر الحقب التاريخية رغم العقلانية التي أختص بها الإنسان ورغم الديانات الإرشادية التي نزلت لتصحيح المسارات ؛ تهدي السبل وتقيم التوازن والاعتدال وكثير ما عطلت الرغبات

والمصالح الفردية السياسية منها والمعنوية، والاجتماعية أحياناً كثيراً ما جنحت عن السبل المستقيمة ورسمت مناهج الضياع وتدفقت عبر أوديته وهوت من قممه وتلاله فكان التعثر الإنساني.

ولكن المنهجية الواقعية المعاصرة وطغيان العقلية هل تلامس الواقع الموضوعي وتتحسس إيجابياته وتفرز سلبياته لتقيم مناهج اعتدالية يسعد بها الإنسان وتنقذه من التدحرج في الهاوية. إن الإنسان اليوم أكثر قدرة من اسلافه على التوافق والاختيار السليم وذلك لأنه متاح له الاطلاع على المعرفة من جميع جوانبها ويستقى من الموارد الفكرية وينتجها بتدبر ورؤية تساعده على صقلها، إلى جانب المقارنة بين الأديان وأيها أفضل وأشمل وأكثر تفاعلية ويتناسب مع العقل والفرد والمجتمع والتفاعل مع الكون والأهداف الإنسانية ومع التكوين الإنساني ذاته ومتغيراته الناجمة عن نفسياته وغرائزه ولو يتاح للإنسانية ولعقلائها ومفكريها الذين ينظرون بعقلية واعية بعيداً عن الاتجاهات المبدأية ودرسوا بموضوعية لاتجهوا إلى المناهج السليمة ولكن هيهات فقد وقعنا في المثاليات المغالية، والمتوازية، والمتعارضة ووظفها الإنسان لآماله الرفاهية أو السياسية أو المذهبية.

والنظرة المثالية المغالية كانت سبباً في وجود الثنائية التنظيرية وربما الواقعية في المجتمعات العربية والإسلامية ودول العالم الثالث الأمر الذي عرقل مسيرة التقدم في كثير من هذه الدول وجعل الصراع يستثير بين مفكريها وبين منفذيها مما أحدث فجوة كبرى بين السياسيين والمثقفين حيث ظن الكثير أنهما يتعارضان ولا يلتقيان يختلفان ولا يتفقان وإن في ظهور أحدهما قضاء إلى الآخر حتى ظلت رؤية الاعتدال تقرب من المستحيل، فنحن نرى المواقف السلبية من كثير من المفكرين والذين ينشدون المثالية في التنفيذ بل ويقدحون في أولئك العلماء الذين أدركوا الواقع وتعاونوا مع المنفذين لعلهم يؤثرون فيسيروا على أفضل الطرق وأسلمها. وكان المنفذون يخشون التعامل مع المثالية الفكرية ويرهبونها وبين هذا وذاك فقدنا الكثير من العطاء على المستوى الاجتماعي والفردي فقدنا التعاون والتكاتف والتآزر بين قطبين كبيرين هما المفكرون والمنفذون، فقد التنفيذ العوامل المساعدة وفقد الفكر التطبيق مما أفقده التأثير. واستجابة المنفذين لمقترحات وأراء المفكرين يؤدي إلى التكامل والتعاضد لا

إلى الضعف والتناحر ويقف في وجه الفرقة والتضاد ونرى التجربة التي نعيشها في بلادنا خير مثال في ذلك فإن العلماء يلتقون بولاة الأمر في مواعيد منظمة وزيارات ميدانية فيسمع الولاة منهم وينفذون آراءهم ويطلع العلماء على العقبات والمشاكل التي تعترض التنفيذ ومن ثم يكون هناك الحوار والنقاش الذي يؤدي إلى الاعتدال والتوازن وهؤلاء العلماء والمفكرون هم أكثر فعالية وأقدر على التنفيذ أو توليد الآراء القابلة للتطبيق والتآلف. ونحن لو نظرنا إلى الذين امتطوا المثالية المغالية وطالبوا بتنفيذها وهم على بعد عنها لم يكن لهم كبير أثر أو ربما تلاشى وأثر على عطائهم الفكري وأدى إلى انغلاقيه ذاتية ففقدوا أنفسهم وفقدهم مجتمعهم لأنهم لو استمروا في العطاء وأخذوا بجانب من الواقعية لكان أفضل ويقرب إلى ذهني مثال حيث كنت أتابع خطيباً في جامع كبير فكان ذو فصاحة ومنهجية وخطبته وشموليته في المعالجة مع معالجة المشاكل المعاصرة مما حببه للناس وكان له تأثير كبير غير أنه انقطع فلما سألنا عنه وجدنا السبب أنه ضاق ذرعا بالحديث عن الإلزامية بالحديث عن الأسابيع ذات النشاط المحدود مثل أسبوع المرور، مما أدى إلى الخلاف بينه وبين مدير الأوقاف وبغض النظر عن تأييدها ومعارضتها ولكن أليست مواضيع اجتماعية؟ وما يهم المجتمع فإن الإسلام يحث عليه فمثلاً أسبوع المرور أليس فيه إنقاذ النفس الإنسانية ألا تستحق أن ينطلق منها الخطيب ويحي ضمير الفرد ويجعل منه رقيباً في سيره وتعامله مع العربات والطرقات ومثله النظافة، وأسبوع المساجد والارتباط بها ونحن لو نظرنا إلى مثالية هذا الخطيب ألم تحرمنا منه قدراته الإبداعية على معالجة القضايا وغرس الإيمان في التعامل البشري.

أن مثل هذا وغيره كان الأجدر بهم الاعتدال والتوازن في لا يخالف الدين الحنيف بل إن ولى الأمر يؤيدهم ويدعوهم لمعالجة القضايا ضمن التعاليم الشرعية. والعلماء والمفكرون والمثقفون مطالبون بالتعاون والتآزر مع المنفذين حتى يتمكنوا من تطبيق علمهم وفكرهم وكما أن العالم يبحث عن الفكرة وينشرها فإن عليه أن يبحث عن العمل بها وتطبيقها أي يجب عليهم الخدمة الإجبارية الإلزامية فيدخلون معترك التنفيذ ويدركوا صعوبته ومن ثم يبحثون عن كيفية التنفيذ المتغيرة المستمرة التي لا تتأبى عن المعاصرة وحتى

نجمع بين المثالية والواقعية فإن الواقعية يجب أن تكون الأرضية التي تنطلق منها ومن خلال تفحصها وإبراز إيجابياتها وفرز سلبيتها وإمكانية تعديلها وإمكانية التغير الذي يؤدي إلى المستقبل فإن الفرد والمجتمع يجب أن ينطلق منها غير أن المثالية هي التي تشده وتدعوه إلى النجاح والتواصل والاستمرارية مع القدرة التنفيذية عن طريق السعي وراء المثالية المتشعبة التي تكون في كل شأن من شئون الحياة فتدعو الإنسان إلى التنافس والتطور والاستمرارية وتدفع به إلى الأمام والتنافس الشريف، وتجعله يحس بنفسه وبمجتمعه، فيواصل الإنتاجية العملية التي لا يعدم الفائدة منها في دنياه وآخرته. والمثالية المتكاملة التي جنح إليها قليل من أدبائها ففقدنا عطاءهم الفكري وإبداعهم الأدبي بل أن بعضهم أحجم عن الانخراط في المجتمع وقراءته وتفاعله معه فظل في معزل عن ملهمات الإبداع وظل يتقوقع على ذاتيته بل إن آخرين أغرتهم المثالية في التعايش الأسري ولم يأخذ بمبدأ الخطأ والصواب والعقل والهوى التي تمكن في التركيب الإنساني ويقوم العقل بعملية الاعتدال والتوازن ووجدت الحدود الشرعية من أجلها.

مصير الحداثة

إن الاتجاه السائد إلى تفجير اللغة وتحطيم الأوزان والإعـراض عنهـا والاسـتخفاف بها والتعانق مع الموجات الموسيقية العاتية التي لا تقـوم علـى ترتيـل أو ترتيـب أو تنظـيم مـا يقذف بالشعر إلى محيط النثر وتذهب الموجات غير المقاسة وتزول خاصية وقد صـرح الكـثير بهذه الهدفية ولكن السؤال المطروح ثم مـاذا يعـد هـذا مـن جديـد للـشعر؟! أينقـرض أم أن مصيره متعلق بالإنسان يدوم ما دام الإنسان يعيش، الذي لا ريـب فيـه أن الـشعر لـن ينـدثر ولن يتلاشى ولن ينعدم والذي اتوقعه إن كان الغلبـة لنـداء الانـدماج والامتـزاج والتحطـيم والتدمير فلن تلبث راكدة زمنا طويلاً ويـستخرج الزهـرة مـن أكمامهـا والـذي أرجحـه أنهـا ستعود إلى جذورها الأول جذور الأصالة وتتكون فروعها من هذه الدوحـة تمامـاً كمـا عـاد الأدب الإنجليزي إلى أوزانه وضوابطه بعد أن ساح برحلته التنظيريـة والإبداعيـة في جـداول النثرية فترة زمنية: " ويمكن أن نستأنس هنا بالفترة التي عرفت الشعر الإنجليزي باسم " الموبرلي " 1920 م حين أعاد إليه باوند و أليوت أوزانها لمعروفة بعد الفترة التجريبية التي غـير فيهـا – عـبر الـشعر الحـر – أسـلوب الـشعر الإنجليـزي تغـيراً نهائيـاً في أركانهـا الثلاثـة: الإيقاعيـة والتعبيرية والفكرية"[1].

والدكتور يعتبر مرحلة الحداثة مرحلة تجريبية "فندعى أن شعرنا ما يزال يعـيش فترتـه التجريبية " التي ستنجلي كما يبدو، ولكن لن نعدم الجديد من خلال التجربة هـذه فإنـه لا بـد وأن يتأثر الإيقاع فيكون أكثر تلوناً من الأوزان القديمة، وتتأثر الصياغة بما يتناسـب مـع روح العصر ولغته وطرائق أساليبه ومخزونه اللفظي.

بقدر ما وُهِب الشاعر من مواهب واستعدادات، وما يشبه الإلهام بقدر ما يحتـاج إلى تدريب وممارسة وتنمية لعبقريته، وأكثر الناس تواضـعاً أمـام العلمـاء هـم أولئـك العظمـاء، فعظماء الشعر العربي هم أولئك الذين يقتفون أثر الشعراء ويسعون وراءهـم مهطعـين طلبـاً

---

[1] حركة الشعر الحديث في سورية أحمد بسام سباعي ص 531

لبيت شعر أو مقطوعة، ملازمين أولئك الشعراء الفقراء، فاستمعوا لإبداعهم، واستلهموا ما حوته ذاكرتهم من شعر الأسلاف، فطرفة بن العبد راوية لأعمامه وأخواله، وزهير راوية لأوس بن حجر وبشامة بن غدير ورواته كونوا مدرسة عبيد الشعر أو مدرسة الصنعة، وعباقرة الشعر الأموي لهم كبير التواصل مع شعراء الجاهلية وراوية أشعارهم كما تحدث الفرزدق في شعره، ورواد الشعر العباسي تولدت عبقريتهم عن طول تدارس وتدبر وحفظ ورواية لأسلافهم من شعراء العربية من أمثال بشار وأبي نواس، وأبي العتاهية وأبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم فإن الباحث في حياتهم يذهل أمام القدرة الجادة والتواصل لتكوين عبقريتهم الشعرية.

وفي عهد الضعف والتدهور والتأخر في أوربا سادت المقولة "إن الموهبة في حسن السبك، كانت تكفي لنيل الرضى والاستحسان، وإن تبصر الفنان في فنه، وفي دروس معلميه، وفي النصائح المأثورة، لا يغنى العمل الأدبي في شيء فلا بدّ من النماذج العالية" ص10.

فكان الأدب الساقط الضعيف أدب العصور الوسطى، حتى ظهرت فرقة من الشباب تمردوا على الواقع في حو إلى 1546 م فأدركوا أن العلم والمعرفة أولاً وهنا عقدوا مقارنة بين معاصريهم والشعراء السابقين فأدركوا عظمة الأسلاف ونهجوا نهجهم وكانت من أقوالهم "أنه مهما تعلم الإنسان لا يشعر بالكفاية لممارسة أنبل الأعمال بتكوين قاعدة معلوماتية وممارسة".

ومن حصاد هؤلاء إنهم أدركوا هدفية وغاية الشعر السامية وأنه جزء من الدين وعامل مهم لصالح الإنسانية، فيجب استعماله في القيم والمثل وسخروا مما هو متعارف عن الشعر "لم يكن في أول عهده سوى لا هوث رمزي، الذي يُدخِل إلى عقول الناس الغلاظ بالأمثال المسلية والملونة، الأسرار التي ما كانوا يستطيعوا فهمها عندما كانت تكشف لهم الحقيقة بصراحة تامة" ص12.

فهم ينسبونه إلى الآلهة فهو إلهام من الخارج، ونسبة قوة الشعر وقدرته إلى الخارج أمر عند العرب أيضاً حيث ينسبونه إلى شيطان الشعر رفيق كل شاعر.

وكل ذلك أعرض عنه النقاد والعرب أولاً فحثوا على الرواية لزيادة المخزون، واستشعار النموذج السلف، وقالوا بالممارسة، فهي المثقف للموهبة والمغذية لها. وكذلك فعل الأمين في روما فقد تتلمذوا على المدرسة الإغريقية وذلك ما فعلته رائدة المدرسة الأدبية الحديثة المدرسة الفرنسية " فقد انتسبوا بتواضع إلى المدرسة الإغريقية " وتبلورت المدارس وتنوعت، وأصبحت فرنسا تسلك المدارس الأدبية، وتصدرها، ومن هنا لا نجد لأي اتجاه أدبي فاعلية، ومكانة مرموقة، إذا لم يتواصل مع الجذور فهذا البارودي رائد الإحياء للشعر العربي الحديث تواصل مع الأدب العباسي، وهذه مدرسة البيت مثل أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم وغيرهم من شعراء العربية الذين عاصروهم.

ومن هنا فإن أولئك الشعراء الشباب الذين أعرضوا عن الجذور ومنابت الأصالة، وبتروا أنفسهم وانقطع الوشائج مع النموذج السلف، فقد زلت بهم القدم، وساحت بهم المفاهيم الذهنية، في مهمة فأصبحت أعماله سراباً بقيعة، وتقطعت بهم الأسباب، وتألق نجم أولئك الذين استقوا من نبعهم، وأقبسوا من عصرهم وتبلور الناضج من القديم والحديث، فكان التلاحم والانسجام وتولد الجديد تماماً كالإنسان الذي يشبه أبويه في أشياء ويفترق عنهما في أشياء أخرى، أو كالزرع المهني تهجناً حديثاً، فيكون العطاء والوفر.

قبسات من الأدب المغربي

الشعر هو النبع الصافي الذي يصدر من أغوار الإنسان الناقل لتتشابك مفاهيمه ونزعاته وتفاعله مع الحياة، فكل ما تنوعت حياة الشاعر واختلفت مرئياته، وتطورت مدركاته وألحت عليه الطبيعة وتضوعت في نفسيته، وتصارعت الأهواء والآراء وكلما رهف حسه، وانغمس في الموجودات وكان الإنسان سريع الحضور في المشاهدات كلما تنوعت المذاقات الإبداعية العطائية لأن "الإقامة الطويلة في المكان الواحد تجفف ماء القلب" قصتي مع الشعر ص 244.

والارتحال عبر الطبيعة منبع من منابع الشعر، والجوس خلال النفس الإنسانية واهتزازاتها فهي نبع استلهموا منها زخم هائل من التراكمات والملهمات الشعرية، والصدام والمواجهة والعراك والتلاؤم والتلاحم الاجتماعي مكونات فياضة للمخزونات الشعورية واللاشعورية. تلك الأحاسيس والانطباعات التي تغور في الأعماق وتتبلور في الإبداع هي التي تمثل الحياة الإنسانية، فتصيرها تتذبذب في هزات كهربائية بين اليأس والأمل بين النور والظلام وبين الحب والكره وبين الذاتية والجماعة بين الخير والشر هذا الصراع ملتزم بالإنسان عالق به من حيث خلقه الله حتى تقوم القيامة هذه الأشعة المتشابكة المتأثرة والمؤثرة المتغيرة المتطورة جعلت من الإنسان أعماق مجهولة والشعر أعظم وسيلة لتتعرف على المنعرجات السحيقة في النفس البشرية والشعر تتكون إبداعاته ونتاجه ورسمه لتلك اللوحات الإنسانية "فالشعر ركام ضخم وجميل من الأحاسيس والوجدانيات الكثيفة، تشحنها في أعماقها سلاسل الأحداث والوقائع المترادفة من حوله في الطبيعة والإنسان.. كان لابّد أن ينطلق بها "الأحاسيس والوجدانيات" في مختلف لغاته، وأن يمضي في تصريفها على مختلف القنوات الأدائية – وإلا نغلق على إنسانيته، وانطوى على توتراته الداخلية، يحترق

وتحترق في كوامنه ذخائر الموهبة وقذائف الإبداع وإلا ظل إناء معتماً مصمتاً لا منفذ في جوانبه للتصريف، والأخذ والعطاء"[1].

ذلك ما قاله الحبيب محمد الفرقاني المغربي في كتابه دخان من الأزمنة المحترقة والذي عالج فيه المفهوم الشعري من منطلق الأصالة العربية للمضامين وتطفو كثير من المفاهيم الغربية على الديوان والمعالجة التي تصدرت الكتاب والتي لا مندوحة من هيمنتها على كثير من أفكاره وشكلية إبداعه، فالمضامين التي تنساب عبر جداوله الفنية إنما هي نابعة من موطنه ومن عربيته حيث يطيل الإطلالة على القضايا التي تصحب كل عربي في خلواته وأنسه و بين رفاقه وربما يئن منها في ثنايا ضحكاته، وكثير ما تكون كوابيس ليلية تعاود الزيارة تلو الأخرى.

والفرقاني يصدّر كتابه " دخان من الأزمنة المحترقة " بلوحات فنية نثرية يحكي قصة التاريخ الشعري ومكانته ويحكي بأن الشعر ضرورة فوق العادة من أجل التلاقي والتواصل والتلاحم الإنساني " بل الشعر بطبيعته – بلورة وجدانية للذات وصلة فكرية مباشرة على مستوى آخر – بين الإنسان والعالم الخارجي من أجل التكاشف والتفاهم والتلاقي على الأعماق"[2].

ويؤكد على أهمية الشعر وينأى به عن تهمة العبث والتسلية فهو " ليس عملاً ترفيهياً سائباً ولا نتاجاً فردياً وأنانياً معاً، كما أنه في وظيفته ليس مجرد أداء سطحي، أو عبث مجاني لمن لا شغل له " إذن فهو ينظر إلى الشعر نظرة علوية ذات قيمة إنسانية واجتماعية لا غنى عنها ؛ فالشعر يمثل رحلة الفهم والارتباط والمعالجة الذاتية والتفاعل مع الموجات الاجتماعية، والتصادم مع السلبيات الثقافية من هذا ندرك أن الشعر عند الفرقاني ابن المغرب العربي يحمل الانطباعات الخيرية للإنسان ومجتمعه، وإنه ذات رسالة هادفة مختارة من الماضي ومتفاعلة مع الحاضر وآمله وراسمة للمستقبل فالشعر عند الفرقاني هاجس إنساني دائم الحضور نابع من اهتزاز العناصر الإنسانية المتشابكة فقد " كانت رحلة الشعر الإنساني

---

(1) دخان من الأزمنة المحترقة، ص5

(2) المرجع السابق، ص5

إذن رحلة لقاء وتواصل.. اندماج في الحدث... تقمص لمعناه.. ذوبان في أفقه، بل مشاركه في صنعه معايشة لتحركه حضور في مصايره المقبلة فجاء من بدايته ذا طبيعة اجتماعية لا يأتي إلا ثمرة اندماج لا يكون إلا شرارة إنسانيته، تنقدح من العمل وبه... لتذوب فيه. لا ينحدر من أعماق الإنسان إلا من جدلية العمل الإنساني: إنتاجه، حركته، أفكاره، عواطفه، رؤاه، مناشطه الذاتية والخارجية مع الطبيعة مع الإنسان.. مع الحياة"[1].

وقد أدرك كبار الأدباء والنقاد في الشرق والغرب الوشائج والعلائق الممتدة بين الأغوار الإنسانية واستكشافها من خلال القبسات الشعرية فهذا رتشاردز يرى الخطل والزلل بارزا فيمن يحاول فصل الشعر عن المجتمع حين يقول: " يتضمن فصل التجربة الشعرية عن مكانها في الحياة وعن قيمها البعيدة اعوجاجاً أكيداً في التفكير وضيقاً في الأفق وقصوراً لدى أولئك الذين يدعون لهذا المبدأ، مبادئ النقد الأدبي 126.

والشعر إنساني ملازم للإنسانية ضروري من لزوميات الحياة فلا يستغنى عنه الحاضر في حاضرته والبدوي في صحرائه والأمي في ذاكرته وكل لغة من اللغات ولهجة من اللهجات للشعر حيز كبير في المنتقي من ألفاظها وقمة الجمال في أسلوبها " فالمقطوعة الشعرية، تديرها المرأة البدوية أغنية هائمة مع الرحى وهي تطحن في بيتها الحب، وتهيء الغذاء... وبنات القرية يرسلن الأهزوجة الشعرية بين حشائش الغابات والحقول.. والمطارحات الشعرية يعقدها الفتيان والفتيات، ويخبط فيها الشيوخ والكهول"[2].

ويعتقد الفرقاني أن الأمة العربية أمة شاعرة نبع الشعر من خصائصها النفسية والروحية ولكن الفرقاني شأنه شأن كثير من الأدباء العرب الذين مالوا مع الاتجاهات الأدبية التي تؤمن بتغيير الشكل ولا غرابة في ذلك فمن أثر المدارس الأوربية والفرنسية أخذ مسربة على مغربنا العربي فهو واضح وأكثر تجلياً حيث الجو الجغرافي وتعدد القنوات الاتصالية والاستعمارية والخلفية، والتواصل الثقافي من جراء ذلك فإن الكثير من الأدباء في المغرب استلهموا الشكلانية الأدبية من قصة ورواية وقصيدة والفرقاني أحدهم فقد ارتاد

(1) دخان من الأزمنة المحترقة ص7

(2) المرجع السابق ص11

الشكل الحديث للقصيدة بل يرى أنه منطلق حضاري صحيح المسار فالتطويع الذي عصر القصيدة على مستوىً عالٍ من الجدة والاستيعاب ووضعها في إطار جمالية وذوقية متطورة، وحررها من روتينية التفعيلة، وجمود الهيكل والتقفية، وأضفي عليها من حذق اللغة، ومرونة الكلمة، ودفء الإدراك الوجداني الشريف وجعلها – على الأقل – لم تختلف عن المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الوطن العربي"[1].

---

[1] دخان من الأزمنة المحترقة ص50

الشاعر الفرقاني

ولد محمد الحبيب الفرقاني بتحناوت ناحية مراكش في 18 ديسمبر سنة 1922 م تلقى تعليمه الابتدائي على يد والده ثم التحق بكلية ابن يوسف الشعبة الأدبية عام 1948 م وبعد التخرج عمل أعمالاً حرة مرتبطة بالتعليم ساهم في الكفاح الوطني ضد المستعمر وهو يدرس في الكلية تعرض للسجن مراراً كثيرة يعمل بالصحافة.

والفرقاني له ديوان يعتبر الجزء الثاني من كتابه " دخان من الأزمنة المحترقة " يرى شعره نبضات قلبه وقبسات فكره وديوانه كاملاً من الشعر الحر الذي لا يتقيد بقافية ويلتزم بالتفعيلة وقد استلهم الأشكال الفنية الغربية، وأخذ يعالج القضايا في شعره عن طريق الإيحاء الخاطف النابع من المجاورة اللفظية غير أنها مجاورة لا تجنح إلى الإغراق في الجدلية والغموضية المستحيلة لكنها أشبه ما تكون بالجذور الأولى للغموضية المستعصية التي تبلورت في الجيل المتأخر لشعراء العربية أما القضايا التي عالجها في ديوانه فإنها تكاد تشمل الواقع المغربي في عصر الشاعر ولا غرو في ذلك فالرجل مهتم بالقضايا السياسية والاجتماعية والفكرية ومتفاعل معها ليس في مغربه فحسب وإنما هو على اطلاع واع بالقضايا العربية وقضيته الكبرى فلسطين وله قصيدة وسمها بعنوانها (تل الزعتر) يقول منها:

لهاث الصبايا

ولون الضحايا

أسارير غيم على جبهة شيخ

عميق الإرادة

يقاوم حرب الإبادة

ينفض فوق المآسي غبار السنين

و تضحك في جلدهم

زغردات الرصاص

وقال لي النهر
هي الموعد الجهم........ في صورنا
وشارة لقيا الأحبة.......... في دارنا
.... وطريق الخلاص

ومن الأحداث الكبرى التي سجلها حرب (رمضان اكتوبر عام 1973م)

قلبي !
وخبرني بجولته القمر
آمنت
غام الأفق، وأنهمر المطر
لا تحسبوني عاطلاً
متهوساً
اتسكع الغدران ألتحف الحفر
مهلاً
فقبل اليوم كانت مرابعي
تتنطق الأهواء
تلتحف القدر
إني أكلت النار
فوق اظافري
وركبت أجنحة العواصف
وفيها يقول:
يا أيها العربي أنك أمة
ملء الزمان

و ملء أركان البصر

تاريخ وجهك ثورة مجنونة

وخصالك الحمراء بركان زخر

النار أهلي

والأعاصير منزلي

والثورة الطمىء طعامى المعتبر

آمنت الوثبات

يعرب في دمي

لهبها يؤرقني

و في عصبي مضر

من هذا ندرك أن أسلوبه الشعري يميل كثيراً إلى التقريرية وتتخلله زخات من الإيحائية والرمزية التاريخية.

وشعر يحمل إشعاعات ذاتية مبلور معاناته في السجون وتفاعله مع الأحداث والمستجدات والمنحنيات الاجتماعية من ذلك قصيدته.

مذكرة سجين في اليوم العالمي لحقوق الإنسان.

أنا واقف في غابة القضبان.

والسور واقف

وحقيبة الجدران تجمع قصتي

والقفل ينبح جبهتي

وأظافر المهراز والأدغال

تنفش في دمي

تاريخ إنسان بلا لسان

ولا فم

تاريخ ليل عاصف الظلمات

بلا شروق

ونزوح إنسان من الدنيا

من الأحياء

يسبح في حروق.......

وبلا حقوق.

عن الشعر المغربي

الشاعر الأديب المغربي محمد الحبيب الفرقاني يدرك ما حاق بالأمة العربية ويحدق بها وأنها من أثقالها مغلوبة على أمرها وقد تنبه الفرقاني إلى ما تفتقت عليه أعين الشعراء وبصائرهم من واقع مرير للعرب "لما حاق بالجماهير العربية من انتكاسات ارتجاعية، وارتدادات سياسية، وما أخذ و يأخذ بأعناقها من مقابض حديدية، تغل حركتها وتشد طموحها إلى الارتكاس والضياع، وتتركها كماً مسخراً يرتمي على أرض التمزق و الاستسلام" ذلك القول ما يشير إلى إدراك الشاعر للأرضية الواقعية التي نما بأنسجتها الشعر العربي، فكانت لهذه الأنواع المريضة والملوثة أثرها في نفسيته وما يعتصره من ألم، ومما يثقله من واقع صعب ربما يؤدي بالكثير من الشعراء إلى التنفس الذاتي لهيمنة اليأس في إزاحة الظلمات المحدقة" وقد ترك كل ذلك مفاعيله المباشرة على مستوى الثقافة والشعر والأدب، وانكفأ الشعر العربي نتيجة لأوضاع رثة قاسية، ومحيط متهافت مخنوق في مجموع الوطن العربي، إلى نوع من التهويم الذاتي والانغلاق الوجداني الغامض....) [1].

ولا يستثنى من ذلك الزعم المتجنى إلا الشعر الفلسطيني فإنه عميق الإحساس صادق الشعور بليغ الأداء " لأن لغة الشعر الفلسطيني خرجت من التهويم الميتا فيزيقي الهارب، وارتفعت عن الحبوط النفسي المتهوس، فتحولت مع بنادق الثوار، ومعانقة الصراع الدموي والحرائق إلهية في حياة الأمة العربية إلى شحنات إرادية في اذرع طلائع التحرر العربي، واستحالت الكلمات إلى طلقات نورانية في وجدانهم"[2].

ومع موافقتنا في حكمه على الشعر الفلسطيني إلى جانب سرورنا بإدراكه ورصده لهذه الظاهرة فإني أخالف الفرقاني في حكمه على مبدعي الأمة العربية، فإنهم استلهموا القضية الفلسطينية في فكرهم وثقافتهم ومشاعرهم وإحساسهم ومجتمعهم ليس ذلك على مستوى العالم العربي فحسب بل كل الأمة الإسلامية وكثير من الفضل في ذلك يعود إلى

---

(1) دخان من الأزمنة المحترقة ص51

(2) المرجع السابق ص52

تلك الإبداعات التي سرت في الشعوب سريان الدم والهواء لذا فإن كل فرد من الأمة يحمل أثقال هذه النكبات ويعيش في ظلامها الدامس ويثري في أحضانها الأبناء شأنهم في ذلك شأن كل أمة تنفض عنها القهر والضيم وشأن الشعر المغربي الذي يرى الفرقاني أنه واكب الثورات وأحياه الشعور وفتح البصائر على واقع المجتمع في ظل الاستعمار حين أبان عن ذلك تحت عنوان " الشعر المغربي قبل الاستقلال " وتحت هذا العنوان تحدث الفرقاني عن تطور الشعر العربي المتأخر عن نظيره الشرقي كما يرى ذلك ويحدد بدايته الحقيقية بعام 1930 م من ذلك الحين واكب الشعر الكفاح والسياسة، ويصحب الحركات الوطنية حتى عام 1956م ويمتاز شعر هذه المرحلة " بمحاولة إعطاء الشعر شعر المرحلة مضموناً اجتماعياً وسياسياً مع التزام البناء العمودي للقصيدة، والتأثير التقليدي المنفعل بالاتجاه التجديدي"[1].

لكن هذا التمثيل الشعري للأحداث لم يكن حضوراً متكاملاً لأنه ظل في غياب عن أحداث وطنية كبرى في سبيل الاستغلال ودحر المستعمر و قد رصد الكاتب تلك الأحداث نتجاوز تعدادها خشية الأطالة.

و لم يكتف بتسجيل هذه الظاهرة فحسب بل " أن الحضور المعاكس إلى جانب الاستعمار والاقطاع كان قد سجل في صفه جملة من شعراء المرحلة ارتبطوا مصلحياً ومذهبياً بالاستعمار وأجهزته ".

وما دام أن الشعر المغربي لم يستلهم الأحداث ويعالجها بشمولية متفاعلة فإن الأحرى به أن لا يتجاوز تلك الإقليمية وينطلق إلى مشاركة الأمة العربية فإن الأحداث الكبرى التي ألمت بالعرب " لا نعثر على أصدائها في الشعر المغربي لا ضعفاً في الحس القومي لدى الشعب المغربي الذي كان يعيش هذه الأحداث ويتابعها بطموحاته وأعصابه ولكن ضعفاً في الشعر والشعراء، وفي الحسن الأدبي الشجاع"[2].

ومن شعراء المرحلة الأولى لشعر المغرب العربي علال الفاسي، محمد المختار السوسي، محمد القرى، ابن العباس القباج، ومحمد سكيرج، وعبدالواحد الكتاني.

---

(1) دخان من الأزمنة المحترقة 53

(2) المرجع السابق ص55

" أما المرحلة الثانية من الشعر المغربي فإن معالمها تكون من بداية الستينات من القرن العشرين ويقسم الفرقاني شعراء هذه المرحلة إلى قسمين كبيرين أحدهما الفئة المحافظة ويتحامل الفرقاني كثيراً على هذه الفئة فيصفها بالسطحية والتملق وعدم المعالجة الاجتماعية العميقة وضعف الصياغة في كثير من الأحيان"[1].

أما الفئة الثانية فإن شعرها "يأتي بالمقابل نوع آخر من الشعر نقيض للأول هو – شكلياً – يقبل بكل تغيير في عمودية القصيدة، وهيكلها البنائي على شرط أن تضل الموسيقى الشعرية، والشحنة الجمالية، والطاقة الأدائية مصونة موفورة على الأقل بحد لا يبقى وراءه إلا الخروج من دائرة الشعر.... دون التزام مسبق بقافية أو بحر أو أسلوب معين. ولكنه أي هذا الشعر في المضمون يعكس ويحاول أن يعكس إرادة التحرر والتسامي لدى الجماهير المظلومة، ويعبر أو يحاول أن يعبر عن التيار النض إلى الذي تنتمي إليه اجتماعياً وموضوعياً هذه الفئات البروليتاريه الكادحة " ص60.

والواقع أنها دعوة إلى التحلل والتحرر المؤدي إلى البلبلة الشعرية التي يئن منها كل إقليم حتى أن الفرقاني نفسه لم يرض بالنتيجة والانحلال الشعري الذي هيمن على الشعراء الشباب في السبعينات نظراً للتأثير بالسلبيات الفكرية والمادية التي طوقت المغرب حين يقول: " و الواقع أنه في عصر التحلل والانسحاق، وفي ظروف الفردية والتقوقع المصلحي المدمر، وفي وقت تميعت فيه الفكرة والكلمة، وانحسرت الفنون عن موقعها الإنساني وفي غياب الحصانة الفنية والنقد الأدبي الصارم والصريح... كان الشعر قد وجد الفرصة بدوره للتحلل من نفسه ومن معاييره الفنية، وانفتحت الساحة على مصاريعها للهذيان السائب، ليتقدم على إنه فن وإبداع، فترامت إلى السوق على التو إلى سلسلة دواوين " شعرية " (ولو أنها تعطي صورة شكلية ظاهرية على النماء والإخصاب في حقول الشعر فإن الكثير منها، يتميز بالضحالة والهزال، وبالتحلل السائب والغموض البرقي الهارب من هذا البوهيمي المتفكك السالف الذكر"[2].

---

(1) دخان من الأزمنة المحترقة 60

(2) المرجع السابق ص69

ولم يقف الفرقاني على تحديد المشكلة وإظهاره بمظهرها المتجلية فيه وإنما أخذ يعـالج التردي الشعري بمعالجة واضحة مبنية علـى أسـس قويـة حـين يـرد علـى أولئـك المـتحللين " فتصوروا أن انهيار العمودية التقليدية في الشعر قد اسقط كل الحواجز دون الـدخول " المجـاني " إلى الساحة الشعرية وقد ترك الانخراط في الرسالة الفنية والفكريـة للـشعر دون خـصائص أو قيود وأصبح بإمكان كل " تلقيمـة " اعتباطيـة بـين الكلمـات أن تكـون شـعراً، ناسـين أنـه إذا سقطت العمودية في الشعر فقد بقيت " الأفقية " فيه شرطاً ذاتيـاً وموضـوعياً في عمليـة الـشعر يجب أن تتكامل بكل مقوماتها الفنية والوجدانية والاجتماعية ليستوي العمل الشعري حينئـذ بخصائصه الضرورية كرسالة إنسانية، وكفن إنساني ينخرط فنياً وعملياً في معركة الحياة"[1] .

والفرقاني يدون تدويناً أمينـاً سـيرة الحركـة الـشعرية في بـلاد المغـرب العربـي تلـك الدوحة العربية التي استلمت زمـام الحركـة الأدبيـة في بعـض مراحـل التـاريخ العربـي كمـا سجلت في ثنايا رحلات علمائها كثيراً من التاريخ والقيم العربية، والفرقـاني يـرى أن الـشعر في المغرب العربي يفتقد الاحتضان الفني فحيل بينه وبين العالم العربي في أوائل العصر بـبرزخ من الاستعمار، وتأخرت فيه إحياء التراث، أضـف إلى النمـوذج الفـني الآتـي مـع المـستعمر الذي له دور كبير في احتـضان كـثير مـن الأدبـاء في بلادنـا المغربيـة وعلمهـم لغتـه وطـبعهم بطوابعه الفنية، فضلاً عن المجاورة وسهولة تـصدير الفكـر المقـصود عـبر الحـدود المتلاصـقة، وكذلك الفقه وطلـب العـيش الـذي دفـع بأعـداد كـبيرة مـن المناريـة إلى الهجـرة في الـدول الأوربية، كل ذلك كنيل بالقضاء على الأدب في تلك البلاد الحبيبـة ولكـن الجـذوة القويـة لا تنطفي فقد حدا الأدباء على أن ينهـضوا بـالفكر والأدب في أرضـهم ومـن واقـع مجـتمعهم، وتجسدت التيارات الأدبية بجلاء ووضوح في نتاجهم الشعري فمنهم الملتزم بالأصالة الـشعرية في جميع مناحيها ويغلب على هؤلاء التزام بالفكر الإسلامي في مضامينهم، ومنهم الـذي نجـد معجمه الشعري ينتسب إلى اليسار الماركسي من حيث المعالجة والألفاظ لا من حيث المعتقـد فإننا لم نبحث عنه ولا يُعنينا في هذه الدراسة ولكن من حيث الشكلانية والـدعوة إلى التمـرد وقد نجد من هذا شيئاً في شعر الفرقاني نفسه.

---

[1] دخان من الأزمنة المحترقة 77

ومنهم من التزم بالتفعيلة وصاغ منه في قوالب شعرية حديثة مع الوضوح والمزاوجة بين التقريرية والرمز والأسطورة أحياناً كثيرة، وشريحة أخرى عانقت الحداثة صاحبت الحرية اللا متناهية فأعرضت عن الأصالة الفكرية والفنية معاً وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين فئة استحدث منها من الواقع الشعبي فاقتبست من الألفاظ الدارجة وطعمت بها شعرها وفئة أخرى عانقت الغموض وجعلته الحلة الزاهية لتجاربها الفنية – وتعقبت مدرسة (شعر) وتابعتها واعتنقت مذهبها.

النقد في بلاد المغرب العربي

الأدب هو التكوين الإنساني بفكره وأحاسيسه ومشاعره وثقافته بل وروحه ونفسه متفاعلاً كل ذلك من تكوينه الجسماني والأدب هو سجل التاريخ البشري عبر القرون والأزمان، وهو يصوره في كل مكان، ويحمل الأدب مراحل التطور الحضاري والثقافي وكانت غريزة حب الأدب من الغرائز الذاتية في كل فرد يقول العقاد:

والشعر ألسنة تفضي الحياة بها — إلى الحياة بما يطويه كتمان

ما دام في الكون ركن للحياة يُرى — ففي صحائفه للشعر ديوان

والنقد صحب الإبداع منذ الأزل فهو ربان السفينة الإبداعية يشذ بها ويصنع مساميرها ويثبتها والنقد هو الذي يجدد معالم سفينة الإبداع حتى تتلائم مع الحالة المتطورة التي تواكب تطور الحضارة والفكر، وكل ذلك بصناعة اللغة فما أعظم اللغة فهي التي حظيت بالدراسات الفلسفية والفكرية والآن في محاضن اللسانيات والنقد يتعلى فوق تلك الدراسات بأسلوبه وأسلوبيته وبلاغته وما لا نصل إليه.

إن الحديث عن الأدب و النقد لا حصر له ولذا نقطف من أحد فروعه أو غصن من أغصانه ونخص الأدب العربي الغربي فنأخذ منه باقات من الأدب الأندلسي والمغربي والجزائري والتونسي والليبي.

والثمرة الإبداعية والنقدية التي تتأمل تكوينها هي الأدب الحديث والمعاصر ؛ فالتدرج الأدبي الحديث تشابهت ألوانه وأنواعه مع أدب النهضة في سائر الأقطار والأقاليم.

وكان التاريخ يدون أسبقية الشرق على الغرب العربي، أمّا نحن في هذه الأيام المعاصرة ندون تقدم الأدب والنقد والفكر المغاربي على الفكر والأدب والنقد المشارقي.

فمن لا يدرك أثر المغاربة أجمع على الفكر فهذا مالك بن نبي وعلال الفاسي وهذا العروي، ومحمد عابد الجابري، وأركون، والحبيب الجنحاني ومحمود المسعدي ومحمد

العروسي المطوي. ومن النقاد المعاصرين محمد مفتاح هذا الـذي تمثـل توصـيف النقـد الـذي أطره حيث يرى أنه لابّد للناقد من معرفة اللغة بألوانها وأطيافهـا واللـسانيات بأنواعهـا، ثـم يترقى إلى الأسلوب والأسلوبية ثم يقرأ التاريخ ونظريـات علـم الـنفس والمجتمـع ومجريـات الثقافة والحضارة وقد تدرج مفتاح حتى بلغ أعلى هذه المراحل.

إن الأدب المغربي أضحى مثل جبل طارق المطل علـى أوربـا وعلـى العـرب وعلـى المحيط الأطلسي فيرى هذه كالنسر حين يعلو ويرى الكون من تحته، وقد أهلهم هـذا ليقطفـوا من تراثهم العربـي ومـن جيرانهـم الغـرب فيمزجـوا بـين الإبـداع ويقـارنون ويفيـدون مـن النظريات الغربية فبنوا التكوين الذهني والمعرفي لديهم وطوروها بالنظريـات واللغـة، فكـانوا هم السباقين على تـرويض الألـسنية، وهـم الأكثـر ترجمـة للنظريـات النقديـة وهـي الإدرك للمصطلحات بحكم معرفتهم باللغة الفرنسية.

منذر عياشي

قدم الدكتور منذر عياشي عدداً مـن الأبحـاث وخـاض جـدل النقـاش في المنتـديات والمؤتمرات، وترجم بعض الأبحاث التي تكـشف عـن جـذور النظريـات النقديـة وقـد تـرجم كتاب " مفهوم الأدب " تزيفتان تودوروف.

يحاول العياشي أن يتداخل مع التنظير اللغوي والنقدي المتمثـل في اللـسانيات، وقـد استحوذت تلك النظريات على جلّها الأبحـاث اللغويـة واسـتجابت بعمـق للـدرس النقـدي يدعم ذلك تصدره للترجمة وهو وغيره مـن الأسـاتذة المغاربـة هـم أكثـر تواصـلاً مـع اللغـة الفرنسية وأدرى بخصائص دلالاتها ثم نقلها إلى العربية يقول المترجم في مقدمتـه: لقـد رأينـا ارساء قواعد جسر يصل الفكر النقدي العربي المعاصر ببعض ملامح أكثـر التيـارات تجديـداً في الفكر النقدي الغربي، ألا وهو النقد اللساني، وهو نقد كما يتبين من مسماه يقـف وسـطاً بين نظرية الأدب ومنهج الدرس اللساني المعاصر[1].

---

(1) مفهوم الأدب، منذر عياشي 5

وقد ألف الدكتور منذر عياشـي كتابـه "العلاماتيـة الـسيميولوجيا، قـراءة في العلامـة اللغوية العربية"، وكشف في كتابه عن وظيفة العامل والـسياق وعـن الوظيفـة المرجعيـة وعـن صورة المرسل وأثر الانفعال والتعبير ثم كيفية الوقع على المتلقي، وكون الانطباع من المرسـل ومن المتلقي وأثر العلاقة الدلالية في السياق. وهـل تكـون الرسـالة وصـفية ثـم يقـف علـى" الوظيفة الشعرية فيقول: وهو وإن كان لا يخلو من التنظير، فإنه إلى النقد التطبيقي أميل، هنـا يصبح العمل النقدي قراءة في نص لا تقل المتعة فيه عن الـنص الأول، هنـا يتـداخل المتنـافر، وتنعقد صلات القريب والبعيد، وتتراحـم الأضـداد، وتتجـاذب النقـائض، فـإذا بالمتعـة لـذة يكشف فيها النص لا عن سر من أسرار الكاتب فيه، ولكن عن لغـة تجعـل المـستحيل ممكنـاً، والمحتمل بديلاً عن الواقع[1].

قد لا نجد سؤالاً أكثر انتاجاً من سؤال الوظيفة الشعرية عـن نفـسها وعـن سماتهـا. ولذا تجدنا نقول: ما هي الوظيفة الشعرية، وما سماتها؟

تغطي الوظيفة الشعرية حيزاً واسعاً من عمل اللغة، ولـيس حيـزاً ضـيقاً، كمـا يحلـو لبعضهم أن يـرى. ألا و إنـه لم يعـد تـضييقاً لواسـع، أن نـربط بـين الـشعر والـشعرية مـثلاً، مأخوذين في ذلك بالعلاقة اللفظية والصوتية الـتي تقـوم بينهمـا. أمـا خـلاف هـذا، أي عـدم الربط بين اللفظين والاتساع بعمـل الـشعرية ليغطـي ضـروباً مـن القـول وفنونـاً، كالروايـة، والمسرح، والمقالة، والـشعر طبعـاً، فهـذا يوسـع ضـيقاً ويتفـق مـع مقتـضيات هـذه الوظيفـة ومطلوبها.

ولقد نرى أن هذه الوظيفة، ونتيجة لأنها تغطي من حيز القول واسـعاً، فهـي تـسمى أيضاً الوظيفة الجمالية. ولعله مما يؤكد هذا أن موسوعات مصطلحات علم الجمال قـد تبنـت هذا المفهوم، وأفرد له بعضها عدة صفحات[2].

---

(1) مفهوم الأدب، منذر عياشي 7

(2) منذر عياشي، العلاماتية 14

الصادق بن الناعس بن الصادق قسومه

قام بترجمة كتاب "مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي" وتمّ طباعته في مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وهذا يشير إلى التحكيم والفحص قبل الطباعة، فالجامعة تمحص الفكر الذي يدور في فلكه الكتاب يقول المترجم: (مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي) الذي أعده (دانيال بارجاس، بيار بربريس، بيار مارك دي بيازي، مرسال مريني، جيزال فلنسي) وأشرف عليه: دانيال برجاس وترجمه: د. الصادق بن الناعس بن الصادق قسومه الأستاذ المشارك بقسم الأدب بكلية اللغة العربية في الرياض[1].

ويعرف الكتاب كثيراً من نظريات النقد واتجاهاته ومناهجه ويضم الكتاب أبحاث " إن كل بحث من البحوث التي تكوّن هذا الكتاب متّسم بالدقة ووضوح المنهج لجمعه بين الجانبين النظري والتطبيقي ولقيامه على التفكير و التحليل وإثارة أبرز القضايا ولإيفائه بأهم ما يحتاج إليه الباحث العلمي الجاد: ففي كل قسم نجد مذهبا نقديا يُستهل ببسط ظروف نشأته وإطارها التاريخي، ثم نجد عرضاً لأبرز العلامات والهوادي والأعلام خلال مراحل تطوره الكبرى[2].

وقد اهتم الدكتور عبدالقادر قنيني بالدلالة فترجم كتاب " نظرية علم الدلالة " السيمانطيقا " لمؤلفه راث كيمبسون، والكتاب يتحدث عن تفسير الدلالة للفظ والجملة وقيمة الدلالة وقضايا الاستعمال يقول عن طريق الدلالة: وهناك ثلاث طرق أساسية حاول بها علماء اللسانيات والفلاسفة أن يصيغوا تفسيراً للدلالة في اللغة الطبيعية:

أ- تقوم هذه الطريقة على تعريف طبيعة دلالة اللفظ.

ب- وتحاول الثانية تحديد معنى الجملة.

ت- وتذهب الثالثة إلى تفسير عملية التواصل.

---

(1) الصادق المهدي، مدخل إلى المناهج النقدية 5

(2) المرجع السابق 8

وهكذا يتبين أن الطريقة الأولى تؤخذ فيها دلالة اللفظ، باعتبارها في تركيب بموجبه يمكن أن يفسر معنى الجملة والتواصل، وفي الطريقة الثانية يكون معنى الجملة هو الذي يؤخذ كقاعدة وأساس لتخريج دلالات الألفاظ بسبب ما تتصف به من مساهمة مطردة في تأدية معنى الجملة. وفي الطريقة الثالثة يفسر اللفظ والجملة معاً حسب الأساليب التي استعملت فيها الألفاظ والجمل لفعل التواصل"[1].

سعيد يقطين

من أشهر النقاد الذين تواصل نقدهم وتطور فكرهم النقدي الدكتور سعيد يقطين. والدكتور سعيد يقطين درس في جامعات المملكة، وتواصل مع الأدباء والنقاد وحضر عدداً من المؤتمرات والملتقيات. وقد اهتم بالنص وتحليله، وقد حاول الكشف عن نظريات النص وتجلياتها الاجتماعية والنفسية من خلال بنية النص ودلالته، وقد أخرج كتاب " انفتاح النص الروائي " فعرف فيه النص، وأبان عن خطاب النص وعن النص ونظرياته ثم طرح نماذج التحليل النص.

بشرى موسى صالح

والنقاد في بلاد الغرب العربي حاولوا إثراء النقد العربي من خلال ترجمة المصطلحات التي لها عمق نقدي وكذلك ترجموا النظريات النقدية الحديثة مثل نظرية التلقي، فقد ألفت الدكتورة بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول التطبيقات. وأول نظرة لها جاءت لتتعانق مع ملامح النظرية عند النقاد العرب الأوائل فهي جعلت ابن طباطبا مثالاً تنظيرياً وكذلك الأمدي، والجرجاني، وتواصلت مع المبدعين العرب ومنهم نازك الملائكة ونزار القباني.

---

[1] راث كيمبسون، نظرية علم الدلالة، ترجمة عبدالقادر قنيني

الأدباء التونسيون

من أوائلهم الشاعر العالم أحد شيوخ جامع الزيتونة، العربي الكبادي(1880–1961) وكان له دوره التعليمي ومارس الكتابة الصحفية، ونشر شعره الذي يمثل المرحلة الأولى للأدب التونسي الحديث. ومن الأدباء والنقاد والروايين(الطاهر البكري، نشر شعره في دواوين حارث الشمس، ونشيد الملك الضليل، والقلب يرتاد البحار، وقصائد مزدوجة، وقصائد إلى سلمى)، وله أبحاث كثيرة.

ومن الأدباء محمد العروسي المطوي، وهو الأديب، والمؤرخ واللغوي والمثقف قرأ له الأدباء العرب في كل أقليم، وهو محقق لكثير من الكتب التراثية.

ومن تونس انطلق الناقد الباحث المفكر محمد صالح بن عمر المولود بقرطاج عام 1949 م وقد حصل على الدكتوراه وهو مؤرخ تونسي وكتب عن تاريخ الأدب التونسي وعن رجال الأدب والفكر والإعلام.

وقد اهتم عبدالرحمن أيوب بصفاقس 1948 م بالأسطورة الهلالية مثل الطاهر قيقة الذي اهتم بسيرة بنى هلال وهي ضرب من الأدب الملحمي.

وقد كتب الدكتور محمد صالح الجابري المولود عام 1940 م، عن الأدب الجزائري ومن كتبه الشعر التونسي المعاصر 1974م والقصة التونسية 1975 م وجمع الشعر التونسي في كتاب ديوان الشعر التونسي الحديث 1976 م.

ومن المثقفين العرب الدكتور محمود المسعدي المولود عام 1911 م تولى بعض الوزارات وعمل في الجامعة العربية وله حضوره في المشهد الثقافي العربي وقد جمع عثمان بن طالب أكثر أدباء تونس في كتابه مختارات تونسية في النقد والفكر.

جميل حمداوي

اهتمت المؤسسات الأدبية والثقافية بالنظريات الفلسفية والفكرية والمناهج ليكون التلاقي والتعانق بين الثقافات، ولما كان أدباء الغرب العربي مكان ثقة لتواصلهم بالجوار ولمعرفتهم باللغات الأوربية فإن رجال الفكر والأدب شجعوا على طباعة الكتب ذات القيمة المعرفية والثقافية وقد طبع النادي الأدبي بالقصيم كتاب (مناهج النقد العربي الحديث والمعاصر) للدكتور جميل حمداوي عام 1430 ه 2009 م. ويحتوي الكتاب تعريف بالنقد ومناهجه، ويقف عند القراءة والتلقي والتقارب النصي وآلياته وكذلك تحدث عن المنهج السيمائي ودلالاته، والمنهج الأسطوري البنيوي التكويني، والمقاربة الأسلوبية وعرج على النقد البيلوغرافي يقول عن الرواية التجريبية: يمكن القول بأن المستنسخ النصي بدأ مع الرواية الجديدة التي أكثرت من استعمال الشواهد والمستنسخات والكليشيهات التناصية والإحالية تأثراً بالشعر الحر مع بدر شاكر السياب وخليل حاوى ومحمود درويش ونزار قباني، وتأثراً كذلك بالرواية الغربية والنقد الأدبي المعاصر عبر تطور مدارسه مثل الشكلانية الروسية، وخاصة ميخائيل باختين صاحب البوليفونية ونظرية التناص، وجماعة تيل كيل التي كانت تدعو إلى الانفتاح النصي من خلال التفاعل الإحالي. وما يلاحظ على هذه الرواية أنها اعتمدت على مستنسخ تناصي يغلب عليه الطابع الحداثي التغريبي من خلال التأثر بالرواية الغربية في البناء النصي سواء على مستوى تشكيل الجنس النصي أم على مستوى بناء النوع وصياغته تناصيا.

لغة الشعر

تشكلت لغة الشعر في أحضان المجتمع العربي وما صحبها من التعليم في المساجد والتعليم في الكتاتيب، ثم مواصلة التعليم الشرعي والأدبي، وسائر العلوم في المدن والمساجد المدرسية الكبرى وهذه له دورها الكبير في معجم اللغة الشعرية والأدبية في مستهل النهضة في بلاد المغرب فجل الشعراء من طلبة العلم والعلماء، فهم يدعون إلى الإصلاح للبناء واتحاد الأوطان. ويدعون إلى صلاح القيم، ومحاربة الفساد. ونحن لو استطعنا أن نجمع حقول اللغة الدلالية في المراحل الأولى لتبين لنا كم هائل من الألفاظ التي تمت إلى الدين، والقيم في سائر الدول العربية، ولو استطعنا أن نجمع مضامين الدلالة لتكشف لنا كم هائل من المعاني الإسلامية الإنسانية بل أكثر الشعراء من طلبة العلم الشرعي ومن العلماء في المساجد والمدارس العربية وكذلك من الطرق الصوفية، قال الشاعر الجزائري محمد بن دويده عن المقاومة الشعرية:

شوقي إليك وإن قصَّرْتُ في كلمي — أهْدي تحيّةَ شعب لجّ في نَصَبِ
شعب ثـو إلى عليه الخطب يفجعه — في كل يوم بأنواع من العَطَب
فلم يزل وصُروفُ الدهر تؤلمه — بين المخاوف يشكو حمْلةَ الغَلَب[1]

فأنت ترى أن مكونات اللغة من المتوارث الشعبي الذي يدركه كل عربي فاللغة وليدة العلوم الشرعية والجهاد الإسلامي. قال الشاعر الجزائري رمضان حمودة:

الله أكبر نجم العرب قد سطعا — وبات دين الهدى في الأرض مرتفعا
فتح من الله و النصر المبين أتى — فحقق الله آيات بها صدعا
في الشرق قاطبة سر الحياة نما — وكان فيما مضى بالذل مقتنعا

---

[1] نور سلمان، الأدب الجزائري 109

من جانب الشرق من قلب الجزيرة **من مهد النبوة قوم بدرهم طلعا**

أحيوا معالم دين الله و انتقموا **من كل من ضيع الإسلام وانخدعا**

و طهروا تربة للمسلمين غدت **أرضا مقدسة فيها الهدى شرعا**[1]

التحم العرب شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً لنصرة الدين ولنصرة الأوطان ولمحاربة الأعداء الغزاة، وهم يتمنون القوة التي تتشكل جديدة تحمل راية الإسلام والعروبة فلما ظهر الملك عبدالعزيز بن سعود في الجزيرة العربية علقوا أمالاً عليه وقالوا عنه نجم العروبة بل بعض الكتاب تمنى أن يكون قائداً للأمة الإسلامية.

يمتلك القبائل في بلاد المغرب ثروة من الألفاظ العربية بل الصور العربية القديمة والألفاظ المرتحلة مع الارتحال القبلي والمتواصل مع الحروب، وقد اتجهت إلى تصوير مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي يقول أحد أعيان قبيلة أولاد عمر عام 1860 م:

يا راعي الملجوم أم هل لي **وعودك من الأبعاد جاء عرقه يقطر**

تعلميني ما صار في الحضينة **فيما بين الناصرة وأولاد عمر**

خبر جاني مع النجوح الحق لي **وحرمة الأبطال عامت على البر**

ضاعو لي سادات طلباء سنية **ذرية رحاب شريف من النبي الطاهر**

هم راحوا وفي فؤادي جات كية **وفرسان المحمول ستين بعدماية قادر**

باعو الحياة من دار الدنيا **قصدو الجنة للمقام الأخضر**

يا ركايز عرشي وستار الشرقية **وبعدما صدروا الوطن راح وكفر**

بيوت المجبور أهلهم غوثية **ونلقى السوق عليهم ديماً عامر**

يا من قليل ماله سنديد **والذي يحيى تعبان عيان مسافر**

جميع القيم والناس العمياء **والذي يروح ضيف يأكل ولا يتعذر**

---

[1] نور سلمان، الأدب الجزائري 150

يمشون الطريق مع الشرعية ويعرفون الله الواحد القادر[1]

واللغة الشعرية تمازج فيها لغة التعليم الأولى مع لغة القبائل الذين جمعتهم الألفاظ الشعرية ودلالاتها المضمونية إلى جانب التفاعل اللغوي القديم بين القبائل ثم الانحياز باللهجة الخاصة بالأقاليم والجنس العربي والبربري. وقد غلب النداء الوطني ويكاد أن يوحد اللغة فالشاعر محمد الحاج يقترب من اكتمال اللغة العربية عندما يشدو بالشعر الوطني يقول من قصيدة عام 1857 يصف فيها اجتياح الفرنسيين للجزائر:

الأولياء اختفوا من عندنا
الروم قطعوا أشجار الفاكهة
القلم انكسر
القبائل هُزمت وشُردت في الغابات
المسجد هدم. هذا الذي بناه الأتراك جميلاً عالياً
حولوه إلى قطعة من حجر
لقد هدموا قبور الأولياء[2]

فلغة الشاعر الشعبي مستمدة من العربية فلا تكاد ترى فيها عامية أو دخيلة بل إنه شعر معاصر، فالشاعر نقل الشتات القبلي في الصحراء والبراري نتيجة الهجوم الفرنسي على البلاد.

وأثرت الحرب على تنامي ألوان الشعر فقد ظهر الشعر الحر عند الجزائريين مبكراً بل هو يمزج بين الشعبية والعربية والعامية وربما أنه يمثل بداية الشعر الحر فهو قبل عام

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 201

(2) المرجع السابق 219

1970 م – 1971 م، ولعل الشاعر اغترب عن بلاده ونال حظاً من الثقافة الأوربية فقال هذا الشعر الحر و عبّر عن أحوال المغتربين:

زغردن يا نساء زغردن
يا نساء بني يعلى إن عهد الحرية قد أقبل
لقد سكتت المدافع
لم يبق في البلاد نصراني واحد و انتهت المعارك
سقط رجال شهداء
لا تخلعوا أنعالكم حتى النهاية... [1]

ولغة الشعر لغة منفعية فهي تحمل هدفاً، وهي إصلاحية تعليمية وهي لغة محاكاة للواقع مستمد منه تسير في ركاب الشعبية وليست العامية هي المهيمنة، وإنما العربية لها السلطة ولها النفوذ، واللغة العربية هي القاسم المشترك للبلاد المغربية ولهجاتها محصورة في حدود أقاليمها، ولا ضير في ذلك ما دام كل فرد يتواصل مع العربية، وربما تداخلت ألفاظ من اللهجات مع نمط شعري مثل أشعار الأناشيد، والشعر الغنائي، والشعر الانطباعي والشعر الحماسي ويقيس الشاعر كثير من الألفاظ الأعجمية سيما أسماء الآلات، مثل الكهرباء، وأسماء الأجهزة الجديدة، ويضم المعجم الدل إلى للغة كثيراً من مجامع الفكر والروح الاجتماعية والوطنية والقضايا الإنسانية. فالديوان المغربي العربي يضم بين جنابته وصفحاته هم الأوطان وحب الصحراء، والهاجس الديني، والتعانق مع الوطن، والتلاقي العربي وقوميته، وكذلك الواقع الاجتماعي الذي يطلب الإصلاح التعليمي والسياسي والاجتماعي وتتشكل فيه سبل الإصلاح و طرائقها وتتبلور في ذلك الاتجاهات الفكرية، إن مضامين الشعر العربي المغربي هو مجمع الدلالة المعجمية والفكر والمضمونية بل مجمع اللغة

---

[1] نور سلمان، الأدب الجزائري 216

والمصطلحات العربية. وقصيدة (علال) للشاعر عز الدين الإدريسي تجمع شتات مضامين الشعر المعاصر العربي المغربي:

يا زعيم الوطنية والجهاد الأكبر
يا رائد الحرية والاستقلال المنشود
وجهت نداء الكفاح منذ نعومة الأظافر
وقدت جموع الشعب للنضال
ضد حصون الاستعمار الغاشم
مرددة شعارات المجد والبطولات
وهاتفة للحرية والدفاع عن المقدسات
لم تهب نير الطغاة الظالمين
ولا تراجعت أمام مد الحاقدين
واستبسلت في معركة الشرف والفداء النادر
أبعدوك يا علال عن مغاني الوطن
عسى أن يخمدوا ثورة الأمة الجامحة
ويسكتوا صوت الحناجر الملتهبة
ويطفئوا لهيب النار المتأججة
في نفوس الشعب المتعطشة الثائرة
لكن اسمك ظل رمزاً الجهاد والثأر
وأحرفاً من نار تُذكي حماس الشباب
ومن منفاك السحيق ب" الغابون"
أطلقت صرخة حمل السلاح
وفداء الوطن بالدماء و الأرواح
واسترخاص كل غال

في سبيل نصرة الحق
وحمي وطيس الجهاد والشهامات
وامتدت يد القهر إلى مليك البلاد
رمز السيادة وحبيب القلوب
فكان " نداء القاهرة " لفك الأسر
ورفع الضيم وغسل آثار العار
وتلقين جيوش الاحتلال الدخيل
بأن أبناء المغرب نسور الأطلس
لا يرضون بالذل والهوان
ويحمون تراب البلاد بالبأس الشديد
ويفدونه بأرواحهم النضر
ورفرفت أعلام السؤدد والنصر
في سماء الحرية والانعتاق
وتهلل وجه البلاد بالسعد والأمنيات
وعاد مليك البلاد إلى عرش العز والفخار
موفور الكرامة، مرفوع الرأس
فرضيت الرجوع إلى مغرب المكارم
وموطن العزة والشهادة والجهاد
لتُعانق إخوة الكفاح والطريق
أبناء شعب المغرب الأصيل المرابط
للدفاع عن حوزة البلاد وصون الشرف
خُضت غمار كفاح جديد مرير
لبناء صرح المع إلى والعز والمفاخر
منادياً لنسيان العداوات والأحقاد

وتكاثف الجهود والطاقات
وتحرير الإنسان من كل الأغلال
ونشر ألوية الشورى والعدل
وتحقيق أسس التعادلية والإنماء
ودحر مخلفات الماضي والجهل
وإشاعة أنوار الثقافة والعلم
في أرجاء البلاد التواقة للخير
وكسب معركة التطور والرفاه الزاهي
وهبت نفسك للعلم والأخلاق تنشرها
وللفكر، أقمت منارات من العرفان
ومنابر الخطابة لا زالت تصدح بفصاحة البيان
وبديع القول ومأثور الكلام والدرر
وشيّق الشعر والأبيات كأنها عبيق الزهر
فاح شذاه في رُبى وهضبات الأطلس[1]

[1] عز الدين الإدريسي، إشراقات 30-34

الفكر في المغرب

يتشكل من واقع الأوطان وثقافاتهم، فإذا جمع الوطن حدث كبير مثل الحرب والاستعمار والجوع والفقر والاستبداد، والافتراق فإن هاجس الأمن والوحدة والإصلاح هو الذي يستحوذ على كل فرد ويلهم المبدعين من الشعراء والكتاب والقاصين بل سلاطين المجالس والمنتديات في الأحياء ومجالس القبائل، وقد جمع الاحتلال الفرنسي روح الانتماء والفداء في الشعوب في دول المغرب العربي والمتلقي للشعر إبان تلك الفترات يدرك هذا التلاقي فشعر كل شاعر إنما هو يحمل فكر كل مواطن يقول الشاعر سي موحند:

لقد سحت في كل المناطق

والمصير نفسه في كل مكان

والنار نفسها تشتعل في كل القلوب

العالم أنهار فوق أساسه

الموت أفضل من حياة كهذه[1]

وقد تشكلت ظاهرة الفداء من جل الأقاليم وتنادى لها الأعيان، وأمراء القبائل، ورجال الفكر والعلماء وضحوا بأموالهم وأنفسهم فدخلوا معارك الجهاد. وقتلوا ونهب العدو والسفلة أموالهم، وأغرى الأعداء ضعاف النفوس والذين لا يملكون مبدأ الدين ولا العروبة ولا الوطنية وإنما يملكون حب المال لا غير فأغراهم المستعمر ومنحهم المناصب والمكانة العالية.

يقول الشاعر شيخ بن عثمان وهو شاعر شعبي:

---

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 222

أضحت النخبة من الضفادع والسلاحف
وفقدت الثعابين سمها، والعنزة تعيش في العز
بينما الشجعان هنا في الأوصال والسجون[1]

ويقول سي موحند:

هذا الوطن قد تغير كثيراً
لقد أصبح ملك التافهين
هؤلاء الذين كنت احتقرهم بالأمس[2]

وأنت ترى أننا ضممنا هذه الأشعار بجامع الالتقاء في الفكر الشامل لا في الضوابط الجمالية الفنية. وترى أن الشاعر الحداثي يعبر عن هذا الواقع والفكر بأسلوب آخر، قال عبدالسلام بو حجر من قصيدة (الموت في المرأة):

نامت...
رأيت وراء عينيها الحديقة
واشتعال الروح في جسد القصيدة
وآخر الأشعار و الأخبار في وطني
رأيت وراء عينيها تحاباها
لكل العابرين إلى الحياة
لكل ثوري أمين
ولكل سجين[3]

---

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 220
(2) المرجع السابق 221
(3) عبدالسلام بو حجر، أجراس الأمل 51

مع الشاعر المغربي الأمراني

ومن المغرب العربي نلتقي اليوم على مائدة من الموائد الإسلامية التي يقوم عليها ثلة من الكهول وجمع من الشباب فقد حملوا على أكتافهم الأمانة الإسلامية وأرادوا بثها ونشرها بوسائل عصرية حديثة استلهموا التعاليم الإسلامية وانغرس الإيمان في نفوسهم. وادركوا المتشابكات العصرية، وسرعة تفاعلها وسر طغيان الاتجاه المادي، وانحسار الاتجاه الإسلامي، وتخبط المجتمع في بوتقة دائرية متحركة لا بقصد صهره، واستخلاصه وإنما بقصد الضياع والتيه في أمواج تلك الثقافات، وهذه البلبلة الفكرية والثقافية يجتمع تحت مظلتها العالم العربي غير أن بلاد المغرب تأتي في المقدمة للاستعمار الذي خيم عليها وللمجاورة، ولتشعب قنوات الاتصال، ولانتشار اللغة الفرنسية والإسبانية في البلاد مما يمكن من استقبال الارسالات الإعلامية الموجهة في الغيوم المدلهمة التي تكون مهامه رحبة للتيه، والتشعب، والتفرقة ويقف شباب المغرب محاولاً إضاءة المعابر والمسالك بإعلان التحدي الظاهر واستلهم الروح الإيمانية، مع وعي متكامل بالمتغيرات العصرية واستجلاء سلبياتها وموجباتها وكان للأدباء معطياتهم التي لا تنكر على قمة ذلك توظيف الأدب واستلمته، وحماية لغته، ورسم مناهجه، ومحاربة الساقط منه، ومن هؤلاء الأدباء حسن الأمراني ورغم اشتهاره بالشعر إلا أن له مشاركات أدبية أخرى وله دراساته الثقافية النيرة ينشرها عبر مجلة (المشكاة) ويدعو إلى ثقافة مستنيرة بضياء الروح الإيمانية وبلورة العقلية المسلّمة من الشوائب العالقة "نحن بحاجة إلى إعادة تشكيل العقل المسلم" و إلى إعادة تشكيل وجدان المسلم أيضاً فيصحح منهج التلقي، ومنهج الفعل، وهذه عملية بناء تقتضي الفهم العميق لطبيعة الإنسان حتى لا يختل البناء، إننا بحاجة إلى "أنسنة" الإنسان، لا إلى تأليهه على طريقة نيتشه، ولا إلى سحقه ومسخه بأسلوب كاف، وأنسنه الإنسان تقتضي التوازن داخل المتلقى، ولكن تتطلب أولاً توافر التوازن داخل الفعل الثقافي نفسه" 9 المشكاة ع 6، 5 السنة الثانية – شوال 1406 هـ.

والأمراني يرصد المقومات الثقافية والحضارية من الضروريات الإنسانية وأرضيته الواقعية فالإنسان في حاجة إلى دين ومتعه الله بعقل ينطلق منه عبر الأفاق التطورية " فإن البناء الحضاري رهين بفقه الإنسان بشروطه الثابتة وعناصره المتغيرة، الإنسان والزمان والمكان. تلك هي الشروط الأساسية للبناء الحضاري، وكل تحول حضاري إنما هو نتيجة للتوازن الفعال بين هذه الشروط " 9 المشكاة شوال 1406هـ.

وهو يشير إلى دعامتين أساسيتين يقوم عليهما الإنسان هما حركتا التطور والثبات ولا بد من تحقيق التوازن بينهما حتى تستقيما الحياة ويكون التطور، مرتبط بعوامل محورية ثابتة و " كل شيء في حركة ولكنها حركة موزونة مضبوطة لا تحيد عن النواميس التي أرادها الله عز وجل والإنسان ذلك المجهول الذي كلما أزددنا تعرفاً عليه أزددنا يقيناً بما نجهله عنه هو أيضاً في حركة دائبة، ظاهراً وباطناً، ولكنها حركة خاضعة لفطرة ثابتة لا تتغير، إنه منذ استخلفه الله في الأرض له شهوات تشده إلى الطين، وأشواق تتاسمى به إلى الملأ الأعلى والصراع قائم في ذاته أولاً بين نزعة الهبوط والارتكاس، ونزعة التسامي والارتقاء، فالتطور والثبات أذن هما ذانك القطبان اللذان تقوم عليهما الحياة " المشكاة ربيع أول 1405 هـ ص7.

والتوازن بين المتطلبات الإنسانية أمر لازم بالضرورة حتى في الأعمال الفنية " لا غنى عنها لتحقيق " الكتابة " رسالتها، إن التوازن في العمل الأدبي بين القيم الجمالية والقيم الفكرية شرط لازم لتحقيق الغرض أي أن الفائدة والمتعة يسيران جنباً إلى جنب، ولنا في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على ما ذكرت، وحسبنا هذه الآيات البينات من سورة النحل شاهد على ضرورة التوازن بين الفائدة والمتعة "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَد لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (سورة النحل 5-8) المشكاة 10 شوال 1406 هـ.

والشاعر حسن الأمراني له ديوان صغير بعنوان " القصائد السبع " استهله بقصيدة بعنوان " أحلام حفيد صاحب الرأس " وتوجها بآية من القرآن الكريم هي: " لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ

الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّ مَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ".

وتقديم الشاعر بهذه الآية الكريمة يدل على استلهامه الروح الإيمانية الإسلامية كما يبلور موقفه الفكري من القضية الفلسطينية وما طرأ عليها من المعاهدات التي عقدت بين أنور السادات ورئيس وزراء إسرائيل، ولها منحنى آخر أيضاً يوحي بالألمعية والاستشفاف المستقبلي والإحساس بالحدث الطارئ الذي يتمثل في الاتصال الأخير بين ملك المغرب الحسن الثاني ورئيس وزراء إسرائيل وثنى لديوانه بمقدمة شعرية أخرى تتمثل في قصيدة مالك بن الريب:

تذكرت من يبكي علي فلم أجد   سوى السيف والرمح الرديني باكياً

أما قصيدة "أحلام حفيد صاحب الرأس" فإنها توحي بالروح الإسلامية ولم يتناولها عن طريق التقريرية والإثبات والبرهان وإنما كان أسلوبه يتأرجح منها بين الحكاية البطولية القصيرة وبين الإشراقات الإيحائية المؤثرة كقوله:

يا أيها الحلم المدجج بالتوتر والكآبة
القلب منك كتيبة شهباء   زاحفة إلى مدن الدخان
والوجه نهر ساكن القسمات   مضطرم الجوانح
من أي أفق، أيما أرض تفجرت السحابة؟
من أي زاوية تدفق ذلك النبع المحمل بالأمان.
من أي صقع جاء؟

من أي العصور الضاربات دمي المكافح.

عينــاك تــشتعلان مثــل حمــامتين	**غمامتين تغادران غديـة نهـر الرمـاد**
و تـصرفان النـار في أشـلاء موتانـا	**فينـــــــــتفض العبــــــــاد**

وأحياناً يتوجه إلى المقاتل الفلسطيني ويحدث بجدوثته ويحكي حكاوي البطولة ويرسم الواقع الحسي ممتزجاً بالمعتلج النفسي في الجسور والقنوات الروحية بين الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه فأعضاء هذا الجسم يتداعى بعضها لبعض فيعاضد الفارس المقاتل ويشد أزره ويكون قلعة حصينة خلفه لذا فإنه يضيف الفارس إلى ياء المتكلم وفي هذا ايحاءات جميلة:

لي أخوة يحيون ما بين الرصاصة والرصاصة

بين شد القوس والسهم المسافر نحو صدري

بين مطرقة و منجل

لوددت أني الآن أقتل ثم أبعث ثم أقتل

ثم أبعث ثم أقتل

فتأهبي

يا خيل ربي اركبي

يا فارس النبوي، لو ترك القطا

يا فارسي الأمثل

عرفتك في مواسم خصبك الأول

عرفتك قبل أن ترحل

صـلاة تعـبر الأمـواج مـن أدنـى	**حدودالمغرب العربي خاشعة إلى الأقـصى**

تقضي السجن و السجان
تنبض فيك مشكاة الصحابة
تركب الأمواج دون شراع
عرفتك: صوتك الفواح يأتيني
على ظهر الجريدة
في قصائد شاعر ملتاع
ومن صبوات هذا الشعب يدنيني
تجلى القلب جسراً

يحمل (الزيتونة) الخضراء مـن شـوق إلى مكناســــــــــة الزيتـــــــــون

وانظر إليه كيف يستلهم الحضارة الإسلامية ويجعل منها حضوراً دائماً رغم النـوازع والمغريات فليل باريس و جمالها ومغرياتها لم تحجب عن الـشاعر التـاريخ المجيـد الـذي صـنعه أبطال المسلمين على مشارف فرنسا بقيادة البطل الشجاع عبدالرحمن الخافقي وكان يقارن بين هدف الجند العربي المسلم في ذلك وبين العربي والمسلم الذين يعجون في باريس وشـتان بـين الهدفين فإنهما في أغلبهما لا يلتقيان:

لباريس لون التوجس، واللحظة الجارحة
ورائحة الرعب، والطعنة الغادرة
وهوى يتسلق في غفلة
طفلة تتساقط كالتوت، في العاشرة
لباريس رائحة ما لها رائحة
ولون تناثر من غير لون
وأنا أيها الغافقي
أيها الفاتح العربي

احتمي حين يأتي المساء بأغصان ظلك
كانت سماء المدينة تلبس لون الجراح
وكانت سماوات روحك زرقاء
زرقاء كالبرتقالة
أنت لم تتبطن بها كاعباً أو غزالة
أنت لم تتبن بها غير جرحك
غير غزالة شعبك
وأنهار حبك

وأختم الحديث عن هذه القصيدة المتلونة الشكل المتوحدة المضمون بهذه الأبيات

نحـــن في المـــشتاة نـــدعو الجفلـــى	**مـــن يهـــود ومجـــوس وعـــرب**
وفلـــــسطين كتـــــاب مـــــشرع	**زبرتـــه فـــاس مـــن ماءالـــذهب**
وفلـــــسطين خـــــوان رائـــــع	**فَهَلُمّـــوا ياســـراة يـــا نجـــب**
ليـــت أشـــياخي اســـتجابوا دعـــوة	**إنمـــا الخـــائن مـــن لم يـــستجب**

أمّا القصيدة الثانية فقد أختار لها عنواناً " مشهد من مكابـدات العـز بـن عبدالـسلام " والأمراني لم يسرد قصة العـالم سـرداً قصـصياً، أو يقـرر حكايتهـا تقريـراً أو يتتبـع منطقيتهـا وبراهينها غير أنه أستوحى المضامين وصاغها في شـكلانية عـصرية مـستعيناً بـبعض الألفـاظ والآراء الثائرة للعالم العز بن عبدالسلام ومنها:

ارفع بذاتك مئذنة
تمنحك أول طلقة للرفض
أول خطوة لتقول: لا

يا أيها الشهم الهمام

يا من إذا غنى أتته الشمس راكعة لديه

....

اسطورة تهوي إذا ارتفع الآذان

وكان حزني في الملمات العلامة

لن تستبيح مرابع المستضعفين

فـــإن للـــــضعفاء ربـــــاً   إن للــــــــضعفاء جنــــــــداً

يا أيها الوهم المفدى

ذهـــب الـــذين أحـــبهم   وبقيـــت مثـــل الـــسيف فـــردا

وثالث قصائد الديوان تحت عنوان "كتاب الخروج" وتمثل نزف من نزيف الأمة العربية التي تئن من وطئة الحنادس والحروب التي تفتك بالأمة ويتفاعل بصفة خاصة مع حادثة الخروج الفلسطيني من بيروت أثر الحرب مع الإسرائيليين:

أصداء موت كان. ظل بيارق منكوسة

وقصيدة في الأفق تصدأ عنكبوت

يسطو على التاريخ، يقتحم البيوت

لا تسألوا عنا، فنحن بألف خير

ليس يعوزنا سوى أن ترفعوا عنا وصايتكم

-   أياديكم.

لنغدو مثلما الأسماك تسبح في محيطات

بغير مدى

لتعبر هذه الأطيار بحر الموت و الظلمات

- نحو الفجر

أسطورة بيروت ملحمة

دم الأطفال في عرصاتها زيت يضئ

ويد وبضع بنادق مرفوعة

وقصيدة في القلب تهزأ بالذين تخرصوا

هو لن يجيء

وله قصيدة القصعة وفيها يقول:

أيها الطالع من نهر الرماد

وعلى جبهته السمراء جرح الكبرياء

أيها السابح كالبرق على ظهر السحابة

أيها الساكن بين الغمد والسيف

بين الوتر المشدود والسهم

أيا من شمسه صاحت بأعناق الجياد

من سيطوى طيلسان الحزن

من يمحو الكآبة

عن قرى المستضعفين؟

وفي آخر قصائد الديوان "الشمس مقبرتي" تسمع أنين الحزن يجلجل من خلال أقواله على الواقع المرير الذي يعاني منه الوطن العربي يشعر بالمسئولية شأنه شأن غيره من الأدباء والمبدعين الذين يلهثون وراء الحق والخير والجمال وينشدون الحقيقة يقول:

هدني الحزن يا صاحبي واشتياقي

وأنت تغني مواويل قبل السفر

قلبي الآن مملكة دون تاج

ووحدة بوابة للسحائب أنا وآمنة للعذاب

فأدخلي أيتها الريح غاشية واغسلي بالتحول

وجه بلادي

أيتهـــا الـــريح إنـــي أغـــني أغنيـــك حتـــى تـــردى الجـــواب

من هذا الحزن الوطني انطلق علال وهبي يقول عن حسن الأمراني "أن الحـزن الـذي يتحدث عنها لشاعر حسن الأمراني ليس حزن ذاتياً، وإنما هو حـزن إنـساني يحملـها لـشاعر على أكتافه لأنه يحمل هموم بني وطنه ويحمل قضاياهم ومشاكلهم".

ومن خلال دراستنا واطلاعنا على المحتوى الفكـري والثقـافي للأمرانـي نجـده يحـس بأحاسيس وطنه المغرب والأمة العربية وكثيراً ما يتجاوز ذلك إلى الواقع الإسـلامي وتنطلـق الإشعاعات والإضاءات الإبداعية الـتي تعـالج مـن وعـي كامـل بالثقافـة العربيـة والتعـاليم الإسلامية والتراث إلى جانب المعاصرة وتكوين النظرة المستقبلية وقد شهد له بعض الكتـاب من ذلك ما قاله الدكتور محمد براده "ما في مجال الشعر فهناك محاولات استطاعت أن تتخطـى عتبة التأثير على نسج عوالم شـعرية تـستمد عناصـرها مـن الثقافـة الـشعبية ومـن الأسـاطير المغربية هـذا إلى جانـب الـتراث العـالمي لتوظيـف ذلـك في موضـوعات متـصلة بالحـساسية الاجتماعية العامة اذكر بالخصوص أحمد المجاطي وعماد الدين السعيد..... وحسن الأمراني".

وانضمام الأمراني إلى ميدان الصحافة وانغماسه في أهدافها فهو رئيس تحريـر مجلـة "المشكاة" الإسلامية الإتجاه، كان لهذا تأثير على الإتجاه الـشامل لثقافتـه مـن حيـث الإسـلامية والإنسانية وأخرجه من التقوقع الذاتي التي تتمثل في الرومانـسية إلى المـشاركة الـشعبية الـتي تجعل الأديب يحس بأفراحهم وأحزانهم لذ افـإن الـدين يعـالج قـضايا وطنيـة وإسـلامية أمـا المضامين الشعرية عنـد الأمرانـي فإنهـا تتبلـور في الأصـالة النابعـة مـن الروحانيـة الإيمانيـة،

والأصالة التراثية، والحضور الزمني والمكاني واستيعاب المتغيرات المعاصرة وتأثيرها على الأمة لذا نراه يرسم سبلاً ، وينصب معالماً ويضرب أمثالاً، ويصنع جسوراً للنجاة.

أما الشكلانية الفنية عند الأمراني فإن أسلوبه الكتابي يعتمد على التقريرية الشفافة بلغة عربية سهلة ممتنعة أما أسلوبه الشعري فإنه كغيره من شعراء المغرب الذين تأثروا بالشكلانية الغربية وحذوا حذو شعراء الغرب ومن سار على نهجهم من الشعراء العرب لذا فإنه لم يلتزم بالعمود الشعري ولا بالقافية ولا بالأبحر الشعرية ويتأرجح أسلوبه بين الحكاية القصصية والاستعانة بالأسطورة، والتقريرية أحياناً والاتكاء على الذاتية التي تنبع من الإنسانية الشاملة أو الوطنية ويعتبر النفس الطويل خاصية من خصائصه لاستعانته بالمقاطع ولتنويعه لأساليب المعالج واستلهم الحدث والتفاعل من جميع الجوانب.

الأشياء المنكسرة

الشاعر المغربي عبدالكريم الطبال عاش في مرحلة بالغة الصعوبة لبلاد المغرب وشعبها العربي المسلم فإدرك الاستبداد الاستعماري وامتصاص خيرات البلاد، وعايش النضال الوطني الذي صمد في وجه المستعمر، وخاض عباب الفوران الذي مهد للاستقلال وأحس بالمعاول التي تحطم كيان الوطن على الصعيد السياسي والحزبي والاجتماعي والاقتصادي فتزرع الشتات والفرقة وتفرق حتى تسود وشهد الأحداث والتي صحبت نفي محمد الخامس وتنحية أسرته عن الحكم وإحلال غيره محله وعانى أشد معاناة من الواقع الأليم الذي خيم على الشعب المغربي من العوز والفقر والقهر والجهل والشتات التي وقفت حاجزاً دون استثمار خيرات البلاد ولما يخرج المستعمر من البلاد حتى أثمر ما غرسه من توزيع للمجتمع إلى فرق متناحرة متصارعة من المفكرين والمثقفين والاقتصاديين، فطغى الخلاف على المسرح ونشب الصراع و كانت المجابهة بين الحكومة وقادة التيارات الثقافية المتابيه ولم تنهج الحكومة مبدأ واضحاً يقنع الشعب الأمر الذي حجب الاستثمار والإنتاج وناب عنه التهريج والنفاق والدعوة إلى المبادئ اليسارية واليمينة مما أضاع الوقت وجعل الناس في شغل شاغل عن الإصلاح والإنتاج واستنفد جهد ووقت الحكومات المتعاقبة فكان هم السلطة أن تثبت أطنابها في الحكم ويصف الدكتور سيد حامد النساج جانباً من هذه المرحلة " فقد عشت هذه الفترة ورأيت بالمغرب ورأيت كيف كانت تجري المطاردات في البيوت وفي الشوارع وفي المدارس والمعاهد واستمعت إلى أحاديث الناس، والخوف الذي كان يعتري كل الوجوه، والسيارات تقف في الطريق للتفتيش، والصحف تمنع من الصدور، والمحاكم ملأي بالطلاب الثأرين، وبعض القضاة لا يريدون الحكم عليهم و أولياء الأمور يتظاهرون أمام أبواب المحاكم، والسيارات المصفحة المحشوة برجال الجيش المسلحين تملأ

الشوارع، وفرق الشرطة والدرك والأمن تقتحم المدن الجامعية وقسم اللغة العربية بكلية آداب الرباط ينتقل إلى حيث الثكنات العسكرية في فأس"[1].

والواقع أن مرحلة المخاض هذه مرت على أغلب دول العالم الثالث فالتنافس بين السلطة والمثقفين و فقدان الثقة بينهما ومن ثم المواجهة كانت سبباً في قيام الثورات والصراع الطبقي والفكري وتأخرت الشعوب والقارئ للمعالم الثقافية والفكرية والاتجاهات الأدبية في المغرب العربي يشهد العراك والتنافس والمواجهة والفرقة والتفلت من القيم كل ذلك قائم على أشده يتجلى ذلك ويتبلور في الزفرات الشعرية التي تزخر بها دواوين الشعراء الشباب وهي في أغلبها لا تقوم على مبدأ ديني ولا منطق وإنما هي موجات عاطفية دعا إليها الفراغ الفكري وربما تكون خاضعة لتيارات وافدة متولدة من الصراع الرأسم إلى والماركسي والطبقي في المجتمعات الأوربية والفرنسية بصفة خاصة.

والشاعر عبدالكريم الطبال عاش بين ظلمات الركام الهائل من القضايا التي تنتظر الحلول وامتطى المراجل المرتجفة وتمنى أن يرسو على أرض صلبة يستقر عليها ذلك الواقع الاجتماعي أما مكوناته الفكرية والذهنية فإنه يطفو عليها التأثير الغربي والمنحنيات الثقافية ويجنح إلى اليسار الثائر شأنه في ذلك شأن كثير من الأدباء الذين ينشدون التغيير فيتوهم أن كل حركة مقدمة لتغيير منتظر وأن الظروف التي ألمت بالحضارة الغربية ستماثلها ظروف تحل بالوطن العربي ولذا فإن كثير من أصحاب هذا الاتجاه يقذفون بالإبداع الذي يدفع إلى التمرد والعصيان، فيمد ظلال من العتمة والتشاؤم على كل معلم يراه من بشر وشجر وبحر.

النهر في بلادنا منكسر النفس
تمر الغيمة الصديقة بالأمس
فلا تعطيه حتى قطرة من الأمل
يمر الطائر المسافر إلى بعيد
فلا يقول شيئاً عن أسرار الرحلة

---

(1) سيد حامد النساج، الأدب العربي المعاصر 214

تمر الريح الشاعرة
فلا تقرأ شعراً من ديوان الفصل القادم
أحياناً يحلم النهر بالضفة الحزينة
تصعد في المساء شجرة
يسقط منها رأس الحالم

وهو يخاطب طفل في الدار البيضاء في رسالة صغيرة يعلن فيها ثورة الأرض، حاملاً الطفل رأيه التمرد منشداً أناشيد النصر في موكب الإرهاص بالفجر المرتقب وهو يرسم الثورة العارمة التي تجتاح البلاد، فالنار تشتعل والطوفان الثوري يعلو السدود والجبال ويطمر الضباب.

ويكشف النور والضياء وينجلي القهر والاستبداد
مجد لأرضي أن تثور وأنت برعم زهرة والسجن (فصل) الثائر
لم ترتعد والسماح مجزرة ونيران وأنت أشم نوق الجازر
تمشي إليها في سمو البرج، في فمك النشيد يموج موج الطائر
في موكب الإرهاص بالفجر الذي سيطل علياء ليل ساهر
كالنار كالطوفان، تحترق السدود، تدك أسوار الضباب العابر
كالسندباد تشق درب الغيب، تكشف في تحد – عن طلاء الحاضر
ولكم يمر بك الرصاص وأنت تهذي بالذي هو حلم شعب حائر
فكأنما في العرس أنت، وما صغير النار إلا زغردات السامر
ولكم ترى في الساح طفلاً في الدماء وأنت تهدر مثل بحر زاخر
....
وتسير في الزحف المقدس من الدماء تخط أرضنا للربيع الناضر
يا طفل ثرت فكنت ابن الثائرين الماجدين وكنت ذكراً لذاكر

ما كنت أحلم أن تكون كما أرى مجداً لأرضي، وانطلاق الثائر[1]

ولا ريب في كون الطبال يمثل واقع أليم لشعب فقير حائر غير أنه لم يستلهم الحلول العقلانية الناجحة فالشعب ينفض غبار الحرب ويستعيد قواه فكيف ندعوه إلى إراقة الدماء وتعطيل الفكر، والعمل لذا فإن المضامين الثورية هذه تؤدي إلى الشتات والضياع واليأس والفرقة فلا يجعل أمام الشباب أملاً يجري خلفه ولا يدعوه إلى التطلع إلى مستقبل زاهر ويدفع بعزائمه وهممه، ويتوجه إلى الإنتاجية التعاونية، والإصلاح والوحدة الهدفية فيه عوضاً عن زراعة الوهم والمرض والإيهام النفسي الذي يقضي على الأفراد والشعوب ويجعلهم في سلبية تامة ويقف حاجزاً عن الإنجاز والتفاني ويضفي عليهم الحب والبسمة والآمال مما يهيئ الجو السليم للتفكير والعطاء وإيجاد الثقة وإحلال التفاهم بين المثقف والسلطة والتعاون أيضاً على إزاحة الظلام الدامس الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى تلاحم المجتمع والإخاء ومن ثم يكون العمل الناجح بدل الانتظار لانجلاء الليل وتلاشي الضباب وانحساره لذا لا نوافق الطبال على سراب الحلم والحيرة وتهويمات نفسية لا واقع لها:

وأحلم أني لست الذي	**يتيه هنا في قفار الظلام**
طريدا بلا أكل في الضياء	**وفي قدمي رعشة وسقام**
وفي مزودي حفنة من هباء	**وفي قدمي رعشة وسقام**
فيا ما عثرت وما من مقيل	**ويا ما رجوت وما من كرام**
أحار اردد اسئلتي	**على الريح في عبث وسأم**
إلى أين أرحل أين المصير	**متى ينتهي الليل هذا العتام**
متى يختفي من طريقي الضباب	**متى ألمح الشمس فوق الخيام**
فيرتد صوتي إلى أذني	**عواء الذئاب وهزء اللئام**

(1) عبدالكريم الطبال، الأشياء المنكسرة 75

يـــــدومني وكــــأن يــــصدى   يخـــــدرني وكـــــأني أنـــــام

إذن فنحن لا نبتغي نشر السأم والملل واليأس والحيرة والتحذير وإنما شأن المسلم أن يعمل دائماً ينظر إلى مشكلته فيتصدى لها بفكر وعمل ويظل دائباً فإن العمل يتوج بالإنتاج.

والحيرة هذه التي ما تنفك عن شاعرنا وليدة الفراغ الفكري الذي خلقه الاستعمار فإن هدفه انسلاخ المسلم عن فكره الإسلامي، وقد اوجد السدود والحواجز وحيل بين الشباب وبين المناهل العذبة، والعدو لم يستطع أن يزرع فكراً يحتل القلوب ويستقر فيها لذا خرج الاستعمار من البلاد العربية والشباب بمنأى عن الروافد الإسلامية الصحيحة وتكونت مفاهيمه من شتات وضياعٍ وضبابيات لمذاهب شتى، فكان أن أخذ يلجأ لليسار تارات ولليمين تارة أخرى غير أنه ابداً وبفعل الإعلام الغربي لم يلجأ إلى الفكر الإسلامي وعزف عنه، الأمر الذي أدى به إلى عدم الثقة بالنفس ولا بالتراث العربي والإسلامي.

والواقع أن الضباب والعتمة والتعثر والحيرة قد خيمت في سماء ديوان عبدالكريم الطبال " الأشياء المنكسرة " فهذا العنوان يوحي بالتحطم واليأس من الشفاء والبلوغ إلى القمة لأن الكسر يصعب تلاحمه وعودته إلى أصله.

ويصطدم القارئ – بلوحة أخرى من الحزن تتمثل في اشعار طفل حزين ويزيد في المفاجأة فيتحدث عن مدينة المساء:

مدينتي جئت إليها في مساء ممطر حزين
كفارس يعود من معركة بلا قتال
مكسور الرمح ولكن كان الكسر في غمد الخيانة

ويرسم عدة لوحات من الأشباح الحزينة المستقاة من الواقع الإنساني الذي يهز الشعور والعواطف الإنسانية فالحزن وحده يسير في الدروب الشاحبة يتقمص شيخاً وحيداً بلا رفيقة ولا أطفال فيتبلور الحزن في جسمه وصوته وصفرته:

فالناس ربما لم يسكنوا في هذه المدينة
الحزن كان وحده يسير في الدروب الشاحبة
شيخاً بلا رفيقة ولا أطفال
مقوس الظهر كأنه فم الأبريق أو رأس الخريف
في فمه حكاية مدفونة الأصوات والنهاية
وفي الجبين رغوة الأوراق الصفر ومتاهة القيامة [1]

وحتى في الأعياد وفي مواسم البشر والانشراح يفقد الطبال البسمة والهدوء والراحة النفسية وتقذف عينه الدموع ويستقل فؤاده جمراً يحترق ويحرق الآخرين وتكبله القيود وتعترضه العقبات ويخيم عليه الضباب ويلتقى بالطفل الشريد كل ذلك يمثل نظرة الشاعر لهذا الوطن والمشاكل المتسلطة عليه فيحس بها الشاعر وتتشابك على مسرحه الفكري فتحجب عنه المسرات وينزف جراحه بهذه الزفرات المريضة في يوم العيد:

كيف يا عيد، هل تعود وفي عيـ ـني دمع وفي فؤادي جمر
وفي يدي القيد وفي مواقع رجلي ألف جرف وفي سريري قبر
وفي سمائي الضباب فوق ضباب وفي طريقي الطويل شوك ووعر
وفي ابتسامي بكاء طفل ورعود وفي انطوائي محارب له ثأر
وفي شرابي مرارة في منامي ألف غول مروع له زأر
أي عيد ترى وأرضي شراع ضل في الموج والعواصف كثر؟
لست عيداً وإن توهم غيري إنك العيد فليثق بك غر

---

[1] الأشياء المنكسرة، عبدالكريم الطبال 6

ويتخيل انكشاف الظلمة حينما يطل ربيع البلاد وتنعم بخيراتها وتقطف ثمار أرضها في أمن واستقرار ونجد الشاعر يتغير مع هذه اللوحة التي يعلـق آمالـه عليهـا ويأمـل أن يتبـدد الظلام عن وطنه:

وغـداً يـا أخـي سنـضحك في العيـد ويـروى لنـا عــن الحــب شــعر

وغـــدا يولـــد الربيـــع بأرضـــي يـــانع الزهـــر بيننـــا مـــستقر

اينمـــا كنـــت فـــالأزهر كـــأس اينمـــا ســـرت فالجـــداول خمـــر

ويـــدي في يـــديك تقطـــر حبـــاً وأنـــا أنـــت لـــيس دونـــي ســـتر

تتملـــى الجمـــال في الأرض نوعـــاً كـــأني وأنـــت في الفـــن حـــبر

وغــداً يــا أخــي ســيهجر أرضــي كـــل ليـــل فيغمـــر الأفـــق فجـــر

ذلـك عيـدي وعيـد أرضـك يـا مـن غـــره الـــوهم فـــانطوى عنـــه ســـر

والشاعر عبدالكريم الطبال يطالعنا في ثاني قصائده بديوانه الأشياء المنكسرة بجنوحـه إلى الخيال الفلـسفي الـذي يـؤمن بالخـالق ومـدبر الكـون لكـن قناعتـه لم تتولـد عـن طريـق الروحانية وإنما عن المسلك الفلسفي الأفلاطوني الذي يكشف أسرار الطبيعة حتى يـصل إلى موجدها خالقها وأهمها أن الصفات الكاملة الجميلة التي تتجلى لنا توجد في إله هـذا الكـون على أكمل صورة وتفصح قصيدته " انصراف " عن هذا المنحنى الفلسفي:

أن يحلم الشراع أن يسالم القلاع والرياح
لأنه في البدء كان من سلالة الأزهار والأدواح
معاقل السلام، وملاحن الأشواق والأنعام
مزرعة الألوان مغزل الأضواء والأنسام
أن تحلم الشوارع الحزينة المديدة
من بعد ألف أو يزيد في جنازة بليدة

أن يرسم البركان في لوحاتها مشاعل المسيرة
أن يهدد البحر الكبير، أن يفيض من دواخل الإنسان
لأنه في البدء كان مطلق الأشواق لا تحده شواطئ الزمان
لأنه في البدء كان صانع الأمواج ومغاور المرجان
فإني أحلم أن أهدم الجدار والأسوار
أن أحصد الغلات من مزارع الأسرار
أن أرسم الذي أعيا الحروف والكلام
وأخرس الألوان والظلال والأنغام
أن أرسم الأصل الذي يلون سائر الصور
أن أكسر الأصداف عن عرائس الدرر[1]

والطبال شاعر يتمتع بمواهب واستعداد فطري ويتقمص الرقة والإحساس الأمر الذي صير منه مرآة تترآى فيها التقلبات الاجتماعية الآخذة في التردي ولسان حالها الناطق، وقلبها النابض، ومصدر أحلام اليقظة لها، وراسم لوحاتها وقارئ أسرارها، ومعلن آمالها، ومشعل الفوران والنيران في أحشائها.

واصفاً سحب الضباب والعتمة، شاهراً سلاحه في وجهها، مبشراً بتبديدها وكشفها و ببزوغ الضياء والنور إلى وطنه العزيز.

وهو الشاعر الولهان العاشق لأرضه المتفاني في حب مدنها وقراها وسهولها وجبالها وبحارها وأنهارها، مستقرة في قلبه، مصاحبة له حيث حل أو ارتحل ماثلة بين عينيه، حاضرة في وعيه:

شفشاون الخضراء، أرض العطر — الأنغام قيثار السواقي والحمام
عش البلابل، معبد الشعراء، مو — جات الظلال الخضر في صيف السآم

---

[1] الأشياء المنكسرة، عبدالكريم الطبال 9

اسطورة الألوان، معجزة الرؤى والفن، فجر في متاهات الظلام
نجواي أنت فأينما وليت وجهي لا أرى الاك في زاهي القوام
ياضفة الأطياف، ياعرى الجمال، ويا تسابيح الذي عاف الكلام
ليلاي أنت وإن رحلت إلى بعيدفي سماوات عجيبات الغمام
لا البعيد ينسيني ولا الأوهام تغريني ولا الدرب الغريب ولا المقام
فأنا عشقتك منذ لقيا الزهرة الحمراء بالعطر السماوي الغرام
فأنا هويتك منذ ميلاد الجمال وحق كل السر في كأس المدام[1]

ومع غلبة الحضور الاجتماعي والوطني في الديوان فإننا نلتقي في كثير من الأحيان مع الذاتية الوجدانية الرقيقة الحانية التي تحلق مع العصافير وتنساب مع جريان الجداول، وتشدو مع إيقاع النغم وأحياناً ينتقل في همسات حانية تتدفق بياناً عذباً يحمل شعوراً فياضاً بين عاشقين وراسماً رعشات حركية تموج بالجمال والرقة والدلال ولا تخلو من التصريح والوضوح مما ينقلها إلى وجدانيات مكشوفة ونستبين ذلك من قصيدته" إلى مسافرة":

وجلست قربي كالحمامة غضة من رفة العصفور، في لون الصباح
في شهقة القيثار، في زهو الشذى في ميسة النغم المرفرف كالجناح
و سألتني ماذا يشوقك في بلادي بحرها الرجاج أم تلك الروابي والبطاح
أم روعة الآثار من عهد الجدود البيض من عاشقي البيض الصباح
فأجبت ساحرتي ببسمة عاشق متدله ألف التوجع والنواح
ففهمت من دون الكلام، وناظري متردد ما بين وردك والاقاح
ويتيهه حينا سادرا في مرمر مترجرج غض يطوقه وشاح
متناغم كاللحن يغزله الكمان مروع فوق الزوابع و الرياح

[1] الأشياء المنكسرة، عبدالكريم الطبال 27

مستـــصرخ مـــن يـــستفز ابـــاءة **مـــن ذا يقـــوض عـــزة لا تـــستباح**

مـــن ذا يطـــاول صـــولة في بأســـها **يـــا ليـــتني كنـــت المجيـــب إلى الـــصياح**

ويتيـــه حينـــا في غياهـــب دجنـــة **لا ينتهـــي منهـــا الظـــلام ولا يـــزاح**

ويـــدي بهـــا جـــوع إلى تيـــه كهـــذا **التيـــه في ليـــل يقعـــده الكـــساح**

وبهـــا مـــن لقيـــا الأحبـــة لذعـــة **تـــزداد إضـــراماً إذا افـــتر الاقـــاح**

للخـــصر تطويـــة خيـــالاً خافقـــا **للخـــصلة الـــسوداء عاتيـــة الجمـــام**

للخـــال يرتـــع في منـــارة روضـــة **جمعت إلى ورد الـصبا أشـهي قـراح**

فبحـــق لثغتـــك الحبيبـــة لم أفـــق **من غفوتي فرنينهـا أحلـى صـداح**[1]

وأحياناً يرثى الطبال العلماء وأصحاب البذل والعطاء فيتفجع مرتأوا الشعراء والقضاة، كرثائه قاضي المدينة / العلامة أحمد السمار في قصيدته "المدينة الحزينة" وفيها يقتفي مسالك العقيدة العربية من حيث التفجع والأنين والحسرة والندم واستجلاب الصور القديمة متعانقاً مع المعالجة الإبداعية الحديثة التي تتمثل في استنطاق الطبيعة من الأنهار والأشجار والسواقي والمروج وذويان الورد وانحسار المناظر السحرية:

ويـــلاه أمـــي في تفجـــع ثاكـــل **حـــيرى تـــشق جيوبهـــا في مـــأتم**

تبكـــي كـــأن الـــدمع سـيل ينهمـــي **وتنـــوح في جـــرح عميـــق مكلـــم**

في الجـــداول الرقـــراق ألمـــح دمعهـــا **يجـري علـى الخـدين سـيلاً يرتمـي**

في الـدوح اسمعهـا تنـوح كمـن بـه **مـــس، كقيثـــار حـــزين الأنغـــم**

بـين الـسواقي كـم أراهـا تـشتكي **والـــدرب ســـاه في عـــداد النـــوم**

في المـرج ألقاهـا وقـد خلـدت إلـي **الحزن الذي بالأمس عنها قـد عمـي**

والـورد في الخـدين منهـا قـد ذوى **والـسحر في الـشفتين وهـم المـوهم**

---

(1) الأشياء المنكسرة، عبدالكريم الطبال 29

والقـــد منهـــا، أيـــن منـــه رواؤه **أيـــن اللعـــوب بكـــل قلـــب مغـــرم**

فأهزهـــا، أمـــاه، مـــاذا جـــرى **فـتعض عـني الطـرف مغلقـة الفـم**

ترنـــو إلى الأفـــق البعيـــد كأنهـــا **في معبـــد أو في ريـــاض الملـــهم**

واحـــسرتاه فقـــدتها، أمـــاه وي **حـــك أن حبـــك في دمـــي**

فكـــأن فلـــذتها الوحيـــدة أحمـــد **وكـــأنني ضـــيف غريـــب الميـــسم**

صـــبراً فـــإن الـــدمع لا يجـــدي وال **حـــزن للمفجـــوع لـــيس ببلـــسم**

يـــا مـــا أحبـــك وهـــو يحكـــم عـــادلاً **بـــين البـــنين وفي ظلالـــك يحتمـــي**

لم يقـــترف ظلمـــاً فكـــان كمـــا تـــرى **تاجـــاً برأســـك أو ســـوار المعـــصم**

حتـــى إذا هانـــت بـــه تطـــوان وهـــي **حمامـــة ســـخرت بـــألف متـــيم**

وأنت تراه في الرثاء واصفاً لا متأثراً وحاول أن يرينا الألم والحزن والأثر النفسي مـن خلال حكاية تاريخ والدته المتوفاة وكيف كانت وكيف آلت حاله الآن؟ و ذلك أمـر لا يـؤثر في العواطف ولا يقنع العقل.

ولكن لو نظرنا إلى الفارق الكبير بين ألم الشاعر على قاضي و عالم المدينة الحزينـة و ألم الشاعر عبدالرحمن العشماوي على استاذه المرحوم الدكتور عبدالرحمن رأفت الباشا ليتـبين لنا في شعر الأخير الفيضان الحزين والأثر النفسي العميـق الـذي خلفـه رحيـل ذلـك العـالم الجليل:

يـــارب عونـــك هـــذا ســـيف أهـــوالي **يحتـــز رأس الرضـــا يـــودي بآمـــالي**

ويقول:

أبـــا إيمـــان بقلـــبي ألـــف عاصـــفة **مـــن الأســـى وبعـــيني دفـــق شـــلال**

إنـــي أســـائل والآهـــات عاصـــفة والـــصبر يمـــنح قلـــبي كـــل إهمـــال

أنبـــاء موتـــك هـــزتني فجاءتهـــا وزلـــزل القلـــب منهـــا أي زلـــزال

أحس أن الرياض استوحشت وبكت مثلـــي وإن فـــؤادي لـــيس بالـــسالي

وأن بوابـــــة الأفـــــراح مقفلـــــة ولم تكـــن تـــشتكي مـــن جـــور أقفـــال

الجزيرة ع/ 5061 – 2/ 12/ 1406 هـ

وشعر الشاعر الطبال نلمح فيه معالم القصيدة التركيبية ذات البناء الكثيف فهو رغم سيره في موكب الشكل القديم للقصيدة العربية في أحيان كثيرة إلا إنه استطاع أن يكشف الإيحاء والدلالة وأن يسكبها في قوالب متلونة من الكثافة المضمونية والشعورية والنفسية والقارئ يلتقي بشبكة من التدخلات في تراكم للخواطر وتداعيات نفسية تتأرجح به لكنه ما يلبث أن يسير أغوارها ويرسو على شاطئ الحقيقة، وذلك أنه أجرى داخل بنية الوعاء القديم مجموعة من الأدوات والوسائل التي تمنطقت به القصيدة الحديثة لكنها تنطلق في يسر وليونة واستمرارية عفوية أثناء تجاوزه بعض ألوان البناء القديم.

وتصوري أن الأمر عند الطبال ناهج نهج المسيرة العصرية فالطبال أدرك جيل الشعر الملتزم في المشرق والمغرب وانهمرت عليه التيارات الأدبية التي أخذ يعلو نجمها في الأفق العربي معلنة الحرب على القديم ومعتدلة آونة أخرى ومن هذا اعتبر الطبال في شكلانيته الفنية نموذجاً صالحاً وناجحاً للاعتدال الفني فهو قادر على التلاحم والتناغم بين الفكر ذات الأصالة والمتطلب العصري الحتمي الوقوع.

فالشكل عنده يتأرجح بين الانفلات من القافية وعدد التفضيلات وبين الالتزام بالوزن والقافية مع الاستلهام العصري لكيفية المعالجة في القصيدة الحديثة وتسخيرها للتكثيف العصري بل وجنوحها للخاصية بدلاً من السطحية واليسر بل ربما اتخذ الرمزية رافداً من روافده وقالباً من قوالبه.

ومضامين الطبال ذات احتواء واقتباس من الأرض الاجتماعية ذات الموضوعية لذا يعتبر مبلوراً للطبقة الشعبية العامة التي ترزح تحت وطأة البوس والفقر والمعاناة الدائمة عائداً

بالأسباب إلى السلطة والطبقات المؤازرة لها وهو لم يحدد الألآم والجراح، وإنما دعا إلى الثورة والحجب المدلهمة. ومعالجته ليست على النسج التقريري أو الخطابي وإنما عن طريق بلورة المآسي وحرث الجراح ومحاكاة الأطفال المشردين، والعجزة المعدمين، وفاقدي الأمل والحيارى والبائسين يستنطق هؤلاء ويستوحي شعورهم ويحس بمعانتهم.

وإن كنت آخذ على الشاعر الطبال عدم الاستشعار الديني والدعوة إلى مبدأ فكري راسخ المعالم إنما يحرث عن المشكلة ويكشفها وينتظر الحل الناجح مع التغيير.

وقد تحدث حامد النساج:في كتابه الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى عن عبدالكريم الطبال وأفاض في الحديث عنه متناولاً الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عاش فيها الشاعر وتناول أيضاً الخصائص الفنية مستعيناً في ذلك بتحليل واستكشاف عدد من قصائد الشاعر ويرى أنه " يستخدم الرمز أحياناً، ويعتمد على الأسطورة أحياناً ويبحث عن وسائل وأشكال تعبيرية جديدة دائماً ويلتزم بقضية الإنسان فعلاً ".

والطبال متمكن من اللغة العربية لديه مخزون لفظي وقدرة تركيبية نابعة من المعاناة الشعورية التي تمتزج مع دواعي التجربة فتتلفع في أسلوب الطبال الخاص به فهو " ينتخب ألفاظه جيداً، و يختار كلماته الدقيقة والرقيقة والبسيطة وصوره الشعرية لا تستلزم ذلك الجهد المرير[1].

(1) سيد حامد النساج، الأدب العربي المعاصر 208

قالت لي الحرية

للشاعر: أبي بكر المريني

إن الذين تحدثوا عن الأدب المغربي أثاروا الحديث عن أدب التغريب والناهج نهجه والسالك مسالكه وينظرون شزراً إلى أصحاب الأصالة والاتجاه الإسلامي ويصنفونهم أن صنفوهم في إشارة إلى إنهم مقلدو العصور الوسطى وهذه نظرة فيها إجحاف كبير ألا يجدر أن يكون الحكم نابعاً من الفنية والمضمونية والوظيفة الأدبية والجمالية بل والحق والجمال والعدل و أن لا يحكم على الأدب الجديد لجدته ولا يغمض الأصالة لنهجها لأننا إذا نظرنا إلى القوالب الشكلانية الجديدة لا ريب في كونها مقتفية الأثر الغربي إذن فليس بجديد بل أن المعالجة الواقعية والوضوح الفكري، والحماس الوطني الذي يناسب العامة والخاصة يتجلى كثيراً في أدب الأصالة أليس هو ما يلجأ إليه في مواطن الحماس؟ أليس هو منبع أناشيد الجمهور المتظاهر؟ أليس هو عمادة الوسائل الإعلامية؟ أليس هو رفيق لموسيقى الإيقاع و النبرات الصوتية؟ إذاً فلماذا كل هذا التحامل لا أتصور أن منزلته تتأخر عن منزلة الشكلانية الحديثة ولذا من الأفضل أن نسمي الشعر الحر بالشكلانية الحديثة والمقفي الموزون بالأصالة ويكون هناك وئام وتكامل وتلاحم ويسيرا جنباً إلى جنب وكل يعمل على شاكلته وتنزع فتيل الحرب بين مؤيديهما.

وقد أخذت الرياح بالمسارات النقدية في المغرب الشقيق نحو الشكلانية الأدبية الأوربية حتى غلبت على إبداعهم وأذواقهم ولذا فإنهم تجاوزوا تسجيل ظواهر الأصالة في شعرهم عند كثير من راصدي الحركة الأدبية فإننا نجدهم يغفلون الحديث عن رواد حركتهم الأدبية والشعرية مثل عمر بهاء الدين الأميري وأبي بكر المريني وأتناول الآن ديوان أبي بكر المريني " قالت الحرية " والذي حاولت أن أعثر على دراسات نقدية حول الشاعر لعلي استعين بها على معرفته فلم اتمكن وخاصة في الكتب التي امتلكها عن الأدب المغربي لذا فإن دراستي نابعة من النص وسيكون مصدرها الأول والأخير ما احتواه هذا الديوان بين دفتيه

وتلتقي في مستهل الديوان بمقدمة لم يتحدث الشاعر فيها عن التجارب والأحداث التي تدفقت من خلالها قصائده غير أن صدرها بقبسات نثرية حول الحرية وتعريفها ومفاهيمها ومعاناتها "ليس هناك في أي لغة كلمة أشرف من الحرية. فهي رمز وقداسة، وبغيرها الحياة تعاسة، ومن عجب أن دعاتها يضطهدون باسم السياسة..... تعيش أبداً في محنة منذ الأزل، والأعز بدونها أذل، فهي مخضبة بالدماء في كل عصر ومصر، من عهد الرماح الحجرية، إلى عهد الرؤوس الذرية، جاثمة على فوهة بركان، تحلم في كل وقت وآن بالمدينة الفاضلة بلا حدود فاصلة، بين أفراد العائلة. تسير في درب شائك، طوال ليل حالك، بين قصف المدافع، وصراع المطامع، في صبر وأناة، لا تلين لها قناة، ولا تفرق راحة، فشعارها الصراحة.

"كأنما ولدت في لحظة طوارئ لتشقى على يد كل مستهتر بالحكم خاسئ" هذه العبارات توهم القارئ أن الديوان سيكون شعلة ثورية لا يستقر لها قرار ولا يحتضنها مذهب أو منهج سياسي لكن الواقع غير ذلك فإن الشاعر ملتزم بالروح الإيمانية، وبمنهج سياسي، شديد الارتباط بالأواصر العربية.

من ذلك مناشدته بني قومه وتشخيصه للداء الذي يفتك بالأمة العربية:

يدعون العلم الغزير ولكن ... لا نرى إلا جهلهم في ازدياد

وفخار لهم إذا ما ازدروا اس ... لامهم وانتموا إلى الالحاد

واداروا لهم إذا ما نكثوا واس ... تهزأوا بالتراث والأجداد

مطلقين العنان للسخر من ك ... ل مصل وقانت في البلاد

وقضايا بلادهم لم تجد في ... هم ذكاء كشعلة وقاد

كي يحلو عويصها بدهاء ... ومضاء وخبرة واجتهاد

بل رأتهم في قلعة اللامبالاة ... وجميعاً قد احتموا بالحياد

ونرى كل أسرة في انحلال ... أي وربي تكلم وجوه الفساد

يا بني قومي لا يغير ربي ... ما بكم حتى ترجعوا للرشاد

قالت لي الحرية ص79

وأنت ترى الشاعر يفصل القول تفصيلاً صادقاً في توزيع فئات الشعب في زمننا هـذا فمنهم الناكث لدينه ومبادئه المجانب للعلم الإسلامي والتراث العربي ومع الناهل مـن الثقافـة الغربية قدراً ضئيلاً ومع ذلك يدعي العلم والمعرفـة ويفخـر بهـا ولا يـب إلى إلى أيـن تجرفـه تلك المفاهيم:

يـــدعون العلـــم الغزيـــر ولكـــن	**لا نـــرى إلا جهلـــهم في ازديـــاد**
وفخـــــارهم إذا مـــــا ازدروا اس	**لامهـــــم وانتمـــــوا إلى الإلحــــاد**

وفئة أخرى تلتحم من السيء والقبيح والنافر مـن وجـوه الحـضارة الغربيـة فأخـذوا يستهترون بالدين والأخلاق ويعبون من الآثام وسخروا من الـدين والـتراث الـذي يـدعوهم إلى الفضيلة:

و فخـــار لهـــم إذا مـــا نكثـــوا واس	**تهـــــزأوا بـــــالتراث و الأجـــــداد**
مطلقـــين العنـــان للـــسخر مـــن ك	**ل مـــــصل وقانـــــت في الـــــبلاد**

والشريحة الأخرى من المجتمع التزمـوا الحيـادة وانـشغلوا بـذاتياتهم الفرديـة وفقـدوا الإحساس الاجتماعي والوطني والديني، ولم يسعوا للحرية في طرائقها المتشعبة.

وقـــــضايا بلادهـــــم لم تجـــــد في	**هـــــم ذكـــــاء كـــــشعلة وقـــــاد**
كـــــي يحلـــــو عويـــــصها بـــــدهاء	**ومـــــضاء وخـــــبرة واجتهـــــاد**
بـــــل رأتهـــــم في قلعـــــة اللامبـــــالا	**ة جميعـــــاً قـــــد احتمـــــوا بالحيـــــاد**

وهذه الواقعية التي نلمحها بارزة في تقسيم الشاعر للمجتمع وتصنيف تلك الشرائح بدلالة واضحة على المعاناة والرصد الكامل لقضايا المجتمع والوطن وأن الشاعر يحمل أثقال أمته وبلادها، وينقب عن الحلول ويقدم نفسه فداء لها.

والشاعر عمل خيراً حين ختم قصائده بتاريخ ومكان إبداعها وتاريخ بثها عبر وسائل الإعلام وأقدم ما في الديوان قصيدته / تحت دق الطبول في 17 / نوفمبر سنة 1965م والذي لا ريب فيها إنها لا تمثل باكورة إنتاجه وذلك لاكتمالها ونضجها فنياً ولأنها نشرت في نفس اليوم على شاشة التلفاز مما يدل على شهرته.

والقصيدة تمثل الروح الوطنية التي تفيض بشراً، وتنتقض فرحاً، وتغرد شدواً بفك الأغلال ودحر المستعمر، وتتويج الأعمال البطولية بما يتمناه الشعب ويهفو إليه فتوحدت البلاد، خلف قائد مسيرة الجهاد الزعيم الذي أخرج الفرنسيين فاستحق التكريم من أبناء وطنه:

شارع النصرته على الجوزاء — و على النيرات في العلياء

قد جمعت الورى حواليك حتى — حسب الناس اليوم يوم الجزاء

أي وربي لولا هتافات شعب — وزغاريد من بنات ونساء

لذهبنا من غير شك إلى القول — بأنا في حشر يوم اللقاء

قد مشت وسطك الفيالق مشياً — هز أعماقنا بلا استثناء

من شباب كالزهر قد فتحت أكما — مه ريح الصبا في الشتاء

ورجال عليهم وهيبة الجن — د أمازيغ القمة الشماء

في لباس الحروب والسلم ها هم — يذهلون الأنام يوم الولاء

هذه دباباتهم تملأ الرح — اب و هذا اعتادهم للفناء

رحمة للعباد يوم سلام — نقمة للأعداء يوم العداء

جيشنا يعرض البطولات كلا — باعتزاز يختال في كبرياء

وجماهير الشعب تهدي إليه — من سويدائها هتاف البقاء

تحــت دق الطبــول هــذى خطــاه **قــبلات حــرى علــى الغــبراء**

بــل نــشيداً أعطــى الأصــم سماعــاً **مثلمــا أعطــى صــوت للخرســاء**

يبعــث الــروح في المــوات لكــي مــا **ينقلــوا مجــدنا لأهــل الــسماء**

والمريني يذكرنا في نهجه نهـج الـشاعر الـسعودي أحمـد إبـراهيم الغـزاوي فكلاهمـا يسلك سبل الأصالة الشعرية، ويقتفي أثر الشعراء العباسـيين، وكلاهمـا يمثـل المرحلـة الأولى لنهضة بلاده، يتصدر لها بالإشادة والتسجيل، ويحاول أن يجمع الصفوف حول الحاكم مـا دام يسير على النهج الإسلامي ويكدح من أجـل صـالح الـشعب والمجتمـع فـانظر إلى الغـزاوي يقول:

بك ابتهج الإسـلام واختالتـا لعـرب **وصافحك الإخلاص والنصح والحب**

وحالفــك التوفيــق في كــل رحلــة **ودانت لك الآمال واستهل الـصعب**

فمــا وطئــت أقــدامك الغرثريــة **وإن أجـدبت إلا وأرغـدها الخـصب**

فمـاذا يطيـق الـنظم فيـك وقـد وفي **وأنت الـذي في دينـه اختـارك الـرب**

وأنـت الـذي شـيدت للعـرب دولـة **هي الحلم المنشود والمطمـح الوثـب**

وزانـت بـك الـدنيا وصـح اعتلالهـا **وعزبـك التوحيـد والتـأم الـشعب**

أم القرى ع586

ولنكمل قصيدة المريني التي يتناول خلالها الأمجاد المغربية الحديثة:

وأحـل أطوارهـا لمـن جهـل التـا **ريــخ جهــلا، وكــان في إغفــاء**

تخفــق اليــوم فيــك راياتنــات **روي انتــصار الكمــاة في الهيجــاء**

قــد رفعناهــا هــا هنــا في اعتــداد **بعــد مــا أرواهــا دم الــشهداء**

وســقتها الــدموع مــن ثــاكلات **ودمــوع الأيتــام يــوم الفــداء**

كلنا جند في حماها، إذانا   دى المنادي أن هددت باعتداء

هكذا نحن يشهد التاريخ   دوماً أننا كالصواعق الهوجاء

سله عنا يوم (المخازن) أو زلا   قة بات العداء في العراء

ثم سله أيضاً يحكي عن الأبطا   ل في "وادي زم" وفي البيضاء

هكذا نحن ساعة الحرب دوما   كم نرى شراً مستطير البلاء

غير أنا في حالة السلم برد   وسلام كالورد بادى الصفاء

دورنا في وجه الضيوف جميعا   قد فتحناها للصحب دون رياء

ليس فينا غدر، ولا عرق مكر   لا ولسنا في زمرة الخبثاء

إنما نحن أهل عزم وحزم   ومضاء من خيرة الأوفياء

نرتقي المجد والخلود بفخر   ونغيث الإخوان في الإزراء

هو ذاك الميراث عن جدجد   ولنعم الميراث من عظماء

قالت لي الحرية 77

والقصيدة تمثل الأصالة العربية بل وتمثل الواقع الثقافي ومتابعة تلك الثقافة التي وحدت العالم العربي وألهبت الحماس وأشعلت الثورات، وأيقظت الفكر، وخاطبت العقل، وأحييت الروح الإيمانية، وعلى كل ذلك تعاضدت الشعوب العربية، وانتفضت انتفاضتها، ذلك التيار هو الزعيم الدائم لحركات التحرر وعلى اكتفاء حمل أثقال التصدي وبسواعده رفع السلاح وبقوة إيمانه صبر ووقف صامداً في وجه الظلم والاستبداد والقتل والفتك والجهل والجوع.

والشاعر يمثل تلك الفئة التي تحمل الروح الإيمانية والوطنية العربية وحب الأرض والمجتمع، فكان شعره ملتزم بالفكر الإسلامي والقومية العربية ووطنه المغرب ومستوحياً الشكل العربي للقصيدة التي تلتزم بالوزن والقافية شأن المريني شأن الشعراء في العالم العربي الذين أوقدوا الثورات بهذا النوع من الشعر وقد أشار إلى هذا المنحنى عبدالكريم غلاب "

مهما يكن فإن الوعي بالذات وبالآخر، والوعي الوطني الإنساني ثم اتساع الأفق الثقافي كل ذلك يفرض أدباً ملتزماً ما يزال يطغى على أقلام أجيال الشباب الذي يقذف بهم المجتمع إلى معترك الحياة الثقافية بالمغرب وأعتقد أن المستقبل لهؤلاء الأدباء الملتزمين، ويبدو أنهم إلى جانب التزامهم مجتهدون"[1].

غير أن المستعمر وأن أعلن وقف القتال الحربي فإنه أحل محله الصراع الفكري بين طبقات المجتمع واحتضن التيارات الطارئة والإلحادية وما يو إلى إليه حتى ينسف ذلك الاتجاه المعتدل الذي أخرجه خاسراً وأقول بكل أسف إنه نجح بعض الشيء في ذلك وخاصة في المغرب من الاتجاهات الوافدة هيمنت على الساحة الأدبية وغلبت على أمره وأخفت الأصالة بقوة الحملة عليها.

ويشدو ببلاده حصن البواسل المنجية الكرام أخوان النجدة الذين يقذفون الأعداء ألواناً من الذل و الهوان.

بلادي عرين الأسد حصن البواسل	**وما أنجبت إلا كرام المنازل**
من الريف حتى تلتقي بمضارب	**تعانق بالأشواق سحر الأصائل**
رجال صناديد وإخوان نجدة	**إذا هددوا باب العدا في المعاقل**
وإذا غضبوا يوماً تراهم صواعقاً	**تدك قلاع الخصم دك الزلازل**
ويا ويل من يسعى به سوء حظه	**إلى ربعهم يغشاه كالمتجاهل**
كذلك آبائي وفاخر بذكرهم	**إذا ذكر المجد التليد لسائل**
ولقد وشحوا صدر الزمان بمجدهم	**فباهي بهم كل الورى في المحافل**
وما ارضعت غير الاباة نساؤهم	**فشبوا كماة للعلا والفضائل**
لنا يشهد التاريخ طول حياته	**بحزم وإقدام وقهر الجحافل**

[1] سيد حامد النساج، الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى 110

والديوان يشمل بين طياته إبداعات كثيرة تتحدث عن فلسطين وجهاد شعبها ومواقف العرب والمسلمين منها راصداً أحداثها، واقفاً خلف أبطالها داعياً للجهاد والوحدة ومساعدة الأخوة الأشقاء لتحرير الأرض السلبية يتحدث وكأنه جرح ينزف لا يعالج فيبرأ وإنما كل يوم تأتيه ضربة قاسية فيتسع ويكبر وينزف ألواناً ويزداد عمقاً وخطراً وتمنع محاولات التضميد وأحياناً يتخاذل من يستطيعه تلك زفرات المريني الشعرية التي جعل من إبداعها رسوماً متحركة لما يحدق بفلسطين وأهلها وأرضها وما يعانيه أبناؤها من تشريد وتعذيب ومطاردة وظلم وبهتان وما تقاسيه الأمهات من ثكل الأبناء وفقد الأزواج وما تؤل إليه دورهم وخيامهم من دمار وشتات وما يلاحق أطنابهم وأوتادهم وخيامهم من قصف وفتك كل ذلك وأكثر من ذلك صوره المريني بعدما أحس به وكمن في نفسه مما جعله ينزف تجاربه وإبداعاته التي تمثل جل قصائده في هذا الديوان، من ذلك نقول أن هذا الديوان يمثل بحق نفثات وأحاسيس عرب المغرب العربي ومشاركتهم لإخوانهم عرب المشرق من ذلك قصيدته " قسما إنا عائدون " والتي استهلها بقوله:

مسجدي الأقصى يرتجى المسلمين ... وفلسطين في يد الغاصبينا

صرخة اليأس في ديار الهدى تع ... لو، وذاعرانا يشين الجبينا

وبنو إسرائيل في كل يوم ... يشربون الانخاب مستهترينا

يتحدوننا بطغمة جيش ... يستفز الشعور والآمنينا

وعلى ضفة القتال استباحو ... من ذوينا الدماء مستعذبينا

والقارئ يلاحظ تفاعل الشاعر وإدخاله الذاتية في هذا الصراع فهو ينسب المجد إلى نفسه فهو حق له كما هو حق لكل مسلم وادخل نفسه في العار وإضافة إليه كما يعد أبناء فلسطين آباء وأبناء له " استباحو من ذوينا الدماء ".

ثم ينتقل إلى وصف الأعمال الشريرة التي تقوم بها إسرائيل فهي تغدر من منطلق عقائدي و بوسائلها الخبيثة تهيمن على الحاكمين و تتحكم بهم في العالمين فتظهر أصحاب المقاصد الضالة حتى تجعل منهم صنائع أمناء لها:

هكذا اسرائيل تطغى و تزهو ولها كل الغر والفسق دينا

ولقد ظنت أنها أسمى البرايا ولها تجثو سلطة الحاكمينا

ولها الحكم وحدها كيفما شا ءت تقود الزمام في العالمين

ترفع الأدنياء للمجد حينا وتدنى الأشراف مناحينا

ولها الحق أن تمارس جهرا ما أرادات وما تراه مهينا

وإليها تؤول كل القضايا ولها كامل التصرف فينا

ويتحدث عن العوبة مجلس الأمن و بطلان الأسس التي يقوم عليها قراره وهيمنة اسرائيل على أعضائه واستهتارها بقرارته فكلما صدر قرار من هيئة الأمم ألقت بعدد حروفه قنابل على مخيمات اللاجئين:

مجلس الأمن دمية من دماها كم لها في الكبار من تابعينا

كلما أصدر القرار عليها قذفت طائراتها اللاجئينا

لم يخفها الوعيد من أمم يو ما، ولم تخش غضبة الناقمينا

إنها تعرف النتائج قبلا وهي ترثى أصحابها أجمعينا

إن زمان اليوم زمانها و عقارب الساعة تسير في صالحها فهي تنهب الوقت نهباً وكلما حققت نصراً دفعها إلى الأمام وزاد من قدرتها وأحست بتجسيد أحلامها وتحقيق أمانيهم وأحلامهم التي يزعمون تدوينها في ثوراتهم، والشاعر على اطلاع بمخططاتهم التي تستهدف القدس والفرات والنيل التي تقع ضمن حلمهم الأكبر من أجل ذلك فإنهم يجندون

كـل يهـودي في الأرض ويدعمونـه ويحمونـه مهمـا كانـت أسـاليبه ووسـائله فغـايتهم تـبرر وسيلتهم مهما كانت غارقة في الخسة والنذالة وكأنهم يرون أنفسهم البشر ومـا عـداهم خـدم وعبيد ولا يعبأون بالوعيد والتنديد وهم يدركون أنه مجرد تضليل وهراء:

ولـــذا تـــسعى للمقاصـــد قـــبلاً — وتعـــد الوقـــت القـــصير ثمينـــاً

كلما احتلت شبر أرض غـدت تـح — ـسب أن الأحـلام أضـحت يقينـا

وعلـى مرآنـا ومـسمعنا تغمـزوا — أراضـــينا غـــزو الفاتحينـــا

وتعـــد احتلالهـــا حقهـــا المـــش — روع بـــين التـــوراة كـــان دفينـــا

فمـن النيـل للفـرات تـرى ملـك — ا عظيمـاً، والقـدس حـصنا حـصينا

حلمهـا الأكـبر الـذي عملـت مـن — أجلـه أذكـى في اليهـود الحنينـا

فتراهـــم في كـــل قطـــر صـــهايي — نـــا وأنكـــى اللـــصوص رجالينـــا

يـسرقون الـشعوب سـراً وجهـرا — ولهـم صـارت "تـل أبيـب" حزينـا

وكـأن الـدنيا لهـم وحـدهم و ال — نـاس أمـسوا عبيـدهم صـاغرينا

كـــل تنديـــد بـــاليهود قـــصور — والادانـــات منطـــق العاجزينـــا

ويعرج على أوصاف اليهود التي اشتهروا بها بين الأمم فهـم يحملـون أوزار الأنبيـاء وعليهم لعنة الخلود ونشروا الإلحاد في الأرض ويمتصون دماء الشعوب في حقـد دفـين مـنهم أبشع مجرمي الأرض:

شـــهد الله أن إســـرائيل قومـــا — يحملـــــون الأوزار مغـــــضوبينا

وبهـــم لعنـــة الخلـــود أحاطـــت — إذ تبنـــوا زعامـــة الملحـــدينا

يـــأكلون الربـــى وينتهكـــون ال — حرمـــات المثلـــى انتهاكـــا مـــشينا

ينخـرون الـشعوب حقـداً ومكـرا — هـــم بـــدنيانا قـــادة المفـــسدين

غـصبوا الأرض في فلـسطين عـدوا — نـــا و هـــم فيهـــا أبـــشع المجرميـــا

ومهما تجبر العدو وتكبر وعثاء وفساداً فإنا إلى فلسطين عائدون ذلك ما وعدنا به رسولنا محمد ﷺ:

قسماً بالقرآن و المسجد الأ قص ي نعيد الأرض السليبة حينا
قسماً إنا عائدون لها بالنار رغم الأحلاف والمدعينا
قسماً نفدى الثأر ثأر الذين احترقوا بالنابلم في وادينا
قسماً بالدم المراق سنفدى راية الحق في الوغى مؤمنينا

1969م

وفي أواخر القصيدة يصرخ داعياً قادة المسلمين في مؤتمرهم الأول في الرباط إلى تحرير الأرض السليبة:

ها هنا دقت تواقي س الجهاد الكبير للمسلمينا
تنذر الغاصبين بالوثبة الكب رى لأهل الإسلام اجمعينا
مرحبا بالملوك والرؤساء ال مسلمين الكرام والنائبينا
قد دعاكم أخ كريم فأهلا بحماة الإسلام مؤتمرينا
ولنا في لقائكم ألف حلم ولقاء الأبطال نصر يقينا
وحدوا الصفوف واعتصموا بال عروة الوثقى كي تردوا العرينا
ذكرونا بخيبر وتبوك وببدر وبعدها حطينا
إننا ظامئون للثأر يا قوم ي وقد حان الوقت للظامئينا
غصة القدس ليس يطغى لظاها غير حرب المصير بالثائرينا
فافتحوا الباب للجهاد فإنا مستعدون للفداء أجمعينا

ويتابع كل تجديد عليه يؤدي إلى نتائج خيره في طريق التحرير واستعادة القدس الشريف وها هو يردد مع أبطال (فتح) "ثورة حتى النصر" ويجعلها عنوانا للقصيدة التي بارك فيها انطلاقة هذه المنظمة الفلسطينية القوية التي تصدرت الجهاد:

"فتح" يا ثورة الفداء والآباء يا عرين الآباء والكرماء

أنت للحق جنة وملاذ ولأنت الرجاء للغرباء

قد بعثت الآمال في نفوس صدئت بالنفاق أقسى البلاء

ولكم خدرت بأزهي شعار قادها للهزيمة النكراء

ومشت في جنازة العار تبكي سوء القادة الخطباء

ثورة حتى النصر أسمى شعار للذي يفدى أرضه بالدماء

هكذا قالت فتح وامتشقت أم ضى حسام وواعدت بالجلاء

ومضت للثأر الكبير كرعد صاعق كالزوابع الهوجاء

تقذف الرعب في صفوف العدا حينا بحين في ثورة الشهداء

تنسف الغاصبين نسفاً مريعاً وعليهم تلتقي لظي الأنواء

بالصواريخ المحرقات وغزو انتقاماً للأرض للأبرياء

اقسمت بالرحمن بالمسجد الأقص ى ببيت الخليل، بالأنبياء

لتردن الأرض خالصة شب را فشبراً من قبضة اللقطاء

قسما قالت فتح أنا لها إما فناء أو عودة للبناء

لا يفل الحديد إلا الحديد والعدا لا تجلو بغير الفداء

يا فلسطين أبشري جاء الفت ح "بفتح" من خير الأبناء

12 قالت لي الحرية

وهذه الأبيات لسان كل عربي ومسلم شهد انطلاقة وأحس بالقوة ورأى الخلاص فيما تقدمه من شهداء واستمر العربي يقف خلف فتح غير أن الخلاف في صفوفها في الآونة الأخيرة قلل من عطاءه، نرجو الله أن تعود إلى سالف تاريخها البطولي.

والعيد يحتل مكانة بارزة في الشعر فهو راحة قلبية ونفسية وتكاتف وتعاضد وتحاب ولكن إذا ما أقبل العيد وقد فقد الإنسان أحد لوازمه فإنه يثير في النفس لو أعج من الحرقة والحسرة غالباً ما تتجسد عند الشعراء في إبداعات شعرية كما انطلق المتنبي بيته الشهير:

عيد بأية حال عدت يا عيد	**بما مضى أم لأمر فيك تجديد**

والعيد في نظر الإسلام راحة نفسية ولقاء روح وتعاضد نفسي ومادي لا يقف في وجهه حزن ولا حرب ولا ظلمات ومحن ولكن الشعراء تجاوزوا المنطق وربما قصدوا إلى تجاوز الإسراف والبذخ والمظاهر فقط ولكن المريني ينعى العيد:

ما دام الأرض في يد الغريب	**مالنا عيد يا بني الحبيب**
وأرضنا في أيادي الغريب	**عيدنا نصرنا في القريب**

وللمريني عدة قصائد في العيد منها "ما لنا عيد" "وعيد فتح" يقول فيها:

عيد "فتح" في حقها المهضوم

في جراح المجاهد المكلوم

في قضاء العدو الظلم

وله قصيدة أخرى بعنوان "عارنا يا عيد" استهلها بالأبيات التالية:

كل عام يا عيد أنت جديد	**وفلسطين ما لها اليوم عيد**
من بهاك الأنوار تجلى ظلاما	**غير ظلم اليهود ليس تبيد**

ص91

وشعر أبي بكر المريني يمثل الاتجاه المحفلي فهو يشدو بإيقاع قوي ذات نبرات خطابية مؤثرة، وشعره يلتقي مع عدة طبقات من المجتمع وإن كان لا يروق للذين ينزعون بالأدب نزعة خاصة لطبقة محدودة غير أن الواقع يحتم على الأدب الشمولية لأصحاب اللغة فالسياسي يميل إلى الشعر ويتأثر به والعلماء أيضاً كذلك وطبقات المجتمع كل له ذوقه الأدبي وفي نظري أن الأدب الناجح هو الذي يستطيع أن يحضر في جميع المنتديات وكلاً يجد فيه بقيته.

ورغم اعجابنا بالأصالة الراسخة عند المريني فإن المنطق والظروف العصرية تحتم علينا الاقتباسات والاستفادة من الإبداعات العالمية التي اختفي وجودها في شعر المريني فأعرض عن المعالجات الذاتية والإيحاء، والاستشفاف، والرمز المستحب أحيانا.

و كذلك فإنه لم يبلغ ما بلغ انداده الشعراء في المشرق من إجادة التصوير والإلمام بالبلاغة العربية واستلهم المخزون الثقافي والإبداع الخي إلى فخرج شعره يمثل العاطفة الثائرة والحماس الوطني في أسلوب تقريري يجنح إلى السطحية أحيانا كثيرة.

أجراس الأمل

الشعر الحديث يلتقي مع المعاناة ويعرض عن الشكل القديم ومراعاة المقتضى الشعبي، ويلتجئ إلى شواطئ الإيحاء والدلالة والاستشفاف ويبتعد عن الشاطئ العقلي الواضح الذي يستمد المعاني من الدلالة اللغوية للكلمة لكي يتشكل العقل في مسرح تشابكي من العناصر الكونية. والأدب في المغرب العربي أخذ يجنح إلى القصيدة الحديثة ولا أدل على ذلك من تدفق الدواوين الشعرية التي تسلك ؛هذا المسلك وتنحى هذا المنحى العالمي الاتجاه من ذلك ديوان " أجراس الأمل " للشاعر عبدالسلام بو حجر، والذي يضم بين دفتيه ست عشر قصيدة طبع عام 1985 م والديوان يمثل الحضور المشرقي الدائم في الوجدان الإبداعي المغربي فأنت تعيش في النص وكأنك تصحب الأخوة الفلسطينين والأحداث اللبنانية من مقاومة العدو ومن أحداث بطولية وحصار وألم وأمل وسجن وتعذيب وأعمال فدائية نسائية تعلن دمها ونفسها وحياتها وآملها فداءاً للأرضي الفلسطينية.

والشاعر عبدالسلام بو حجر يستهل ديوانه بقصيدة (محجوب) رمز لذلك المسلم العربي المشرد عن أرضه الذي حجبه الإسرائيليون ومنعوه عن رؤيتها وكيف أن قلبه يمثل واحة الحنان وفي صدره ثورة بركانية هائلة له آمال دائبة من أجلها وعليه الآم تثقله ورغم كل الجراح والاحتراق فإنه يعلن التحدي الكبير:

يتحدث محجوب

في صوته نبرة للتوهج

في صوره جيل يتحرك

في دمه واحة للحنان

لمحجوب باباں

حين نريد الدخول إليه

لنطلب أسراره الدموية في الحرب والحب

باب يطل على أمل

ثم باب يطل على ألم

فنقول له:

احرقتك السنون

عرفتك السجون

وتألمت حتى ولدت

ونراك تغني التحدي الكبير

على سلم الاحتراق الطويل

فكأنك ترغب الانتقام

وأنت معي ترى قدرة الشاعر الإيحائية تبزغ أحياناً في مثل قوله تألمت حتى ولدت" حيث المعاناة التي حطمها الأب والأم وما كابدته الآم الحمل من هجمات وهموم وتشريد ومثلها: "على سلم الاحتراق الطويل".

والشاعر يرمز للوطن بالمرأة المعشوقة فهي تمتلك الشاعر فتحاصره حتى لا نجاة وامتداد الحب امتداد للحياة وزواله هو القضاء لذا فإن تدفق الحب والحنان والعطاء والفداء يتجلى في قصيدته "الحصار عشقاً" (حيث يخاطب سيدته) وسيدته هي فلسطين العرب والإسلام التي يمنحها الجدول العامر بالحب وبالحب الصوفي المهيمن:

سيدتي:

أشعر أنني محاصر بعينيك

أرى بينهما موتي

أرى بينهما بقائي

كطائر مصفد بالعشق

لا يقدر أن يخرج عن خريطة السماء

مني إليك كل هذا الجدول الدافق
بالشعر و الغناء
مني إليك كل هذا الجدول العامر
بالحب والحديد
بالتشوق الصوفي للقاء
سيدتي
يتسع الصمت، ولا يتسع الحرف
لهذا الجبل الراقد في دمائي
الجبل الذي يروم ساعة النداء
ندائك الجميل والعفيف
يا أجمل من لم أرها بعد
ندائك الذي يحسم في تقاطع الأضداد
كالسيف و كالسناء

هذه الأرض العربية الحبيبة فإن ابنها عاشقها ومادام محباً فإنه سيحطم القيود والحدود ويمتطي المخاطر ويهجم على المشانق ولا يب إلى ويتصدى للقنابل بقلب العاشق الذي لا يب إلى بما سيصير بعد اللقاء:

أعلم يا سيدتي
أنك توجدين خارج اليد
على مسافة من المشانق التي تحبك
والذين يضمرون للمعذبين أكبر العداء
لكنني أراك يا سيدتي
حقيقة محفورة في جسد الضياء

في كل حين تعلنين صوتك القاصف كالرعد

على مسامع الطغاة

والمقوقعين في جلودهم

برغم الرعب

والترغيب والترهيب

والسوط والافتراء

وأخيراً يعلن الحقيقة التي ترسخ في قلب كل فلسطيني وعربي:

أشعر أنني محاصر بعينيك

أرى بينهما موتي

أرى بينهما بقائي

لأنني جبلت

من طينة الاغتراب والعذاب والفقر

فأعلنت لك انتمائي

ص10

ويسطر عبدالسلام بو حجر السجلات الفلسطينية والعربية واللبنانية في كثير من نصوصه الشعرية فتأتي قصيدته "الحضور" وفيها يقف الشاعر الرقيق مطلاً على الأحداث المؤلمة في لبنان.

وقوفاً............. وقوفاً

إلى أن يذوب الحصار

ويبدو النهار

هنا طائرات تغير

شوارع مفروشة بالدماء

وبيروت أقوى من الفتك والموت

أو من رصاص العدو السادس

والديوان يعالج القضايا العربية السياسية معالجة شاعرية وجدانية فينزف قلبه الحب والعشق ولكن للوطن العربي السليب فهو يستلهم الأحداث وتشديد الحصار والتصدي والرفض القاطع من الأخوة الفلسطيني الذين حاصرهم اليهود في بيروت وليس هناك من يخاطب المقاتل ويناجيه إلا الغيمة والشمس والموجات الإذاعية التي تتنبأ بمزيد من الأمطار القاتلة في قصيدة "القراءة" من كتاب الرفض:

صبوات الأزمنة الصفراء

في موسم هذا القحط

هذا ما قالته الغيمة في همس

الغيمة وهي تعانق في أفق الشمس

في نشرة أحوال الجو المتقلب هذا اليوم

وقالت إن الطقس

ستشوبه أمطار النهار الغد

بمخاض الزوبعة الجبلي

يعلو صدر الريح الثكلى

ولا أستطيع أن أتابع القصائد الفلسطينية بالتحليل والاستنطاق غير أني لا أحجب عن القارئ الكريم قصيدته "تأتي إليك":

تأتي إليك

لتقول رحلتنا تكون

إلى فلسطين العظيمة والجنوب
ويصعد الشهداء من قبر الوصاية
من رماد الأربعين
إلى يديك
تأتي إليك
لتطل يا عبدالعزيز على الجريمة
والدماء تسيل من يافا إلى بيروت
من بيروت حتى آخر الدنيا
ترى الوطن المحاصر داخل القضبان والشهوات
والصحف الأجيرة
والبكاء على الديار
وبائعي الوطن المكبل بالمزاد
فترتمي في أذرع الأرض التي احترقت
وتفتح ساعديك
وتأتي إليك
ليضيع ذاك الفرق بين الفعل والأفكار
بين الظل والأشجار
تخرج من منابرهم
محابرهم
مجازرهم
تقول: هل العروبة أن نغني للصليب
لمجلس "الأمن الحبيب"
وبين مؤتمر دماء(1)

(1) عبدالسلام بو حجر، أجراس الأمل 23

وفي قصيدته "حوار الجنوب" في المقطع الرابع يعلن الحرب على الأعداء في الروح العربية ويطلب رفع الوصاية ووضع أسوار من الحماية للدين والحضارة والوطن:

ثم يقولون:
أن العروبة تسكن جلد الأفاعي
روافدها تلتقي في مصب الوصاية
كل نوافذها الآن مشرعة للذئاب
تجيب:
متى ينجلي الفرق
بين الحصان وراكبه
الدم المشرقي يسيل
من الأرض للبحر
يافا وبيروت وجهان للطلقة الواحدة
والدم الأحمى يسيل
ويبدأ من ساحات (المعجزات) هناك
إلى أطلس الجبهات هنا
ثم تسمع أغنية من رحيق الدماء[1]

والديوان بحر يموج بالألأم، والجراح العربية ما عدا القضايا المغربية ويعالج الأحداث بصيغ تعبيرية تثير الغرابة يتخللها التخيل الحضوري المستمر وفق مقتضيات الحدث المعالج الناجم عن استقراء الوقائع التي تتشكل على مسرح الحياة وتشعباتها متمازجة مع الاتجاه الفكري المسيطر على الشاعر والواقع وأن مضامين الشاعر عبدالسلام تهدف إلى التلاحم العربي واسترداد الوطن السليب مع الاحتراس الشديد عن التجاوزات

[1] عبدالسلام بو حجر، أجراس الأمل 31

الدينية التي وقع فيها بعض أصحاب الاتجاه اليساري من الشعراء في المغـرب العربـي ويعتمـد في شكلانيته القصيدة على الصياغة الحديثة الملائمـة للتجربـة مـع التحلـل مـن قيـود القافيـة والوزن والتقسيم المعتدل للبيت الشعري ويسخر اللغة لبلورة التشخيص الذي يرمز له بـالمرأة فهو يفتديها بحياته ولكن هذه المرأة ليست حقيقة وإنما هي رمـز للـوطن لأنهـا الأم والأخـت والزوجة ومنبع الود والحنان فلا شيء يعدلها سوى أرض الوطن.

من الجدير بالذكر التنويه بالرمز الذي استخدمه الشاعر فإنه التـزم الاعتـدال والـذي تميل إليه النفس ولا يجنح بها إلى الغموض أو التكثيف الممل.

والديوان مع صغر حجمه وقلة قصائده فإنه يمثل التـآخي والتـآزر، وتبـادل الـشعور واتفاقه بـين أبنـاء الـبلاد العربيـة والإسـلامية في المـشرق العربـي وشـقه الغربـي رغـم إرادة التصدع لهذا الجسد وشعر الشاعر يبلور أصداد الشباب العربي الذي يتصدى لأمواج المآسـي التي تتداعى على الكيان المنهك، فيئن تحت وطأتها، ويصرخ بجنـون في وجـه زارعـي الظـلام وسافكي الدماء وأخيراً فإن الشعر ترف الشباب الـدائم الـذي لا يفـتر عـن الغليـان والعـدو وراء الحلول مقبلاً ومدبراً ذات اليمين وذات الشمال.

ديوان إشراقات

ومن الإصدارات الأخيرة وبواكير أنتاج الشاعر عز الدين الإدريسي ديوانه إشراقات المطبوع عام 1406هـ-1986 م بمطابع النجاح الجديدة / الدار البيضاء والشاعر من مواليد عام 1942 م ودرس بكل من كليتي الآداب والحقوق بالرباط، تنّقل كثيراً في دول الخليج العربية فزار الكويت والإمارات العربية ودولة البحرين ثم عاد إلى المغرب وهو يعمل في المحاماة بمدينة الدار البيضاء وقد قال في المقدمة أن ديوانه ينقسم إلى جزئيين اثنين:

الأول: ويتعلق بأغراض شعرية كالوصف والمدح والرثاء والتغني بالأمجاد والبطولات الوطنية وضم خمسة وعشرين قصيدة.

الثاني: ويتعلق بالجانب الوجداني أو العاطفي وضم ستة وعشرين قصيدة كلها تعبير عن المشاعر الفياضة والأحاسيس الإنسانية دون تكلف أو تصنع[1].

ومضامين الديوان تدور حول التغني بوطنه المغرب ورجالاته وأبطال الاستقلال وعشقه لهذا الوطن وأمجاده وتاريخه العريق ومما دعاه يشعر بهذه الحرقة بعده عن وطنه حيث قضى بعض الوقت في البلاد المشرقية العربية، غير أنه يستهل ديوانه بمناجاة الرسول ﷺ في قصيدة ذات العنوان "يا رسول الهدى" ويتبعها بقصيدة "مناجاة" يقف ضارعاً خاشعاً أمام الله سبحانه وتـع إلى مستمداً منه العون والرجاء في كشف الكربات والهموم المحدقة بالأمة الإسلامية ومعرجاً فيها على الواقع الإسلامي والاجتماعي والسياسي في إشارات عابرات:

إلهي وأنت رجاؤنا في ليل الظلمات

عم السواد قلوبنا وادمتها الكربات

ولفت أرواحنا الأحزان والهموم والقائمات

لم نعد نرى سنا أنوارك المشرقات

---

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 6

تغمر الأكوان وتتجلى ناصعات
تضيء سبل الخير والفضل والبركات
وتمنح الحب والصفاء والآمال العريضات
لقد تخلينا عن مبادئ الدين الراسخات
وينابيع الحكمة والهداية والقومات
وتنزيل الوحي وآيات الكتاب المحكمات
وسنة النبي الهادي سيد الورى والكائنات
انغمسنا يارب في المهاوى والملذات
واستطبنا عيش الدعة و الشهوات
و استبحنا حرمة الأمجاد والمقدسات
وسفكنا دماء الأبرياء بدعوى النضالات(1)

وله قصائد متعددة يتحدث فيها عن بلاد المغرب ذاكراً التاريخ الحديث والحاضر مشيداً بالملك الحسن الثاني وعلال الفاسي مسجلاً ما قاد البلاد إليه من حرية واستقلال ووحدة ونضال معرجاً على المسيرة الخضراء وتحرير العيون والصحراء ونحن نقتطف بعض المقطوعات من قصيدة (صرخة الأطلس)

من بين جبال الأطلس الحصينة المنيعة
تردد صوت الجهاد والبطولات الأبية
لاسترجاع كرامة الوطن المهانة
وتحرير أرضه السلبية العزيزة
ودحر فلول الاستعمار والتبعية
ورفع راية النصر خفاقه عالية

---

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 16

فوق هضبات وقمم الجبال الأطلسية
مختال بنيل الاستقلال والحرية
وكسب معركة الشرف والأصالة العربية
بالفداء واسترخاص الأرواح الزكية
دوت صرخة الأطلس لوحدة البلاد الترابية
تهز جنبات الجبال وتنادي للفداء والتضحية[1]

وحديثه عن فلسطين حديث العربي الذي ينظر إلى دعم الفلسطيني ولا يدخل مشاركاً معه فهو يخاطبه مخاطبة كأنه يدفع به إلى الأمام.

ويثير الحماس والوطنية بتسجيل الأحداث المروعة التي تنبع من الحقد الصهيوني في قصيدة بعنوان " فلسطين"

يا أرض الشهامة العربية
والجهاد والبطولات والتضحية
يا أمة الشهادة الأبية
في ملحات الوغى الدموية
يا معقل الكفاح بالأرواح السخية
والصمود أمام الطغيان والهمجية
ونار البطش والقهر والعبودية
كم سقيتم تراب الأرض الندية
بدماء فوارة زكية
لغسل عار الاحتلال والصهيونية
التي دنست ربوعكم البهية

---

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 42

وقتلت براعم زهوركم الفتية

واغتالت فراشات بساتينكم الوردية

وهجرت عصافير أشجاركم المخملية

وسممت سواقي مياهكم الكوثرية

واغتصبت حمى القدس المرعية[1]

وهو يشير إلى حادثة تسميم المياه في القرى والأنهار والصنابير داخل المدارس وهو لون من ألوان الاضطهاد الذي تمارسه الصهيونية في أرض فلسطين.

من القصائد الرائعة ذات النفس الطويل "وقفة بغرناطة" ووقفته أمام المعلم الإسلامي الشامخ الذي تتمثل فيه روعة الحضارة وجمالها وإبداعها وإتقانها تمثل تلك الوقفة وقفة المسلم أمام أمجاد الآباء صانعي الحضارة الإنسانية الشاملة فأحس بماضيه الحضاري وأخذ ينسج مع الأجداد بنيان الحضارة مؤمن بالله كما آمنوا مجاهداً كما جاهدوا:

وقفنا بغرناطة باكين

والدمع قد تحجر في مآقينا

لله من وقفة حب وخشوع

عند مآثرنا الغر الميامين

رأينا قصر الحمرا مزدهيا

والقباب العاليات شامخات

زخرف ونقش وماء في ابهائه

والعز لا زال مكتوبا على سوارينا

في كل ركن من أركانه سحر وجمال

وآية من الابداع والأفانين

---

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 46

نطق الحسن في جنباته مرتلا
نغمات الخلود السرمدي في العالمين
دخلنا محراب صلاته ونسوكه
فسجدنا للواحد القهار خاشعين[1]

ولكنه لم يلبث أن يعرج إلى التحلل من الدين الذي كان العنصر والمحور الأساسي في خروج المسلمين من بلادهم ويتبعه الفساد والراحة والدعة حتى عصفت بهم رياح الهوى وانحلت أخلاقهم وخضعت هاماتهم للذل الذي يرتكز على الاعتدال الإنساني فهو يمثل الخطرات ولكنه لا يتجاوز إلى كثيرة في المهلكات فهي تخلو من الوجدانيات السافرة، ومعاقرة الكأس التي تزخر بها دواوين بلاد المغرب ونحن نصحب الإدريس في مقدمة قصيدته (عيناك):

عيناك حبيبتي شراع تائه
في خضم الذكريات الحالمات
لونها الأزرق يحملني
في ثنايا أمواجه الهادرات
فأخش من الغرق الأكيد
في لجج اليم العميقات
فأين منى شاطئ النجاة
وقد تملكني هواك دون مقدمات
أني سيدتي لا أحسن السباحة [2]

---

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 94

(2) المرجع السابق 116

والقارئ لـديوان إشـراقات للـشاعر المغربـي عـز الـدين الإدريـسي يـرى الوضـوح والصراحة والتقرير الأسلوبي كأنما يسير على خطى أولئك المادحين الأوائـل الـذي يتحـدث عن الغير وينسى ذاتيته وتفاعله معها ذلك في بعض قصائده التي تتـسم بالوضـوح والتقريريـة رغم وجود تيار كبير في المغرب يدعو إلى الإيحائية والغموض أن يعود وأعتقد أن الـذي ألهـم الشاعر هذا الأسلوب ونأى به عن الغموض والسير في ركاب هذا التيار.

الشاعر أولا وقبل كل شيء محامي والمحامي واضح شديد الصراحة ميال إلى المنطقيـة والبراهين ثم إن الشاعر طوف في بلاد المشرق وخاصة دول الخلـيج وتـأثر بالتيـارات الأدبيـة التي تميل إلى المعالجة الصريحة أضف إلى ذلك كون الرجـل يحمـل بـين جنبيـه مبـدأ العقيـدة والوطنية ويوظف شعره لهما لذا فإنه انطلق من مبـدأ الوضـوح والتـدفق العـاطفي وإيـضاح الصورة حتى تجد لها مكانة وقبولا والذي الحظه فقدان الصور وتلاشيها في شعره الوطني فـإن التخيل وامتزاج الصور وتداعي الأفكار وترابطها الفني كان بمعزل عن الشاعر لغلبـة المنطقيـة على تفكيره والذي يظل دائماً من محاسن الشاعر ووجدانياته العفيفة واحجامـه عـن الوقـوع في الخطأ رغم الصراحة غير محببة من شعراء زمانه ومعاصريه في وطنـه ممـا يـدل علـى تـشبع الشاعر بالروح الإسلامية ومن الأمر البين اعتماد الشاعر على النغمـة أو النـبرة في القافيـة في أغلب قصائده وأحداث جلجلة صوتية تنأى عن الجمالية الفنية في أكثر مناحي الديوان.

بين يوم و ليلة تحلل القواد
من رباط الدين العتيد عمياناً
وانغمسوا في الشهوات والملذات
بين الجواري والحسان منتشين
وما أفاقوا من سباتهم العميق
إلا وقد حاقت بهم المصائب خاسرين
خارت قواهم وأغلت أخلاقهم[1]

---

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 98

ويختم قصيدته بما يثير الأشجان والأسى الناجم عن فقدان العالم الإسلامي لهذا الفردوس العظيم:

الجرح العميق في القلوب يدمينا
والزهر يعانق الزهر باكياً
عن فقده ديار الفردوس والجنان
والحمام يودع الحمام زافراً
زفرات الأسى والندامة والأحزان
ضاعت مغاني الأنسي لنا
فكل غال بعدها قد هان
لم تعد الآثار تبكينا
وتثير لواعج اللوعة فينا[1]

وللشاعر قصائد عديدة في الوجدانيات وتحس بصدق العاطفة وتدفق التعبير وتداخل الصور والإشعاعات الإيحائية الخاطفة التي لا تطل على مشارف الغموض وتجنح إليه غير أنها تعبيرات صادقة في لحظات غرامية واقعية تمثل النظرة الإنسانية للحب.

يخضع الحراك الأدبي للحراك الخارجي والداخلي ولكن قاعدته الصلبة هي الموروث، والتوارث الاجتماعي، وحراك الواقع الاجتماعي المعاصر بكل شرائحه الشعبية والسياسية، وعلاقته بالخارجي.

والأدب في دول المغرب في مهب رياح الفكر منذ قيام دولة الإسلام في الأندلس فهو جزء من حراك الأدب الأندلسي الذي له كبير الأثر في التأثير الفكري والأدبي وسائر مكونات الحضارة في الأدب الأوربي، ونحن ندرك أن الأدب في أقاليم المغرب العربي وأقطارها، خضع في تكوينه الحديث للمكونات الداخلية من خلال الضعف السياسي

---

(1) عز الدين الإدريسي، إشراقات 103

والفرقة والجهل والفقر وتتعانق هذه مع التواصل مع المغرب وهـذا التواصـل يحمـل اتجـاهين متوازيين وإن كانا متضادين أحدهما إشراق أوربا بالعلم والنظام والتطور فقـد أذهلـت أهـل المشرق بتطورها وأرادت الشعوب العربية الاقتباس من تلك الحضارة ولكـن العنـصر الثـاني وهو الحربي الاستعماري، واتخذت الدول الأوربية السياسية تلـك الوسـيلتين ولكـن الحـرب هي البارزة وحرب المجتمع وحجب التطور بألوانه كان هـدفاً للمـستعمر وكأنهـا تـضع ببعـد أمام الشعوب وتحجب وصولهم إلى مصدر الضوء.

ولكن النتيجة أن الـشعوب المقهـورة أخـذت تـدعو إلى القـيم الإنـسانية والعقليـة، والمعرفية المنطقية وكان جلّ القيم الأخلاقية تتعانق مع القيم الدينية المثاليـة والقـارئ للإبـداع باختلاف مستوياته الفنية يدرك الـدعوة للقـيم والأخـلاق الإنـسانية العالميـة ولـو عمـل بهـا الغرب وعامل بها البلاد المـستعمرة لكانـت حـضارته مثاليـة ولكنـه الـدول المتقدمـة حملـت عنصرين جعلت السياسة منهما عناصر متـصارعة متحاربـة، فأضـحت عوامـل فتـك للأمـم وانظر إلى أفريقيا الآن رغم رعاية الدول المتقدمة لها ولكنهـا مـا زالـت محرومـة مـن التطـور بفعل تلك الدول المهيمنة إن الحضارة الغربية تكشف عن نفـسها بعـد طـول معايـشة، فأنـت تقرأ قصيدة للشاعر المغربـي عبـدالكريم الطبـال الـذي عـايش مرحلـة الاسـتعمار ومرحلـة الحرب ضد النهضة والضعف من الـداخل فهـو يـشتكي مـن ذلـك المـارد المـدمر للحيـاة في الأوطان وما يزرعه من أعوان.

فالإنسان العربي يحيا ولكنه مريض بالجهل ويحيا و لكنه محجوب عن النور ويـشرب ولكن ماءه ملوث، ويتحدث ولكن خاضع لتحويل الخير إلى شر وتسويق الـشر باسـم الخـير يقول:

قال المذيع الرائع في الصوت وفي الوجه
أحباب القلب.يا مستمعي الإذاعة النبية
الخبر الأخير: كل شيء في أحسن حال
تأتي إلى بلادنا الفصول الأربعة

لا نطلب الجواز من أحد
حتى من الصيف الطائش
تدخل الشمس في كل صباح
قبل أن تستيقظ الخليقة
الشجر الساكن في السهول والجبال
لا يقدم الجزية
الصوت القادم على الأمواج
لا نمنعه من الدخول
المطر الذي يسقط
لا تحجبه عنه الأرض
حتى الإنسان لا نمنعه من شيء
يستقبل الشمس إذا يشاء أو الليل
يشم العطر أو النتن
يجوع أو يشبع
يلبس أو يعري
يصح أو يمرض
يموت أو يحيا
ينام في النهار أو في الليل
يشرب الماء أو الشاي
يكسر رأسه على الجدار أو يكسر الجدار على الرأس
لكننا فقط نمنعه من أن يحلم في النهار[1]

---

(1) سيد حامد النساج، الأدب المغربي 213

إن القصيدة نابعة من تجربة شعورية نفسية تحمل هاجس ذلك الشاعر ولكن الناقد والمتأمل في أحوال الأمة العربية بأسرها أي كل إنسان فيها، فهو يشاطر الشاعر بل إن هذا الهاجس متوارث تاريخياً ومشهده للمعاصر لا يحتاج إلى برهان ولو قرأنا الشعر العربي للدول المغربية وللدول التي تعرضت للاستعمار لوجدنا الشعر يلتقي مع نبض الشاعر.

الأدب في دول المغرب العربي

أولاً : شعر الارتجال و الطبع

كان الهاجس في بداية النهضة يتمثل في القهر الذي يعاني منه الإنسان في المغرب العربي ومن مصادر الألم الشعوري الاستعمار والتخلف والفقر والحروب والانقسام الوطني ولذا كان الأدب يحمل هدفاً وغاية وانفعالاً شعورياً ممزوجاً بالعقلانية الفردية والاجتماعية والوطنية فالغاية من الإبداع هي إثارة الانفعال الجمعي في اتجاه قضايا ملحة مما فرض الأدب الانطباعي الانفع إلى الذي يقوم على تأكيد المعنى والمضمون فالعناية الأولى بالفكر والفكرة فظهر الشعر الواضح المعالم الذي يخاطب الأمة فلا عناية بالشكل وتفيض تجارب الشعراء والعلماء والمثقفين بالتغني الوطني المتمثل في الأناشيد ثم بالشعر الذي يحمل مضامين معاصرة مما جذب المجتمع إلى هذا الشعر الذي يحكي واقعه ومن شعراء الأناشيد المكي الناصري يقول:

فؤادي إلى وطني قد صبا تعشقته منذ طور الصبا [1]

ومنهم علال الفاسي:

كلنا من عربي خالص أو بربري[2]

ومن الشعراء الأوائل الذين أحيوا الشعر بمضامينه الحماسية التي تلامس قلوب المجتمع يقول محمد الجندي بعد غزو المستعمر:

عن يميني وعن شم إلى قيود وأمامي جيل معنى شريد

---

(1) عبدالله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث 147

(2) المرجع السابق 148

يتلاشى مع الزمان و يفنى　　　و يعاني ما لا يعاني العبيد

ضرب السد حوله ورماه　　　بسهام الردى رقيب عتيد

فكان البنين سرب ضحايا　　　والفراعين للوجود تعود

وكأن المغير أمضى عقوداً　　　مع هذا الزمان ليست تبيد

وكأن الشباب منا هباء　　　دون قوم و العيش عيش رغيد

ويفصل مكي الناصري هموم المواطن والوطن وأن الحالة الاستعمارية أوجبت الجهاد، ويتمنى جيلاً من الأمة يبنون العقول وينشرون المعرفة ويسعون جادين للبناء:

حق البلاد على بنيها　　　حق يقدسها الإله

حتى متى وبنو البلاد　　　على قداستها جناه

مجد تهدم هل له　　　من بينكم قوم بناه

عز تحطم هل له　　　فيكم مغاوير أباه

داء تفاقم هل له　　　منكم أطباء أساه

الخطب جل وليس غ　　　ير بني البلاد لها حماه

أحيوا البلاد وعلموا　　　شبانها كيف الحياه

هذا الشباب ذخيرة　　　بل ليس من ذخر سواه[1]

والشعراء في زمن المعاناة من المآسي الفردية والاجتماعية والوطنية في منأى عن الاعتناء باللغة والتزيين الشكل الفني بل الفكري وإنما همهم الفكرة المؤثرة ولذا فهم يخاطبون المجتمع بما يحتاجه الشعب من المضامين يقول المهدي الحجوي:

إلى متى نترك التعليم مهجوراً　　　ونحسب العلم في الافرنج محصوراً

(1) عبدالله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث 151

إلى متــى نــستلذ النــوم و احزنــي ... وغيرنـا يطلـب الدسـتور والـشورى

متـى نفيـق وعـين الـدهر شاخـصة ... تقضى على كل من قـدبات مغـروراً

هبـو إلى المجـد يـا أبنـاء مـن رفعـوا ... للمجـد صـرحا بعلـم كـان منـشوراً

هبو إلى المجـد يـا أبنـاء مـن حكمـوا ... أقصى البلاد بسيف كـان منـصوراً[1]

هب علماء العالم العربي والإسـلامي ومفكـروهم إلى عمليـة التكامـل للبنـاء فهـم أدركوا الواقع السياسي وهم أيـضاً وقفـوا بجانـب القـيم الإنـسانية والعقلانيـة فحثـوا الأمـة وشبابها على التلاحم مع القيم التي تنمـي الأمـم بـل الفـرد وهـذا الـشأن نلاحظـه في بدايـة النهضات في مصر والشام والعراق وجزيرة العـرب ولـو أخـذ العـالم العربـي بهـذا التكامـل وابتعد عن الثنائية لوجدنا خيراً كثيراً يقول الشاعر المدني الحمراوي عن تلك القيم والالتـزام بها:

يــا شــباب الــبلاد مهــلاً فــأني ... قــد رأيــت الــشباب في اســتهتار

لا أرى نجحكـــم إذا لم تـــصونوا ... شـرف الـنفس مـن فـسوق وعـار

قـــد رأينـــا جمـــوعكم تتهـــاوى ... في خيـــاض الخنـــا بـــدون اســـتتار

فاسـتطابت مـن الهـوى كـل لـون ... يتنـــافي مـــع الحيـــا والوقـــار

واسـتحلت مـن الفجـور صـنوفاً ... حرمتهـــا شـــرائع الكفـــار

كـم رأينـا علـى الطريـق شـبابا ... قتــل العــرض جهــرة في نهــار

فــإذا لــيم قــال حــراً أرانــي ... أيــن فحــش مــن عفــة الأحــرار

إنمــا الحــر مــن يــصون عفافــاً ... ويجـــافي مخـــازي الفجـــار

إنمـــا الحـــر مـــن تحـــرر حقـــاً ... قلبـــه مـــن قبـــائح الأوزار

فأعـــد أيهـــا الـــشباب صـــواباً ... كـــاد يفنـــى في غمـــرة التيـــار

وتعلـــم مـــن الحيـــاة دروســـاً ... تنـــذر المـــرء أن لهـــا بانـــدحار

---

(1) عبدالله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث 151

إنما هــذه الحيـاة صـراع	**لا يـرى الفـوز فيهـا غـير الخيـار**
ويـح مـن غـره الـشباب فأمـسى	**يتلـف العمـر بـين حـان و (بـار)**
يرشـف الـسم مـن شـفاه مـراض	**ويـضيع الرشـاد حـول القمـار**
فـإذا أدبـر الـشباب تـو إلى	**غمـه بـين علـة وافتقـار[1]**

إن هذه الأبيات لا تستدعى المنظار النقدي الع إلى للمعالم الجمالية وإنما تهدف إلى الشحن الفكري للمجتمع فالمضمون هو الغاية والهدف في زمن قلّ فيه التعليم والدراسات العليا والنقد الصحفي فالأمة مشغولة بالحرب على المستعمر والجهل والفقر، وفقدان المعرفة العلمية وقد كثر شعر العلماء والأدباء والمفكرين وكذلك أكثر الشعراء من الأناشيد التي يتفاعل معها المجتمع وشبابه، وكثر شعر علماء الحلقات والتدريس، وأكثروا من الشعر في محافل المدارس ورجال العلم، والمناسبات الدينية مثل الصوفية وتحفيظ القرآن.

وهذه الانطلاقة الشعرية التي تقوم على الارتجال، والاتباعية وشعر العلماء، فقد جعلت من الشعر قوالب جديدة لاستحواذ المفاهيم الحديثة شيئاً فشيئاً وهي قد بدأت في مصر ولبنان والعراق وسوريا ودول الخليج وفلسطين والسودان والأردن، إنها تمثل الجذوة التي نفضنا عنها الرماد فاشتعلت وقد ظهر هذا الاتجاه في شعر الشعراء الجزائريين والتونسيين والليبيين، فالقارئ لديوان شعره يجد مساحة كبيرة من هذا اللون، ويتميز هذا الشعر بأنه منبعث من كم هائل من القائلين أكثر من الشعراء المشهورين.

يتداعى الإسلام بفصل الإعلام المجمد للعقول، والقاتل للهمم والعزائم، فالإعلام اللاهي الملهي بهزله ولعبه ومغامراته وألعاب المجالس فتجد له أثره على شباب الأمة الإسلامية والعالم الآخر الخاضع لهيمنة الأمم الغالبة واستحواذهم، ولكن حين ترى طغيان الشعوب الغربية الأمريكية والأوربية والروسية وما لحق بهم من الدول العظمى الناشئة إن هذه الدول تضع كل قوتها لإضعاف المجتمعات العربية زيادة لها على ضعفها وتمزقها، فإنها

---

[1] عبدالله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث 173

عودتنا وأدركنا منها إنها جالبة علينا بقواتها الأرضية والسماوية وقذائفها عبر الأجواء أو بفعل عملية الاستخبارات وزرع القلاقل الداخلية والفرقة فإذا أجهزت على البلاد العربية أو على بعضها مع ممارسة الضغط على الآخر فإنها تحتل أو تفرق، مع هذا التدمير الإسلام يشتعل في قلوب الشعب وكأنها مرحلة تجديد إسلامي يقوم به العدو ونحن مع العالم المجاهد بالفكر والإصلاح عبدالحميد باديس يصور ذلك:

شعب الجزائر مسلم	**و إلى العروبة ينتسب**
من قال حاد عن أصله	**أو قال مات فقد كذب**
يا نشء أنت رجاؤنا	**وبك الصباح قد اقترب**
خذ للحياة سلاحها	**وخض الخطوب ولا تهب**
نحن ال إلى عرف الزما	**ن قديمنا الجم الحسب**
ومعين ذاك الجد	**في نسل العروبة ما تصب**
من كان يبغي ودنا	**فعلى الكرامة والرحب**
أو كان يبغي ذلنا	**فله المهانة والحرب**
هذا نظام حياتنا	**بالنور خط وباللهب**[1]

إن القرنين الماضيين ولدا الأكذوبة الفنية الأدبية التي تدمر المعالم الجمالية فتسير جنباً إلى جنب مع الضعف التقليدي، بل إن الاستعمار العربي حمل راية التضليل الإعلامي، والتدمير الفكري السليم فإن احتلال الأوطان وقتل الشعوب المستعمرة وبذر الخلاف والحروب أمر تحول إلى أعمال خيرية في نظر الإعلام الغربي وكذلك من تلبس باسم الدين من المسيحيين أما الدين المسيحي فهو براء كما نزل على حقيقته على عيسى بن مريم عليهما السلام.

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 192

إن التاريخ يسجل تدمير الإنـسان وإنـسانيته، في حـروب الاسـتعمار ولعـل حقـوق الإنسان تفتح ملفات تاريخية، إنها تمثل تدمير الإنسان من أجل رفاهية إنسان آخر، إنها تعمـل على فقر شعوب إنسانية من أجـل رفـاه شـعوب إنـسانية أخـرى أو مـن أجـل رفـاه كـلاب وحيوانات أليفة بانتزاع ثروات الإنسان الفقير الضعيف ليس الأمـر مقـصوراً علـى الجيـوش الظالمـة بـل أقتفـي أثـرهم المفكـرون والأدبـاء فأخـذوا يحـدون و يبـاركون القتـل والفتـك والاحتلال وتدمير مقدرات الإنسان ويصافحون أولئـك الجنـاة الطغـاة فـالإعلام ووسـائله، وأصحاب الفكر من الكتاب، وجيش من الشعراء باركوا سيول الجيوش على الأمم الـضعيفة بمد يدّ العون و الإنسانية وبـث المعرفـة ولعـل الغـرب أنفـسهم لـو عـادوا القـراءة الـصحف والدواوين الشعرية لأوقعوا اللوم والخزي على أنفسهم فلعل البحث العلمي الإنساني يعـود لقراءة التاريخ ويكشف عن طغيان الإنسان الذي يباهي بعلمه وتطوره.

" وانجرف عدد من الأدباء في تيـار العجرفـة العرقيـة، والتـع إلى العربـي، والاسـتهانة بكرامة الشعوب، فرأوا في التدمير والقتـل، وتفلـت الغرائـز، واسـتغلال خـيرات الآخـرين، دليلاً على الرقي الأوروبي، فرأينا مثلاً، بعد تسع سنوات من سقوط الجزائر، وبالـضبط في 9 تمـوز 1893، الـشاعر الفرنـسي " الفـونس ده لامـارتين (1790-1869) يقـف في الجمعيـة الوطنية يمـدح الـذين قـضوا علـى كلمـة " مـستحيل " متغنيـاً بالـسياسيين والـضباط والجنـود لإقدامهم على فتح الجزائر لتكون، حسب تعبيره، نافذة هواء جديد لفرنسا. "

هكذا انطلقت ملحمة الجزائر التي امتدت فصولها ومآسيها عشرات الـسنين، ليتـألف من أحداثها وملابستها ونضال محاربيها وأدبائها صفحات مثالية من العناد المستميت للحفـاظ على التراث، وإغنائه بجهاد جديد ضد قوى قاهرة ومدمرة.

أشار إلى ذلك الشاعر الجزائري محمد بن دويدة، رافعاً إلى شوقي تحيـة شـعب رازح تحت المحنة:

شوقي إليـك وإنْ قـصَّرْتُ في كلمـي ... أهْـدي تحيّـةَ شـعب لجَّ في نَـصَب

شـعب ثـو إلى عليـه الخطـب يفجـع ... في كـل يـوم بـأنواع مـن العَطَـب

فلــم يــزل وصُــروفُ الــدهر تُؤلمــه ... بــين المخــاوف يــشكو حمْلــةَ الغَلَــب

والشاعر الطيب العقبي يصف حالة الشعب الجزائر بعـد الاحـتلال مـن الفرنـسيين أصحاب الديمقراطية والحرية، فيدعو للتبصر بحال هذا الشعب المدمر بآلة العلم:

عــرِّجْ علــى قطرنــا وانظــر لحالتــه ... فمــا لُــه اليــومَ بــين النــاس تُخزينــا

يا معــشر القــوم هبــوا مــن سباتكم ... طــال الزمــان وكــم غنــى مغنينــا

ولا سميـــع لنـــا مـــنكم وكلكـــم ... أصـــبحتم لقـــديم المجـــد ناســـينا[1]

وتألم الشاعر عمر قدوري من حالة الفقر والجهل والاستعمار والأبيات تكشف عـن إصرار الشعب على المعاناة رغم استمرارها ويتمنى زوال تلك المعاناة:

يا شرق هل هــذي المــصائب تنجلــي ... أو ينتهــي الغليــان مــن ذا المرجــل

وانهــض فــديتك و اتخــذ لــك قــوة ... مقرونـــة بالـــسعي دون تمهـــل[2]

ويصف الشاعر سعد الدين الخمار الشعب بأنه هالك مدمر فيقول الشاعر:

قفــا نبــك شــعباً ميتــاً يــزدرى بــه ... وما الموت إلا الجهل والضيم والكدر

بني جلــدتي لا تيأســوا وانهــضوا بنــا ... فلليــسر كــرات إذا امتلــك العــسر[3]

نقل الشعراء الجزائريون صوراً خالـدة للفتـك والـدمار والقتـل والاغتـصاب وهـذه الصور المرعبة المفزعة التي قام بها الغرب المتحضر هي أنمـوذج متواصـل المـسيرة منـذ قـرنين

---

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 188

(2) المرجع السابق 189

(3) المرجع السابق 189

ونحن وشباب الأمة العربية تتراكم عليه هذه الصور انظر ما حدث في العراق وفي سـوريا وفي ليبيا يمثل التراكم في شباب الأمم يقول الشاعر أبو القاسم سعد الله:

نجروك.. حرقوك
دون عطف أو ضمير
دون وجه من حياء
يا لهم من جبناء
هكذا ينتصرون
يشنقون الأبرياء
ويصبون الخراب
كالجراد
كالتتار الزاحفين(1)

---

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري 378

محمد العيد محمد علي الخليفة

ولد الشاعر محمد عيد الخليفة عام 1323 ه في مدينة عين البيضاء، ودرس هناك ثم انتقل إلى بكرة وأكمل دراسته على يد المشايخ هناك ثم انتقل إلى تونس ومكث بالجامع يدرس على علمائه ثم عاد إلى الجزائر والتحق بفكر الكفاح وقام بالتدريس وصحب علماء الإصلاح وسجنه المستعمر تارة وتارة أخرى خضع للإقامة الجبرية وتاريخ حياته انموذج لتاريخ الجزائر في مراحل الجهاد والكفاح ثم الانتصار[1].

ثم يسجل الشاعر نتائج حياة العالم وأثره في تكوين دولة الجزائر

يا ابن باديس يا أبا الشعب قم فان	**ظر بفخر لشعبك المقدام**
قم تجد شعبك المخلّف قبلاً	**سار شوطاً مع الشعوب النوامي**
قم تجد دولة الجزائر قامت	**وأقامت بالحكم حُر النظام**
قم تجد راية الجزائر تعلو	**فوق كل الربوع والآكام**
شبت الثورة التي منك هبّت	**ريحها حين شب عود الضرام**
واستتبت أسبابها فاستحالت	**كل أنغامننا إلى ألغام**
صد جيش التحرير فيها قوى البغ	**ي ورد العرين للضرغام**
كيف تنسى الجزائر اليوم وفداً	**كنت تحتل صدره في المقام**

كل العالم العربي والإسلامي يعرف الشيخ عبدالحميد بن باديس وكان الأساتذة يسردون سيرته في كل محفل علمي وفي كل قاعة، فهو العالم الذي نشر العلم أولاً وأحيا روح الجهاد من خلال التعليم السلمي يقول عنه وهو في الزحف قائد الجيل حقاً وهو في الدين حجة الإسلامي:

(1) محمد الخليقة، الديوان

وهــو واعــي الــذكر الحكــيم وداع **يــة و راعــي مــا فيــه مــن أحكــام**

كـــان عبدالحميـــد رائـــد بـــر **طيـــب القلـــب راحمـــاً للأنـــام**

عــاش وقفــاً علــى الجزائــر والإس **لام يرعاهمــــا و في الــــذمام**

وغيـــوراً علـــى الـــشريعة يـــأبى **غـــير تـــشريعها لفـــض الخـــصام**

وغيـــوراً علـــى العروبـــة يفـــشى **ضـــادها لاهجـــا بـــه في الكـــلام**

وغيـــوراً علـــى الجزائـــر قـــوم **يـــا صـــميماً مـــن ســـادة الأقـــوام**

اتجه علماء الجزائر إلى الميدان السلمي، فأخذوا ينشرون العلـم ويقومـون بالإصـلاح الاجتماعي، فتواصلوا مع الشعب وأناروا لهم طرائق الخير، ولم يدفعوا بـالمواطنين إلى الفرقـة والتنابذ بل إلى التلاحم ما عدا بعض الشذوذ من الحكام فـإنهم رفـضوه ولم يعلنـوا المقاومـة ضده حفاظاً على السلام والتلاحم. وهذا ما كان مـن علمـاء الجزائـر الـذين حـافظوا علـى وحدة الشعب والشاعر محمد الخليفـة يـستذكر ويـستدعي مواقـف العلمـاء الربـانيين الـذين رفضوا الطغيان ولكنهم قالوا ما يعـتلج في نفوسـهم فالـشاعر الخليفـة يـسجل موقـف أحـد العلماء في وجه الو إلى الاستعماري:

موقـــف حاســـم ســـهرت بـــه الأذك **ار في وجـــه مـــن طغـــى كالحـــسام**

كتحـــدي أبـــي حنيفـــة للمـــن **صـــور أو مالـــك بـــرفض الحـــرام**

وســـعيد و المنـــذر بـــن ســـعيد **أو كعمـــر والعـــز عبـــد الـــسلام**

أو كيعقـــوب، وابـــن يعمـــر يحيـــى **وابـــن تيميـــة فقيـــه الـــشام**

هكـــذا أعلـــن الأئمـــة قـــبلاً **ســـيف إنكـــارهم علـــى الظـــلام**

ويـــح مـــن أســـخط الإلـــه وأرضـــى **بـــالهوى مـــن طغـــى مـــن الحكـــام**

يـــا ابـــن بـــاديس هـــذه فئـــة الح **ق بـــذكراك تحتفـــي كـــل عـــام**[1]

---

(1) محمد الخليفة، الديوان 499

الشاعر الجزائري يمثل الثورة الوطنية في العالم العربي والإسلامي ضد المعتدي الاستعماري والواقع أن الثورة جالت مثل المرجل في كل قلب عربي حتى الأطفال والشباب فهم يتألمون بألم الشعوب ويكتوون بنيران المدافع على الأوطان المستعمرة وأذكر في زمننا في بلدتنا تبوك إن المعلمين يبصروننا بجهاد إخواننا في الجزائر. وقد عقدت اجتماعات شعبية للتبرع والتأييد في مدينة تبوك عام 1960 م و أتذكر و أنا أقف في صفوف المدارس أن اسم والدي أخذ يصدح به منادي التبرع فيقول على الملأ عيد أبوطربوش تبرع بثمانين ريال وهي مبلغ كبير في ذلك الزمن، وما زال ذلك التبرع يذكرني به كبار المنطقة ومنهم الشيخ عناد الغريض وحتى صديقي ابنه عبدالعزيز الغريض يروي تلك الحادثة عن والده و كذلك الصديق عبدالعزيز مكي الشريف يرويها عن والده و الواقع أن سائر مدن المملكة العربية السعودية تداعت لهذه المهرجانات وقد أشاد بذلك شعراء المملكة العربية السعودية مثل أحمد إبراهيم الغزاوي.

والقصيدة الجزائرية تنقل الصورة الواقعية لكل مدينة عربية:

بلادي فداك الروح والله عالم	**عليك سلام خالصا لقصد سالم**
يحييك مشتاق على القرب مشفق	**من البعد مشغوف بحبك هائم**
له فيك ألوان من الرأي عدة	**فأبيض وضاح وأسود قاتم**
تباكره في صبحه غير نائم	**وتطرقه في ليله وهو نائم**
فآونة في ما يرى متفائل	**وآونة فيما يرى متشائم**
على أن رأي الفال أقوى علائماً	**وتقوى الأماني حيث تقوى العلائم**
فهذا بحمد الله للضاد موسم	**كريم وعيد للعروبة باسم**
وحفل بهي للشبيبة زاهر	**كروض ندي باكرته النسائم**
تلاقى به أنصارها وحماتها	**كما تتلاقى في السماء الغمائم**
وطرب فيه الناشئون وغردوا	**كما غردت فوق الغصون الحمائم**
فكل لياليها وأيامها لنا	**ولائم لم تبرح تليها ولائم**

تـــلاءم في الـــدين الحنيفـــي شملنـــا ... فبـــات قريـــراً شملنـــا المـــتلائم

أبـــى الله إلا أن يـــضم قلوبنـــا ... إليـه وأنـف الكفـر خزيـان راغـم

عطـاء لنـا مـن واسـع الملـك واسـع ... وفضل لنـا مـن دائـم الملـك دائـم[1]

الشاعر الجزائري محمد العيد يمثل رجل الأمة التي يحمل أثقال الوطن فهو رجل عـالم شـرعي، وهـو مثقـف ع إلى الثقافـة خـبير بتحولاتهـا، واتجاهاتهـا عـالم بالعلاقـات الدوليـة وأطماعها مثقلاً بهموم الوطن الاجتماعية والجهل والفقر والفرقة إنها تلك النيران الـتي تمثـل القاسم المشترك لأبناء العرب والمسلمين في تلك المرحلة، فـلا غرابـة أن يـذهل العـالم المفكـر فيما حوله من القضايا وهل لكل قضية حقيقة تحصرها أو يجمـع عليهـا الحكمـاء والمفكـرون ورجال الوطن أم أن الأمر يكون فيه اختلاف وافتراق. وقد عايشنا تلك المراحل وأخذ تطفـو علينا بالأزياء الجديدة لعل ذلك ابتلاء للمسلم فهذا الـشاعر محمـد العيـد يقـف حـائراً كلمـا تجاوز حزناً من الهموم والآلام تكشف له آخر، وكلما أيقـن بقـضية أخـذ الأعاصـير تلفحهـا ذات اليمين و ذات الشمال.

هـــل للحقـــائق في الحيـــاة وجـــود ... كادت على عقلـي الـشكوك تـسود

مـــا في الحيـــاة حقيقـــة محـــدودة ... إلا اصـــطلاحات بهـــا وقيـــود

تـــدعو إلى العرفـــان وهـــي جهالـــة ... وتـــشيد بالإيمـــان وهـــي جحـــود

مثـل الـدفوف علـى المـسامع رنـة ... خلابـــة، وعلـــى الأكـــف جلـــود

أو كلمـــا أوشـــكت أجلـــو مبحثـــا ... ضـربت عليـه مـن الـشكو كـسدود

لا ريـــب ســـر الكـــون وهـــو لطيفـــة ... لا يحتويـــه اللفـــظ وهـــو جمـــود

دنيا على الأعمـى التـوت أو عارهـا ... مـــن يرشـــد الأعمـــى بهـــا ويقـــود؟

ظلمـــات أمـــك يـــا جـــنين كثيفـــة ... شـــتى وأمـــك يـــا جـــنين ولـــود

صـــبرا علـــى ليـــل الحيـــاة وطولـــه ... حتـــى يـــشق مـــن الـــصباح عمـــو

---

[1] محمد الخليقة، الديوان 135

من مات لا ريب استهل فلا تخف — **الموت دنيا واللحود مهود**

يا موت خولت ابن آدم راحة — **ما بعد جودك لابن آدم جود**

في القبر نزل طيب وكرامة — **كبرى وظل وارف ممدود**[1]

إن الشعر العربي يفيض بقضايا الأوطان والأمة بل يغوص في أعماق القضايا التي أحدقت بالأمة فمنها من الداخل الجهل والفقر والتخلف ومن الخارج الاستحواذ على المقدرات، والاستعمار الطاغي الذي لا يهدف إلى الإنسانية، وإنما يدمر أخاه الإنسان يجذّر الصراع والفقر والجهل ويمنع وسائل المعرفة والتقدم. وهذه المعاني وقف عندها شعراء الأمة والشاعر الجزائر محمد الخليقة يمثل النموذج فهو نشأ وعايش الاستعمار وفتكه، والتخلف في الأوطان و عانى الجهاد ضد المستعمر في بلاده الجزائر يقول عن الأوطان ومعاناتها:

لقد شد بالإيمان عقد قلوبنا — **وليس لعقد شده الله فاصم**

وبوأنا في العالمين مباءة — **مباركة كالخلد لولا المزاحم**

رياض دنت للطامعين قطوفها — **فلم يمتنع منهم عن القطف طاعم**

هلم نذد عنها جوائح جمة — **تهددها من حولنا وتهاجم**

هلم نذد عنها نسوراً حوائماً — **عسى تنجلي عنها النسور الحوائم**

سخونا فسامتنا بكل إذاية — **سوائم بالمكروه فينا سوائم**

مراتعنا للناجعين خصيبة — **وأكنافنا للنازلين نواعم**

حوت أعظماً للأولين رميمة — **أثاراتها في الآخرين عظائم**

حوت أمة دانت بدين محمد — **وسارت على البيضاء والليل فاحم**

لقد كانت الأجداد أسداً ضراغماً — **بها، فهل الأحفاد أسد ضراغم؟**

إلى الحق ولوا أيها القوم وجهكم — **إلى الحق لا يأخذكم فيه لائم**

---

[1] محمد الخليفة، الديوان 20

فما ضاع حق للمحامين واجد — ولا ذاع حق للمحامين عادم

هلم نبن عن حقنا في بلادنا — فكم فيه مرتاب وكم فيه واهم

علام بغى الباغي بها غمط حقنا — أنحن جمادات بها أم بهائم؟!

وما الحق إلا كهرباء خفية — لها القول سلك والعقول قوائ

فقل لضرير القلب لا تك واجماً — فليس يقيك الضر أنك واجم

ومن أين يدري الناس ضرك بينهم — وأنت له في جانب الصدر كاتم

وقل لبني قومي: دعوا الجبن وانهضوا — لفك رقاب أثقلتها الأداهم[1]

إن شعر الشاعر محمد الخليفة تاريخ وطني عربي وجزائري فشعره لوحة الجهاد الوطني ضد الاستعمار عبر خمسين عاماً وهو يدعو أبناء الأمة العربية تارة وأبناء الإسلام وأبناء أفريقيا فيقول في قصيدة:

اليوم أسدي على نول من الأدب — مطار في من خيوط الشمس للشهبِ

اليوم أهدي تحياتي وموعظتي — إلى العباقرة الصَّيابة النُّخبِ

النازلين كقَطر الغيث منسكبا — في ظل قُطر لهم بالبشر منسكب

الزاحفين لغارات النهي طلباً — والجامعين عليها الهم في الطلب

كم في الشم إلى من إفريقيا كرَب — وهم كتائبه الفرَّاجة الكربِ

برّوه نشأ ورباهم أبا فهم — في أرضه خير نشء تحت خير أب

يافتية طلعوا كالزهر في وسط — كالأفق جالت بها الأكدار كالسحب

النجدةَ النجدةَ ارعوا للشمال يداً — عليكم فهو بين النزع والعطب

هزوا القلوب قناً واعلوا النهي حُصُنا — وأنقذوه سراعاً من يد الغَلب

ألستم نسل آباءٍ به سلفوا — كانوا له وزراً عنغارة النوب[2]

---

(1) محمد الخليفة، الديوان 136

(2) المرجع السابق 231

المراجع

- ابن زيدون، الديوان.
- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة – ديوان، دار الكتب الشرقية: تونس 1955م.
- إحسان عباس، الشعر العربي في المهجر، دار صادر بيروت.
- أحمد بن المقري التلمساني، نفح الطيب تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر.
- الأدب العربي الحديث 2011م.
- إقبال العرقج، الرومانسية في الشعر السعودي، الطبعة الأولى.
- أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث دار العلم للملايين.
- أوستن وارين، رينيه ويليك، نظرية الأدب ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة د.حسام الخطيب.
- إيليا حاوي، الشعر العربي المعاصر، عمر أبو ريشه إبراهيم ناجي، بدوي الجبل، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الثانية 1980م.
- بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، نشر المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2001م.
- تزيفتان تودوروف، ترجمة د.منذر عياشي، النادي الأدبي جده عام 1411هـ/ 1990م.
- جامعة الأمام، مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي(بحوث مؤتمر) 1429هـ/ 2008م.
- حاتم الصكر، ترويض النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الأولى عام 1998م.
- حسن الأمراني، القصائد السبع، الطبعة الأولى، المطبعة المركزية، وجده، 1984م.
- حلمي القاعود، تطور الشعر العربي في العصر الحديث، الطبعة الأولى 1429 هـ/ 2008م.

- د / نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت 1918م، الطبعة الأولى.
- د مسعد عيد العطوي، الرمز في الشعر، مكتبة التوبة، 1412هـ.
- د.أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، دار المعارف المصرية.
- د.السيد أحمد عبدالغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، الطبعة الأولى 1401هـ/ 1981م.
- د.جميل حمداوي، مناهج النقد العربي الحديث و المعاصر اصدار نادي القصيم 2009م.
- د.شكري محمد عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، دار العلوم، الرياض، الطبعة الأولى.
- د.شوقي ضيف، استدعاء الشخصية.
- د.شوقي ضيف، بناء القصيدة في الشعر المعاصر.
- د.شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف المصرية.
- د.عباس حسنى، اتجاهات النهضة والتغيير، مكتبة السلام بمصر.
- د.عبد الستار إبراهيم، الأبداع، وكالة المطبوعات، الكويت..
- د.مجيد عبد الحميد ناجي، الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- د.محمد الربيعي في نقد الشعر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.
- د.محمد بن حسين، الأدب الحديث، تاريخ ودراسات، الطبعة الخامسة 147هـ/ 1990م مطابع الفرزدق، الرياض.
- د.محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندى، مكتبة سعد الدين، الطبعة الأولى.
- د.محمد غنيم هلال، الأدب المقارن، مطابع سجل العرب، عام 1970م.
- د.محمد مفتاح، دينامية التناص، المركز الثقافي.
- د.مسعد العطوي، الفكر والشكل في الشعر السعودي، عالم الكتاب الحديث 2014م.
- د.مسعد بن عيد العطوي، الشعر الوجداني، عام 1415 هـ/ 2011م.

- د.مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة 1995م.
- د.يوسف عز الدين، في الأدب العربي الحديث، الهيءة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1393 هـ/ 1973م.
- راث كيمبسون، نظرية علم الدلالة السمانطقية، ترجمة عبد القادر قنينى، الدار العربية للعلوم، الرباط، الطبعة الأولى 1430 هـ/ 2009م.
- رجاء عيد، فلسفة الإلتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، منشأة المعارف بالأسكندرية الطبعة الأولى 1988م.
- روبرت جلكنر، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1986م.
- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى1989م.
- سيد حامد النساج، الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1935م.
- الشابي، أغاني الحياة، دار الكتاب الشرقية، تونس.
- الصادق بن الناعس ترجم "مدخل إلى المناهج النقدية في التحليل الأدبي" نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1429 هـ/ 2008م.
- عباس الجراري، الأدب المغربي، مكتبة المعارف الرباط.
- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، عالم المعرفة الكويت.
- عبد الكريم الطبال، الأشياء المنكسرة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.
- عبد الواحد، المرابط، السيمياء العامة، وسيمياء الأدب، منشورات الأختلاف.
- عبدالسلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب الطبعة الثانية، 1982م.
- عبدالسلام بو حجر، أجراس الأمل، ديوان شعر، المطبعة المركزية، وجدة1985م.
- عبدالله خضر حمد، اسلوبية الأنزياح في شعر المعلقات، عالم الكتب الحديث، الأردن.

- عثمان بن طالب، مختارات تونسية في النقد والفكر، منشورات إتحاد الكتاب التونسيين، الطبعة الأولى.
- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، الطبعة الثانية دار الفكر العربي 1978م.
- عزالدين الأدريسي، إشراقات/ شعر، 1406 هـ/ 1986م.
- على بن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي.
- كاتارينا مومزن، جوته والعالم العربي، ترجمة، عدنان عباس على، عالم المعرفة.
- كامل حسن البصير، بناء الصورة الفنية في البيان العربي، الطبعة الأولى 1987م.
- كول لريدج، النظرية الرومانتيكية في الشعر، ترجمة عبد الحكيم حسان دار المعارف بمصر1971م.
- محمد الحبيب الفرقاني، دخان من الأزمنة المحترقة، دار النشر المغربية.
- محمد العيد خليفة، الديوان، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر.
- محمد بن تاويت، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة، الطبعة الأولى 1402هـ/ 1983م.
- محمد خفاجي دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسة، مكتبة الأزهر.
- محمد صابر عبيد، العلاقات الشعرية، قراءات في تقانات القصيدة الحديثة، عالم الكتب الحديث.
- محمد غنيمي هلال، في النقد التطبيقي والمقارن، دار نهضة مصر.
- محمد ياسر شرف، النثيرة والقصيدة المضادة، النادي الأدبي الرياض1401هـ/ 1971م.
- منذر عياشي، العلاماتية السميولوجيا، عالم الكتب الحديث الأردن، 2013م الطبعة الأولي.
- نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة 2005م.

- اليوت نشاردز، مبادئ النقد العربي، ترجمة الدكتور/ مصطفى بدوي، مراجعة الدكتور/ لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة.
- يوسف ميخائيل اسعد، سيكولوجية الإبداع، الهيئة المصرية للكتاب عام 1986م.

المجلات

- إبداع.
- أقلام.
- بحوث مؤتمر جرش ،عن الأدب الأندلسي، الأردن.
- صحيفة الجزيرة (الملحق الثقافي).
- صحيفة الرياض (الملحق الثقافي).
- صحيفة المدينة المنورة (ملحق الأربعاء الثقافي).
- العلامات، نادي جدة.
- فصول، مجلة مصرية.
- كتابات معاصرة،مجلة الإبداع عدد58.
- الكرمل.
- مجلة شعر، بيروت.
- المجموعة العامة، لمجلة ابولو.
- ملتقى علم النص، مجلة ملتقى علم النص، الجزائر.